سورة الفتح

وهي عشرون وتسع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الفتح وجوه: أحدها: فتح مكة وهو ظاهر. وثانيها: فتح الروم وغيرها. وثالثها: المراد من الفتح صلح الحديبية. ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان. وخامسها: المراد منه الحكم كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦] والمختار من الكل وجوه: أحدها: فتح مكة، والثاني: فتح الحديبية، والثالث: فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان. والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] بيّن تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. ثانيها: لما قال: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] بيّن برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعلون. ثالثها: لما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى السَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥] وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح في أحد الوجوه، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين، فإن قيل: إن كان المراد فتح مكة، فمكة لم تكن قد فُتحت، فكيف قال تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بلفظ الماضي؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: فتحنا في حكمنا وتقديرنا. ثانيهما: ما قدره الله تعالى فهو كائن، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع له، وواقع لا رافع له.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ينبئ عن كون الفتح سببًا للمغفرة، والفتح لا يصلح سببًا للمغفرة، فما الجواب عنه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: ما قيل إن الفتح لم يجعله سببًا للمغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة، كأنه تعالى قال: ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك. ولا

شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح، فإن النعمة به تمت، والنصرة بعده قد عمت. الثاني: هو أن فتح مكة كان سببًا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان، وتطهير بيته صار سببًا لتطهير عبده. الثالث: هو أن بالفتح يحصل الحج، ثم بالحج تحصل المغفرة، ألا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا، وَسَعْيًا مَشْكُورًا، وَذَنْبًا مَغْفُورًا» الرابع: المراد منه التعريف، تقديره إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور لك، معصوم، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له.

المسألة الثالثة: لم يكن للنبي ﷺ ذنب، فماذا يُغفر له؟ قلنا: الجواب عنه قد تقدم مرارًا من وجوه: أحدها: المراد ذنب المؤمنين. ثانيها: المراد ترك الأفضل. ثالثها: الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد، وهو يصونهم عن العُجْب. رابعها: المراد العصمة، وقد بينا وجهه في سورة القتال.

المسألة الرابعة: ما معنى قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أنه وعد النبي عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة. ثانيها: ما تقدم على الفتح، وما تأخر عن الفتح. ثالثها: العموم يقال: اضرب من لقيت ومن لا تلقاه، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم. رابعها: من قبل النبوة ومن بعدها، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة، وفيه وجوه أُخر ساقطة، منها قول بعضهم: ما تقدم من أمر مارية، وما تأخر من أمر زينب. وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج، وهو آخر التكاليف، والتكاليف نِعم. ثانيها: يُتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار، فإن بعضهم كانوا أُهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح. ثالثها: ويُتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح، وفي الآخرة بقبول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح. وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يحتمل وجوهًا، أظهرها: يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يُلتفت إلى قوله من المضلين، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣] حيث أهلكت المجادلين فيه، وحملتهم على الإيمان. وثانيها: أن يقال: جعل الفتح سببًا للهداية إلى الصراط المستقيم؛ لأنه سَهَّل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد، والجهاد سلوك سبيل الله، ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد. وثالثها: ما ذكرنا أن المراد التعريف؛ أي لِيُعرف أنك على صراط مستقيم، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل. وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ظاهر؛ لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر.

وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية:

أما المسألة اللفظية: فهي أن الله وصف النصر بكونه عزيزًا، والعزيز من له النصر.

والجواب من وجهين: أحدهما: ما قاله الزمخشري أنه يحتمل وجوهًا ثلاثة: الأول: معناه نصر ذا عز، كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات رضى. الثاني: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسنادًا مجازيًّا، يقال: له كلام صادق، كما يقال له: متكلم صادق. الثالث: المراد نصرًا عزيزًا صاحبه.

الوجه الثاني من الجواب أن نقول: إنما يلزمنا ما ذكره الزمخشري من التقديرات إذا قلنا: العزة من الغلبة، والعزيز الغالب، وأما إذا قلنا: العزيز هو النفيس القليل النظير، أو المحتاج إليه القليل الوجود، يقال: عز الشيء، إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه، فالنصر كان محتاجًا إليه ومثله لم يوجد، وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد.

أما المسألة المعنوية: وهي أن الله تعالى لما قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ﴾ أبرز الفاعل وهو الله، ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَيُتِمَّ﴾ وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول، ولا يظهر فيما بعده، تقول: جاء زيد وتكلم، وقام وراح، ولا تقول: جاء زيد، وقعد زيد اختصارًا للكلام بالاقتصار على الأول، وهاهنا لم يقل وينصرك نصرًا، بل أعاد لفظ (الله)، فنقول: هذا إرشاد إلى طريق النصر، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة، فقال تعالى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ﴾ [الروم: ٥] ولم يقل بالنصر ينصر، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٦٢] ولم يقل بالنصر، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] ولم يقل نصر وفتح، وقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] وهذا أدل الآيات على مطلوبنا، وتحقيقه هو أن النصر بالصبر، والصبر بالله، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه، وذلك بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فلما قال هاهنا (وينصرك الله)، أظهر لفظ (الله) ذكرًا للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب، وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر.

وهاهنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ ثم قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيمًا لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي عليه السلام العصمة، فذلك لم يختص بنبينا، بل غيره من الرسل كان معصومًا، وإتمام النعمة كذلك، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] وكذلك الهداية قال الله تعالى: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] فعمم، وكذلك النصر قال الله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي ﷺ، فعَظَّمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ وفيه التعظيم من وجهين: أحدهما: إنا. وثانيهما: لك، أي لأجلك على وجه المنة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

لما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] بَيَّن وجه النصر، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء، أو جند يرسله من السماء، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به؛ ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي تحقيقًا للنصر، وفي السكينة وجوه: أحدها: هو السكون. الثاني: الوقار لله ولرسول الله، وهو من السكون. الثالث: اليقين. والكل من السكون. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] في قول أكثر المفسرين ويحتمل هي تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب.

المسألة الثانية: السكينة المُنزّلة عليهم هي سبب ذكرهم الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

المسألة الثالثة: قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلفظ القذف المزعج وقال في حق المؤمنين: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بلفظ الإنزال المثبت، وفيه معنى حكمي وهو أن من علم شيئًا من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير، ومن كان غافلاً عن شيء فيقع دفعة يرجف فؤاده، ألا ترى أن من أُخبر بوقوع صيحة وقيل له: لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف، ومن لم يخبر به وأُخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف في قلبه فارتجف، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن.

وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه وجوه: أحدها: أمرهم بتكاليف شيئًا بعد شيء فآمنوا بكل واحد منها، مثلاً أُمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا، ثم أُمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم. ثانيها: أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيمانًا بالغيب فازدادوا إيمانًا مستفادًا من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب. ثالثها: ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول، فإنهم آمنوا بأن محمدًا رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن، وآمنوا بأن كل ما يقول النبي ﷺ صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب. رابعها: ازدادوا إيمانًا استدلاليًا مع إيمانهم الفطري، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ولم يقل مع

كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي، بل الكفر ليس إلا عناديًا، وكذلك الكفر بالفروع، لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع، وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكان قادرًا على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل، بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب، وفي جنود السموات والأرض وجوه: أحدها: ملائكة السموات والأرض. ثانيها: مَن في السموات من الملائكة ومَن في الأرض من الحيوانات والجن. وثالثها: الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كِسْف من السماء والخسف من جنوده.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعددهم غير محصور، أثبت العلم إشارة إلى أنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] وأيضًا لما ذكر أمر القلوب بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والإيمان من عمل القلوب، ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئًا متقنًا ويعلمه، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقًا لا يقال له حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

يستدعي فعلًا سابقًا ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ فإن من قال ابتداء: (لتكرمني) لا يصح ما لم يقل قبله: (جئتك) أو ما يقوم مقامه، وفي ذلك الفعل وجوه، وضبط الأحوال فيه بأن تقول: ذلك الفعل إما أن يكون مذكورًا بصريحه أو لا يكون، وحينئذٍ ينبغي أن يكون مفهومًا، فإما أن يكون مفهومًا من لفظ يدل عليه بل فُهم بقرينة حالية فإن كان مذكورًا فهو يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤]كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانًا بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات، فإن قيل: فقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ [الفتح: ٦]عطف على قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وازدياد إيمانهم لا يصلح سببًا لتعذيبهم. نقول: بلى وذلك من وجهين أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصودًا للمؤمنين، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات، ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين. الثاني: تقديره: ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال: فعلته لأجرب به العدو والصديق، أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذلك ليزداد المؤمن إيمانًا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرًا فيعذبه به. ووجه آخر ثالث: وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيا المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا. الثاني: قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣]كأنه تعالى قال: وينصرك الله بالمؤمنين

ليدخل المؤمنين جنّات . الثالث : قوله : ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾[الفتح : ٢] على قولنا المراد ذنب المؤمن، كأنه تعالى قال : ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات .

وأما إن قلنا : هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهًا أيضًا : أحدها : قوله : ﴿حَكِيمًا﴾[الفتح : ٤] يدل على ذلك، كأنه تعالى قال : الله حكيم، فَعَل ما فعل ليُدخل المؤمنين جنات . وثانيها : قوله تعالى : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾[الفتح : ٢] في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ ثالثها : قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾[الفتح : ١] ووجهه هو أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ : هنيئًا لك إن الله غفر لك فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، كأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنّات .

وأما إن قلنا : إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال، فنقول : هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال، فكأنه تعالى قال : إن الله تعالى أمر بالقتال ليُدخل المؤمنين . أو نقول : عُرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين ليدخلهم جنّات .

المسألة الرابعة : قال ههنا وفي بعض المواضع : ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم، كما في قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب : ٤٧] وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون : ١] فما الحكمة فيه؟ نقول : في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم، ذكرهن الله صريحًا، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين، فقوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب : ٤٧] مع أنه علم من قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ : ٢٨] العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى : ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها، صرح الله بذكرهن، وكذلك في المنافقات والمشركات، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب، فصرّح الله تعالى بذكرهن، وكذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب : ٣٥] لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ . . . ﴿وَأَقِمْنَ﴾ . . . ﴿وَءَاتِينَ﴾ . . . ﴿وَأَطِعْنَ﴾[الأحزاب : ٣٣] وقوله : ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب : ٣٤] فكان ذكرهن هناك أصلاً، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم، ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع .

المسألة الخامسة : قال الله تعالى : ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال؟ نقول : الجواب عنه من وجهين : أحدهما : الواو لا تقتضي الترتيب . الثاني : تكفير السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة . الثالث : وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في

الجنة، وكان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجِرمية كالفضلات، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير، وتثبت فيه الصفات المَلَكية وهي أشرف أنواع الخلع.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فيه وجهان: أحدهما مشهور: وهو أن الإدخال والتكفير في الله فوز عظيم، يقال: عندي هذا الأمر على هذا الوجه، أي في اعتقادي. وثانيهما: أغرب منه وأقرب منه عقلاً، وهو أن يجعل عند الله كالوصف لذلك، كأنه تعالى يقول: ذلك عند الله، أي بشرط أن يكون عند الله تعالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

واعلم أنه قَدَّم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور: أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ» (١) والمنافق على صورة الشيطان، فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك، وإنما يأتيه على أني صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهًا: أحدها: هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢] ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٣ - ٢٨] ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] والأول أصح أو نقول: المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى، وأن العالم خلقه باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذي في السوء

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (٢/ ١٥٦)، حديث رقم (٣٤٣) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا إسماعيل بن عياش عن حنش الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس... به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٦٠)، حديث رقم (٤١٢). وقال: رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شواهد من حديث أنس، ويجري على ألسنة كثيرين (أعدى عدويك) بالتثنية في الموضوعين، ولا أصل له بهذا اللفظ، والمشهور على الألسنة (أعدى عدوك) بالإفراد في (عدوك) وما أحسن ما قيل:

إني بُليت بأربع ما سُلطوا ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وسنذكره في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: ما اختاره المحققون من الأدباء، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد، والصدق عبارة عن الصلاح، يقال: مررت برجل سَوء، أي فاسد، وسئلت عن رجل صدق، أي صالح، فإذا كان مجموع قولنا: رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري، وتحقيق هذا أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد، يقال: ساء مزاجه، وساء خلقه، وساء ظنه، كما يقال: فسد اللحم وفسد الهواء، بل كان ما ساء فقد فسد، وكل ما فسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الأجرام، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] وقال: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] هذا ما يظهر لي من تحقيق كلامهم.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي دائرة الفساد، وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء، فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان، فيكون مصابًا لكي يصير مثابًا، وقد يكون مصابًا على وجه التعذيب، فقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب، وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد، فقال: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ لكون الغضب شديدًا، ثم لما بيّن حالهم في الدنيا بيّن مآلهم في العقبى فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَسَآءَتْ﴾ إشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال: هذه الدار نعم المكان، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد تقدم تفسيره. **وبقي فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الفائدة في الإعادة؟ نقول: لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة، وقد يكون للعذاب فذَكَرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وهنا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لأن قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣].

المسألة الثالثة: ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جنهم، نقول: فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾

[الفتح: ٥] كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود، فالجنود في الرحمة أولاً ينزلون ويقربون آخرًا، وأما في الكافر فيغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم، ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] ولذلك ذكر جنود الرحمة أولاً والقربة بقوله عند الله آخرًا، وقال هاهنا: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ وهو الإبعاد أولاً، وجنود السموات والأرض آخرًا.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

قال المفسرون: ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك بما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والأولى أن يقال: إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ وعليه يشهد أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وهم الأنبياء عليهم السلام، الذين آتاهم الله علمًا من عنده وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي فاشهد. وقوله ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن قَبِل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن رد شهادته ويخالفه فيها، ثم بيّن فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل، فقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مرتب على قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ لأن كونه مرسلاً من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله المرسِل وبالمرسَل وقوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ يقتضي أن يعزر الله ويقوي دينه لأن قوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو، فدينه هو الحق وأحق أن يتبع، وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ يقتضي أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه. وقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان، ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن. وثانيهما: أن يكون كل واحد مقتضيًا للأمور الأربعة، فكونه مرسلاً يقتضي أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه، وكذلك كونه ﴿شَٰهِدًا﴾ بالوحدانية يقتضي الأمور المذكورة، وكذلك كونه ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لا يقال: إن اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلاً مقدمًا يتعلق به ولا يتعلق بالوصف، وقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ يستدعي فعلاً وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فكيف تترتب الأمور على كونه ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ لأنا نقول: يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظًا، كما أن القائل إذا قال: بعثت إليك عالمًا لتكرمه. فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الإكرام، وفي المعنى كونه عالمًا هو السبب للإكرام، ولهذا لو قال: بعثت إليك جاهلاً لتكرمه كان حسنًا،

وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول: الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهدًا، كما تقول: بعث العالم سبب جعله سببًا لا مجرد البعث، ولا مجرد العالم.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الأحزاب: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وهاهنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة، فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصَّل هنالك، ولم يفصل هاهنا ثانيهما: أن نقول: الكلام مذكور هاهنا لأن قوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ لما لم يقتض أن يكون داعيًا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله، ولا يدعو الناس قال هناك وداعيًا لذلك، وهاهنا لما لم يكن كونه ﴿شَٰهِدًا﴾ منبئًا عن كونه داعيًا قال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ دليل على كونه سراجًا لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح.

المسألة الثانية: قد ذكرنا مرارًا أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة، ويحتمل أن يكون أمرًا بخلاف ما كان المشركون يعملونه، فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرةً وعشية، فأُمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر.

المسألة الثالثة: الكنايات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؟ والأصح هو الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

لما بيّن أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ يحتمل وجوهًا، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد، وإما أن تكون بمعنيين، فإن قلنا: إنها بمعنى واحد، ففيه وجهان: أحدهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وثانيهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقهر. وأما إن قلنا: إنها بمعنيين، فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع والشراء، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع، فيضع يده على يديهما، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر، فوضع اليد فوق الأيدي صار سببًا للحفظ على البيعة، فقال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ أما على قولنا: المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة، فلأن من نكث فوَّت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل، فقد خسر ونكثه على نفسه، وأما على قولنا: المراد الحفظ، فهو عائد إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني من يبايعك أيها النبي إذا نكث لا يكون نكثه عائدًا إليك؛ لأن البيعة مع الله ولا إلى الله؛ لأنه لا يتضرر بشيء، فضرره لا يعود إلا إليه. قال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع، ولا اتساع لعرضه جبل عالٍ أو مرتفع أو شاهق، فإذا انضم إليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم، والأجر كذلك؛ لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس، وتكون في غاية الكثرة، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم، والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته، كما أنه في الجسم إشارة إلى كماله في جهاته.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

لما بيّن حال المنافقين ذكر المتخلفين، فإن قومًا من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ لظنهم أنه يُهزم، فإنهم قالوا: أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو؟! فاعتذروا، وقولهم: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ فيه أمران يفيدان وضوح العذر: أحدهما: (قولهم): ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾ ولم يقولوا شغلتنا الأموال، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذرًا (لأنَّهُ) لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا﴾ أي ما صار مالاً لنا لا مطلق الأموال. وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلُونَا﴾ وذلك لو أن قائلاً قال لهم: المال لا ينبغي أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول ﷺ! لكان لهم أن يقولوا: فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج. فكَذَّبهم الله تعالى فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون التكذيب راجعًا إلى قولهم: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا، ولم يكن في اعتقادهم ذلك، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾ إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا غير، ولم يكن ذلك في اعتقادهم، بل كانوا يعتقدون

امتناعهم لاعتقاد أن النبي ﷺ والمؤمنين يقهرون ويغلبون، كما قال بعده: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ معناه أنكم تحترزون عن الضرر. وتتركون أمر الله ورسوله، وتقعدون طلبًا للسلامة، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئًا، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك، فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة، مع أن ذلك أَوْلى بالاحتراز، وقد ذكرنا في سورة يس في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣] أنه في صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر، فقال هاهنا ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧] وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك، ولا نعيده ليكون هذا باعثًا على مطالعة تفسير سورة يس، فإنها درج الدرر اليتيمة، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ وأن مخففة من الثقيلة، أي ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون، وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني ظننتم أولاً، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل، وإن كان لا يشك فيها العاقل.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون هذا العطف عطفًا يفيد المغايرة، فقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ غير الذي في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ وحينئذٍ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه: وظننتم أن الله يخلف وعده، أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله. وثانيهما: أن يكون قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا، ويكون على حد قول القائل: علمت هذه المسألة وعلمت كذا، أي هذه المسألة لا غيرها، وذلك كأنه قال: بل ظننتم ظن أن لن ينقلب. وظنكم ذلك فاسد، وقد بينا التحقيق في ظن السوء، وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين. وثانيها: أنتم في الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

على قولنا: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] ظن آخر غير ما في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ ظاهر؛ لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أو ظنهم بأن الرسول كاذب فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ويظن به خلفًا وبرسوله كذبًا، فإنا أعتدنا له سعيرًا، وفي قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلاً عن أن يقول فإنا أعتدنا له فائدة، وهي التعميم، كأنه تعالى قال: ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعًا؛ لأن مَن عظُم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم، وعذابه وعقوبته كذلك في غاية النكال والألم.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾.

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عندما يكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾ فإذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه في المدينة، وفي قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾.

يحتمل وجوهًا: أحدها: هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لا غير، وهو الأشهر عند المفسرين والأظهر نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾.

ثانيها: يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ٦] وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة، فيكونون من الذين رضي الله عنهم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨] فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله. ثالثها: هو أن النبي ﷺ لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم، وقال للنبي ﷺ: ﴿فَقُل لَّن

تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾[التوبة: ٨٣] فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه، لا يقال: فالآية التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة. لأنا نقول: قد وجد هاهنا بقوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله: لا تتبعونا، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي ﷺ بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ يعني لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ردًا على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا: ما قال الله كذلك من قبل، بل تحسدوننا، وبل للإضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين، أما هاهنا فهو بتقدير: ما قال الله وكذلك، فإن قيل: بماذا كان الحسد في اعتقادهم؟ نقول: كأنهم قالوا: نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم كما ردوا: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم يفقهوا من قولك: (لا تخرجوا) إلا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه إلا قليلاً، فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

لما قال النبي ﷺ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾[الفتح: ١٥] وقال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾[التوبة: ٨٣] فكان المخلفون جمعًا كثيرًا، من قبائل متشعبة، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق، بل منهم من حسن حاله وصلح باله، فجعل لقبول توبتهم علامة، وهو أنهم يُدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ويطيعون، بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي ﷺ واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بيّن أنهم يُدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه، والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين: أحدهما: أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله، فلم يبين لتوبته علامة، والأعراب تغيرت، فإن بعد النبي ﷺ لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة. وثانيهما: أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمسُّ؛ لأنه لولا البيان لكان يفضي الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين.

وفي قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر. وثانيها: هم فارس والروم، غزاهم عمر. ثالثها: هوازن وثقيف، غزاهم النبي ﷺ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي ﷺ وإن كان الأظهر

غيره، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي ﷺ ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر، أو مؤمن تقي طاهر، وامتنع النبي ﷺ من الصلاة على موتى المنافقين، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى إن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقًا، فإن كان ظهر حالهم بغير هذا، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه، لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿فَاتَّبِعْنِيٓ﴾ [مريم: ٤٣].

فإن قيل: هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ قال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] وقال: ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] فكيف كانوا يتبعونه مع النفي؟ الثاني: قوله تعالى: ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق بعده شدة وبأس، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور.

نقول: أما الجواب عن الأول فمن وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك مقيدًا، تقديره: لن تخرجوا معي أبدًا وأنتم على ما أنتم عليه. ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك، وما كان يجوز للنبي ﷺ أن يقول لهم: لستم مسلمين. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدًا، وقد تبيّن حسن حالهم، فإن النبي ﷺ دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان.

الثاني: المراد من قوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] في هذا القتال فحسب وقوله: ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ﴾ [التوبة: ٨٣] كان في غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك، وأما اتفاق الجمهور فنقول: لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول: النبي ﷺ دعاهم أولاً، وأبو بكر رضي الله عنه أيضًا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي ﷺ، إنما نحن نثبت أن النبي ﷺ دعاهم. فإن قالوا: أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تنافٍ، وإن قالوا: لم يدعهم النبي ﷺ فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع، وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١] ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان - بعيد، ويوم قوله ﷺ: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق؛ لأنه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة.

وأما قوله: لم يبق للنبي ﷺ حرب مع أولي بأس شديد، قلنا: لا نسلّم ذلك لأن النبي ﷺ عام الحديبية دعاهم إلى الحرب؛ لأنه خرج محرمًا ومعه الهدي ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال: ستدعون إلى الحرب. ولا شك أن من يكون خصمه مسلحًا محاربًا أكثر بأسًا ممن يكون على خلاف ذلك، فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجًّا ولا معتمرًا فقوله: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني أولي سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد، ومن قال بأن الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة، وحينئذٍ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إشارة إلى أن أحدهما يقع، وقرئ (أو يسلموا) بالنصب بإضمار (أنْ) على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا، والتحقيق فيه هو أن ﴿أَوْ﴾ لا تجيء إلا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال: العدد زوج أو فرد، ولهذا لا يصح أن يقال: هو زيد أو عمرو، ولهذا يقال: العدد زوج أو خمسة أو غيرهما، إذا علم هذا فقول القائل: (لألزمنك أو تقضيني حقي) يفهم منه أن الزمان انحصر في قسمين: قسم يكون فيه الملازمة، وقسم يكون فيه قضاء الحق، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق، فيكون في قوله: لألزمنك أو تقضيني، كما حكي في قول القائل، لألزمنك إلى أن تقضيني؛ لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء، وهذا ما يضعف قول القائل: الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ فيه فائدة لأن التولي إذا كان بعذر كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] لا يكون للمتولي عذاب أليم، فقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ يعني إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ [الفتح: ١١] فالله يعذبكم عذابًا أليمًا.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

ثم إن الله تعالى قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ بيّن من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر، وبيّن ذلك ببيان ثلاثة أصناف: الأول: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا

يمكنه الاحتراز والهرب، والأعرج كذلك والمريض كذلك، وفي معنى الأعرج الأقطع والمقعد، بل ذلك أَوْلى بأن يُعذر، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يُعذر، وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف، وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذرًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن هذه أعذار تكون في نفس المجاهد، ولنا أعذار خارجة كالفقر الذي لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه، والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض، والأعذار تُعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الأعذار التي في السفر؛ لأن غيرها ممكن الإزالة بخلاف العرج والعمى.

المسألة الثانية: اقتصر منها على الأصناف الثلاثة؛ لأن العذر إما أن يكون بإخلال في عضو أو بإخلال في القوة، والذي بسبب إخلال العضو فإما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال، أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول، والأول: هو الرِّجل، والثاني: هو العين؛ لأن بالرِّجل يحصل الانتقال، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب. وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء، فلا مدخل لها في شيء من الأمرين، بقيت اليد، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء، وهو عذر واضح ولم يذكره، نقول: لأن فائدة الرِّجل وهي الانتقال تبطل بالخلل في إحداهما، وفائدة اليد وهي الضراب والبطش لا تبطل إلا ببطلان اليدين جميعًا، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادرًا، ولعل في جماعة النبي ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره، أو لأن المقطوع يُنتفع به في الجهاد، فإنه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل، وهو غير معذور في التخلف؛ لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى، فإن قيل: كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته، وقد ذكر الأعمى، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين، قلنا: لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما، والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر.

المسألة الثالثة: قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة؛ لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ، والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول، فإن الأعمى لا يعود بصيرًا، فالعذر في محل الآلة أتم.

المسألة الرابعة: قدم الأعمى على الأعرج؛ لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكبًا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانًا لطاعة الله، فإن الله تعالى لو قال: ومن يطع الله، كان لبعض الناس أن يقول: نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه؟ فقال: طاعته في طاعة رسوله وكلامه يُسمع من رسوله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي بقلبه، ثم لما بيّن حال المخلفين بعد قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] عاد إلى بيان حالهم وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا على الموت، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ١٧] فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية، وفي هذه الآية بيّن أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأما طاعة الرسول فبقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والفاء للتعقيب وعِلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم، فكيف يُفهم التعقيب في العلم؟

نقول قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيدًا فقام إليّ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبًا كذلك.

هاهنا قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم، والفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للتعقيب الذي ذكرته فإنه تعالى رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم، وفي عَلِم بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم، وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه، الله تعالى إلى معاني كتابه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مغانمها وقيل: مغانم هجر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ كامل القدرة غنيًا عن إعانتكم إياه ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه، أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين، فإنه يُذل من يشاء بعزته ويُعز من يشاء بحكمته.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل الجزاء قدامهم، وإنما هي العاجلة، عجل بها، وفي المغانم الموعود بها أقوال، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها والله كان عالمًا بها، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه: يكون لك مني على ما فعلته الجزاء إن شاء الله. ولا يريد شيئًا بعينه، ثم كل ما يأتي به ويؤتيه يكون داخلاً تحت ذلك الوعد، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد، والله عالم بها. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ لإتمام المنة، كأنه قال: رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم: هذا جزاء تعبنا، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ واللام ينبئ عن النفع كما أن على ينبئ عن الضر القائل (لا علي ولا ليا) بمعنى لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع، فكذلك قوله ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ لتنفعكم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون، فقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم، أو نقول: معناه لتنفعكم في الظاهر وتنفعكم في الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب، فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾.

قيل: غنيمة هوازن، وقيل: غنائم فارس والروم، وذكر الزمخشري في (أخرى) ثلاثة أوجه: أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾ و﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ صفة لأخرى كأنه يقول: وغنيمة أخرى غير مقدورة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ثانيها: أن تكون مرفوعة، وخبرها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا. وثالثها: الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب، وفيه وجهان: أحدهما: كأنه تعالى قال: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ وأخرى ما قدرتم عليها. وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها. وثانيهما: على مغانم كثيرة تأخذونها، وأخرى أي وعدكم الله أخرى، وحينئذٍ كأنه قال: وعدكم الله مغانم تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين. وعلى هذا تبين لقول الفرّاء حُسْن، وذلك لأنه فسر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كإحاطة الحراس بالخزائن.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وهو يصلح جوابًا لمن يقول: كف الأيدي عنهم كان أمرًا اتفاقيًا، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها، فقال: ليس كذلك، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، والغلبة واقعة للمسلمين، فليس أمرهم أمرًا اتفاقيًا، بل هو إلهي محكوم به محتوم.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

قد ذكرنا مرارًا أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف، أو بنصير يدفع بالعنف، وليس للذين كفروا شيء من ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ﴾ لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه، فقال: وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم.

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾.

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد، وهو أن الطوالع لها تأثيرات، والاتصالات لها تغيرات، فقال: ليس كذلك (بل) سنة الله نصرة رسوله، وإهلاك عدوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه، بل الله فاعل مختار، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعًا، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ يعني أن الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه، ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

تبيينًا لما تقدم من قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] أي هو بتقدير الله؛ لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم، وقوله تعالى: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف، ومع ذاك وُجد كف الأيدي، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة، فإن ذلك يقتضي أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم، ويقتضي أن يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكُسروا وأُسروا لبعد مأمنهم، فقوله: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى بعد الكف، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ صالح لأمرين: أحدهما: أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم، مع أن

الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم، ولكثرة عددهم. الثاني: أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين، مع أن الله حققهما مع المنافقين، أما كف أيدي الكفار، فكان بعيدًا لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم، وإليه أشار بقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وأما كف أيدي المسلمين، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذي لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه، مع أن الله كف اليدين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

يعني كان الله يرى فيه من المصلحة، وإن كنتم لا ترون ذلك، وبيَّنه بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾[الفتح: ٢٥] يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء مَن فيها من المؤمنين والمؤمنات، واختلف المفسرون في ذلك الكف: منهم من قال: المراد ما كان عام الفتح، ومنهم من قال: ما كان عام الحديبية، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم، وقيل: إن الحرب كان بالحجارة.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا، وكل ذلك يقتضي قتالهم، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا، ولم يبق بينهما نزاع، بل الاختلاف باقٍ والنزاع مستمر؛ لأنهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرًا وعداوة، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، وقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ منصوب على العطف على كُم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ويجوز الجر عطفًا على المسجد، أي وعن الهدي. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال و﴿أَن يَبْلُغَ﴾ تقديره على أن يبلغ، ويحتمل أن يقال: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ رفع، تقديره معكوفًا بلوغه محله، كما يقال: رأيت زيدًا شديدًا بأسه، ومعكوفًا، أي ممنوعًا، ولا يحتاج إلى تقدير (عن) على هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وصف الرجال والنساء، يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين، وقوله تعالى: ﴿أَن

﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال، كأنه قال: رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة، عيب أو إثم، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الإثم، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال الزمخشري: هو متعلق بقوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ يعني تطئوهم بغير علم، وجاز أن يكون بدلاً عن الضمير المنصوب في قوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولقائل أن يقول: يكون هذا تكرارًا؛ لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير: لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم، فيلزم تكرار بغير علم الحصول بقوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فالأولى أن يقال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هو في موضعه تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، من يعركم ويعيب عليكم، يعني إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهل لا يعلمون أنكم معذورون فيه، أو نقول: تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، أي فتقتلوهم بغير علم، أو تؤذوهم بغير علم، فيكون الوطء سبب القتل، والوطء غير معلوم لكم، والقتل الذي هو بسبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم. أو نقول: المعرة قسمان: أحدهما: ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل. والثاني: ما يحصل من القتل خطأ، وهو غير عدم العلم، فقال: تصيبكم منهم معرة غير معلومة، لا التي تكون عن العلم، وجواب (لولا) محذوف تقديره: لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم. هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن، ويحتمل أن يقال: جوابه: ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني قد استحقوا لأن لا يهملوا، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه، كما يقول القائل: هو سارق ولولا فلان لقطعت يده، وذلك لأن (لولا) لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير، فذكر الله تعالى أولاً المقتضي التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فيه أبحاث:

الأول: في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسببه يكون الإدخال، وفيه وجوه: أحدها: أن يقال: هو قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ليُدخل، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال: كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن نقول: كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا، كما يقال: أطعمته ليشبع ليغفر الله لي أي الإطعام للشابع كان ليغفر. الثاني: هو أنا بينا أن (لولا) جوابه ما دل عليه قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيكون كأنه قال: هم الذين كفروا واستحقوا التعجل في إهلاكهم، ولولا رجال لعجل بهم، ولكن كف أيديكم ليدخل.

ثانيها: أن يقال: فَعَل ما فَعَل ليُدخل. لأن هناك أفعالاً من الألطاف والهداية وغيرهما،

وقوله: ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ليؤمن منهم مَن عَلِم الله تعالى أنه يؤمن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته. وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميزوا، والضمير يحتمل أن يقال: هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، فإن قيل: كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله (لمَا كف أو لعجَّل) ولو كان ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ راجعًا إلى الرجال لكان (لعذبنا) جواب (لولا)؟ نقول: وقد قال به الزمخشري فقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء، كأنه قال: ليُدخل من يشاء في رحمته، لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: وهو على تقدير نفرضه، فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم، إما بسبب عدم التزييل، أو بسبب وجود الرجال، وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع عن الكافر، نقول: المراد عذابًا عاجلاً بأيديكم يبتدئ بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليمًا.

البحث الثاني: ما الحكمة في ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل في ذكر المذكر عند الاجتماع؟ قلنا: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: ما تقدم يعني أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله: ﴿تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم﴾ معناه تهلكوهم، والمراد لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال: والنساء المؤمنات أيضًا لأن تخريب بيوتهن ويُتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة. وثانيهما: أن في محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب، يقال لمن يعذب شخصًا: لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين، فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ﴾ لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملاً له، ويحتمل أن يكون مفعولاً به، فإن قلنا: إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور، ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور، فإن قلنا: هو مذكور ففيه وجهان: أحدهما: هو قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي وصدوكم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. وثانيها: قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. والثاني

أقرب لقربه لفظًا وشدة مناسبته معنى؛ لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد في الجهاد، والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابًا أليمًا أو غير المؤمنين. وأما إن قلنا: إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان: أحدهما: حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل في قلوبهم الحمية. وثانيها: أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ تفسير لذلك الإحسان. وأما إن قلنا: إنه مفعول به، فالعامل مقدر تقديره اذكر، أي: اذكر ذلك الوقت، كما تقول: أتذكر إذ قام زيد، أي أتذكر وقت قيامه كما تقول: أتذكر زيدًا، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملاً فيه.

وفيه لطائف معنوية ولفظية: الأولى: هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، فأشار إلى ثلاثة أشياء: أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجعل ما للمؤمنين بجعل الله، فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وبين الفاعلَين ما لا يخفى. ثانيها: جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره. ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال: حمية الجاهلية، وقال: سكينته، وبين الإضافتين ما لا يذكر. الثانية: زاد المؤمنين خيرًا بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وسنذكر معناه. **وأما اللفظية فثلاث لطائف:**

الأولى: قال في حق الكافر: (جَعَلَ) وقال في حق المؤمن (أَنْزَلَ) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها. الثانية: قال الحمية ثم أضافها بقوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحًا، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية. وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار، فقال ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ اكتفاه بحسن الإضافة. الثالثة: قوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول: أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة، ولو قلت: أكرمني وأكرمته، لا ينبئ عن ذلك، وحينئذٍ يكون فيه لطيفة: وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفًا أو قويًّا، فإن كان ضعيفًا ينهزم وينقهر، وإن كان قويًّا فيورث غضبه فيه غضبًا، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء، نقول فيه وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا من أن (إذ) ظرف كأنه قال أحسن الله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ تفسير لذلك الإحسان كما يقال: أكرمني فأعطاني، لتفسير الإكرام.

وثانيهما: أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم، على معنى المقابلة، تقول: أكرمني فأثنيت عليه. ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة، كما تقول: جاءني زيد وخرج عمرو، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين: إما إقدام، وإما انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضًا وهذا يثير الفتن، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى، قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة: بالنحر في المنحر وأبوا أن لا يكتبوا محمدًا رسول الله وباسم الله، فلما سكن رسول الله ﷺ سكن المؤمنون، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك، وقيل: هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله، فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه، وقيل: هي الوفاء بالعهد... إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعًا، يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المؤمنين فحسب، فإن قلنا: إنه عائد إليهما جميعًا نقول: هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله، كما قال في حق النبي ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ثم بيّن له حال من صدقه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] أما في حق المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ألا ترى إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١] وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال: (اتقوا) يكون الأمر واردًا، ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه، فكأنه قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملاً ولكنه أقرب إلى الكلمة، وعلى هذا فقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر، يكرمه الله أكثر.

والثاني: أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى، كما في قوله: «وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيم» وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانًا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق: إذا كان ولا بد فهذا أحق، كما يقال: الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ دفعًا لذلك. الثاني وهو أقوى: وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق، فنقول: هو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] إذ لا خير في غيره. والثاني: أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون بالنسبة إلى غيرهم، أي المؤمنون أحق من الكافرين. والثاني: أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى، تقول: زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه، نقول: هو بالفقه أعلم، أي من الطب.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أُمروا به من عدم الإقبال على القتال، وذلك قولهم: ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا. حيث كان النبي ﷺ رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج، ولم يعين له وقتًا فقص رؤياه على المؤمنين، فقطعوا بأن الأمر كما رأى النبي ﷺ في منامه وظنُّوا أن الدخول يكون عام الحديبية[1]، والله أعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء: ما دخلنا ولا حلقنا. فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وتعدية (صدق) إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه، وكونه من الأفعال التي تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق، ويحتمل أن يقال: عدي إلى الرؤيا بحرف تقديره: صدق الله رسوله في الرؤيا، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكذب فيه، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رأى في منامه أن الله

(١) لم أجده.

تعالى يقول: ستدخلون المسجد الحرام. فيكون قوله: ﴿صَدَقَ﴾ ظاهرًا لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقًا يقال: صدقني سن بكره، مثلاً وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه، مأخوذ من الإبل إذا قيل له (هدع) سكن فحقق كونه من صغار الإبل، فإن (هدع) كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزمخشري: هو حال أو قسم أو صفة صدق، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق. وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقًا ملتبسًا بالحق. وعلى تقدير كونه قسمًا إما أن يكون قسمًا بالله فإن الحق من أسمائه، وإما أن يكون قسمًا بالحق الذي هو نقيض الباطل. هذا ما قاله، ويحتمل أن يقال: (إن) فيه وجهين آخرين: أحدهما: أن يقال: فيه تقديم وتأخير تقديره: صدق الله رسوله بالحق الرؤيا، أي الرسول الذي هو رسول بالحق، وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولاً بالحق فلا يرى في منامه الباطل. والثاني: أن يقال بأن قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر، وإن لم يقل به فتقديره: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، والله لتدخلن، وقوله: والله لتدخلن، جاز أن يكون تفسيرًا للرؤيا، يعني الرؤيا هي: والله لتدخلن، وعلى هذا تبين أن قوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ كان في الكلام لأن الرؤيا كانت كلامًا، ويحتمل أن يكون تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام. وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه ذكره تعليمًا للعباد الأدب وتأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] الثاني: هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى. الثالث: هو أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ذكر أنه بمشيئة الله تعالى؛ لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دَين، ولا حق واجب، ومَن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يُلزمه به أحد، وإذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزّل صريحًا في اليقظة فما ظنكم بالوحي بالمنام؟ وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام، فإذا تأخر الدخول لمَ يستهزئون؟ الرابع: هو أن ذلك تحقيقًا للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا: لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة، ونختار دخولكم في السنة القابلة، والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع. فكان لقائل أن يقول: بقي الأمر موقوفًا على مشيئة أهل مكة إن أرادوا في السنة الآتية يتركوننا ندخلها وإن كرهوا لا ندخلها. فقال: لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم، بل تمام الشرط بمشيئة الله.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره، فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إشارة إلى الأول وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارة إلى الآخر.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال الداخلين، والداخل لا يكون الآن محرمًا، والمحرم لا يكون محلقًا، فقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ ينبئ عن الدوام فيه إلى الحلق، فكأنه قال: تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أيضًا حال معناه غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الأمن، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال: تدخلون آمنين، وتحلقون، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سببًا لوطء المؤمنين والمؤمنات أو ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب، ﴿فَعَلِمَ﴾ وقع عقيب ماذا؟ نقول: إن قلنا: المراد من ﴿فَعَلِمَ﴾ وقت الدخول فهو عقيب صدق، وإن قلنا: المراد ﴿فَعَلِمَ﴾ المصلحة، فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من المصلحة المتجددة ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ إما صلح الحديبية، وإما فتح خيبر، وقد ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يدفع وهم حدوث علمه من قوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ وذلك لأن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

تأكيدًا لبيان صدق الله في رسوله الرؤيا، وذلك لأنه لما كان مرسلاً لرسوله ليهدي، لا يريد ما لا يكون مهديًا للناس فيظهر خلافه، فيقع ذلك سببًا للضلال، ويحتمل وجوهًا أقوى من ذلك، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها في

اليقظة لا تقع لكل أحد، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وحكى له ما سيكون في اليقظة، ولا يبعد من أن يريه في المنام ما يقع فلا استبعاد في صدق رؤياه، وفيها أيضًا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له و(الهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وعلى هذا ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو ما فيه من الأصول والفروع، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة، أي أرسله بالحق، أي مع الحق إشارة إلى ما شرع، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول و﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو الأحكام، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بيّن الأصول فحسب، والألف واللام في الهدى يحتمل أن تكون للاستغراق، أي كل ما هو هدى، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وهو إما القرآن لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ﴾ [الزمر: ٢٣]إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] والكل من باب واحد لأن ما في القرآن موافق لما اتفق عليه الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون الحق اسم الله تعالى، فيكون كأنه قال: بالهدى ودين الله. وثانيها: أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال: ودين الأمر الحق. وثالثها: أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي جنس الدين، فينسخ الأديان دون دينه، وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ راجعة إلى الرسول، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق، أي أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره، أي ليظهر الدين الحق على الأديان، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله، ويحتمل أن يكون هو النبي، أي ليظهر النبي دين الحق، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي في أنه رسول الله، وهذا مما يسلي قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب، وقالوا: لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله، بل اكتبوا محمد بن عبد الله. فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ في أنه رسول الله، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كافٍ في كل شيء، لكنه في الرسالة أظهر كفاية؛ لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل، فإذا قال ملك: هذا رسولي، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى: أي خلل في رسالته بإنكارهم مع تصديقي إياه بأنه رسولي.

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيه وجوه: أحدها: خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ورسول الله عطف بيان. وثانيها: أن محمدًا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير. وثالثها: - وهو مستنبط - وهو أن

يقال: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على محمد، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبره، كأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ جميعهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن وصف الشدة والرحمة وُجد في جميعهم، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وأما في حق النبي ﷺ فكما في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال في حقه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعلى هذا قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لا يكون خطابًا مع النبي ﷺ بل يكون عامًّا أخرج مخرج الخطاب، تقديره أيها السامع كائنًا من كان، كما لو قلنا: إن الواعظ يقول: (انتبه) قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحدًا بعينه.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم، وركوع المرائي وسجوده، فإنه لا يبتغي به ذلك. وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] وقال الراكع يبتغي الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال (لكم أجر) كان ذلك منه تفضلاً، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك، والمؤمن إذا قال: أنا أبتغي فضلك يكون منه اعترافًا بالتقصير. فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل أجرًا.

وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: ٨] وعلى هذا فنقول: نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ومن يحاذي الشمس يقع شعاعها على وجهه، فيتبين على وجهه النور منبسطًا، مع أن الشمس لها نور عارضي يقبل الزوال، والله نور السموات والأرض، فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يبهر الأنوار. وثانيهما: أن ذلك في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد ما يظهر في الجباه بسبب كثرة السجود. والثاني: ما يُظهره الله تعالى في وجوه الساجدين ليلاً من الحسن نهارًا، وهذا محقق لمن يعقل، فإن رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم، فكل أحد في اليوم الثاني يفرق بين الساهر في الشرب واللعب، وبين الساهر في الذكر والشكر.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة: أحدها: أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ خبرًا له، وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ خبرًا مبتدأ محذوف تقديره: ومثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ﴾. وثانيها: أن يكون خبر ذلك هو قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ وخبره كزرع وثالثها: أن يكون ذلك إشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وفيه وجه رابع: وهو أن يكون ذلك خبرًا له مبتدأ محذوف تقديره: هذا الظاهر في وجوههم ذلك، يقال: ظهر في وجهه أثر الضرب، فنقول: أي والله ذلك، أي هذا ذلك الظاهر، أو الظاهر الذي تقوله ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي وُصفوا في الكتابين به ومُثلوا بذلك، وإنما جُعلوا كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفًا وله نمو إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون، والشطء: الفرخ و﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وعد ليغيظ بهم الكفار، يقال: رغمًا لأنفك أنعم عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال: هو للتبعيض، ومعناه: ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم، والعظيم والمغفرة قد تقدم مرارًا والله تعالى أعلم.

وهاهنا لطيفة وهو أنه تعالى قال في حق الراكعين والساجدين إنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقال: (لهم أجر) ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل، وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجرًا يعتد به، فقال: لا أبتغي إلا فضلك، فإن عملي نزر لا يكون له أجر. والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرًا إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرًا لا يستحق عليه المؤمن أجرًا، وقد علم بما ذكرنا مرارًا أن قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لبيان ترتب المغفرة على الإيمان، فإن كل مؤمن يُغفر له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والأجر العظيم على العمل الصالح، والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تمّ تفسير هذه السورة يوم الخميس، السابع عشر من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة الفتح

مدنيَّةٌ بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عروة عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومروان ابن الحكم، قالا: نَزلتْ سورةُ الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبية من أوَّلها إلى آخرها[1].

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسيرُ في بعض أسفاره، وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ معه ليلاً فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سألَه فلم يُجِبه؛ فقال عمرُ بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلَّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ الناس، وخشيتُ أنْ يُنزَلَ فيَّ قرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيتُ أنْ يكون نَزلَ فيَّ قرآن، فجئتُ رسولَ الله ﷺ فسلَّمتُ عليه؛ فقال: «لقد أُنزلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاريّ[2]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[3].

وفي صحيح مسلم[4] عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وَهُم يخالطُهم الحزنُ والكآبة، وقد نَحر الهَديَ بالحُدَيْبِيَة، فقال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً».

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٦/٨ . وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزرتَ رسول الله، أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إنَّ اليهودَ شتموا النبيَّ ﷺ والمسلمين لمَّا نَزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف:٩] وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به! فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فَرِحَ المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَل به ولا بأصحابه فنزلتْ بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنَسخَتْ هذه الآيةُ تلك. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم»[2].

وقال المسعودي: بلغني أنَّه من قرأ سورةَ الفتح في أوَّل ليلةٍ من رمضان في صلاة التطوُّع حفظَه الله ذلك العام[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾

اختُلِف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري[4]: حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا غُندر قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادةَ عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال: الحُدَيْبِيَة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣-٤٠٤، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٩، وليس فيه ذكر النَّسخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت علي سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسِّلَفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود ـ صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكَّة إلا يومَ الحُدَيْبِية[١].

وقال البراء[٢]: تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية، كنا نُعَدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر[٣].

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح[٤].

وقال مجاهد[٥]: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان[٦] فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِح ماؤُها، فمجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شَرب جميعُ من كان معه[٧].

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبيُّ ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ويسألوكم القضيَّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»[٨].

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢١/ ٢٤٣، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٧/ ٤٤٠: والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٨.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٣٩.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩، والكشاف ٣/ ٥٤٠. وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤١. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠.

أصاب بها ما لم يُصِب في غزوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبُويع بيعةَ الرضوان، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهَدْيُ مَحِلّه، وظهرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس[١].

وقال الزهريّ: لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوح؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلحُ؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدٌ الإسلام إلا تمكَّن منه؛ فما مضتْ تلك السنتان إلاَّ والمسلمونَ قد جاؤوا إلى مكَّة في عشرة آلاف[٢]. وقال مجاهدٌ أيضاً والعَوْفي[٣]: هو فتح خَيبر. والأوَّل أكثر؛ وخَيبَرُ إنَّما كانت وعْدًا وُعِدُوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحدَ القرَّاء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبيةَ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزُّون الأباعر، فقال بعضُ النَّاس لبعض: ما بالُ النَّاس؟ قالوا: أوحَى الله إلى النبيِّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لَفتح». فقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية، لم يُدْخَل فيها[٤] أحدٌ إلاَّ من شَهد الحديبية[٥].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢١/ ٢٤٤ ، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٢-١٦٣ .

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧ .

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣ .

(٤) لفظة: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨ : وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزون الأباعر: أي يحثُّونها ويدفعونها، والوهز: شدَّة الدفع والوَطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣ .

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مكَّة فُتحِت عَنْوةً؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِح عَنْوةً. هذا هو حقيقةُ الاسم. وقد يقال: فُتِح البلد صُلحاً، فلا يفهمُ الصُّلح إلَّا بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً[١]. والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحت عَنْوة؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

قال ابن الأنباري: «فَتحاً مُبيناً» غير تام؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمعَ الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينُك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السِّجستانيّ: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومنَّ زيد[٣].

الزَّمَخْشَرِي[٤]: فإنْ قلتَ: كيف يجعل فتحَ مكَّة عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرةُ، وإتمامُ النعمة، وهدايةُ الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل[٥]: يَسَّرْنا لك فتح مكَّة، ونصرناك على عدوِّك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارين، وأغراضُ[٦] العاجل والآجل. ويجوز أنْ يكونَ فتحُ مكَّة من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذيّ عن أنس قال: أُنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٢) سلف ١٤/ ٣٥٢ ، وسيأتي ص٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٠ و٧٠٠ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٥١٤ .

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَه من الحديبية؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أُنزِلت عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبيُّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسولَ الله، لقد بيَّن الله لك ماذا يُفعَل بك؛ فماذا يُفعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية[١].

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد[٢]. ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية[٣].

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: ما عملتَه في الجاهلية من قبل أنْ يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلَّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي[٤].

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة[٥]؛ فهذا قول.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «ومَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كلّه عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً، فعن عكرمة. ا هـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مجمِّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ ، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/ ٢٣٦ : ... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/ ١٣٤ .

(٥) ١/ ٤٥٨-٤٦٠ .

هذه الآية. «ومَا تَأَخَّرَ» بعدها[١].

وقال عطاء الخراسانيّ: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء. «ومَا تأخَّرَ» من ذنوب أمتك[٢].

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأخَّرَ» من ذنوب النبيّين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «ومَا تَأخَّرَ» من ذنب يوم حُنَين. وذلك أنَّ الذنب المتقدّم يوم بدر، أنَّه جعل يدعو ويقول: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً». وجعل يردِّدُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أني لو أهلكتُ هذه العصابة لا أُعبد أبداً؛ فكان هذا الذنبَ المتقدِّم. وأمَّا الذنبُ المتأخر فيوم حنين، لمَّا انهزمَ النَّاسُ قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه، فأخذَه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حَم. لا ينصرون». فانهزمَ القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجَعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فكان هذا هو الذنبَ المتأخِّر.

وقال أبو علي الرُّوذَبَاري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة[٤]. وقيل: بالنبوّة والحكمة[٥]. وقيل: بفتح مكّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبَّر[٦]. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثبِّتك على الهدى إلى أنْ يقبضك إليه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يَتبعُه ذلّ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

«السَّكِينَةَ»: السكونُ والطُّمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سكينةٍ في القرآن هي الطُّمأنينة إلا التي في «البقرة»[(١)]. وتقدَّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»[(٢)].

وقال ابنُ عباس: بُعث النبيُّ ﷺ بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم الصَّلاة، فلما صدَّقوه زادهم الزكاة، فلما صدَّقوه زادهم الصِّيام، فلما صدَّقوه زادهم الحج، ثمَّ أكمل لهم دينَهم[(٣)]؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم[(٤)]. وقال الضَّحَّاك: يقيناً مع يقينهم[(٥)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطين والإنس[(٦)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أي: أنزل السكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب[(٧)] إدخالهم الجنة. وقيل:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. كما في تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢ .

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللّام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[1].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوعدُ من دخول مكّة وغفران الذنوب. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ، وظفراً بكلِّ مطلوب.

وقيل: لمَّا قرأ النبيُّ ﷺ على أصحابه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾. ولمَّا قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فلمَّا قرأ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزل في حقِّ الأمّة: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأنْ يُسلِّط النبيَّ عليه الصلاة والسلام قَتْلاً وأسرًا واسترقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظنّهم أنَّ النبيّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينة، ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأنَّ المشركين يستأصلونَهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليلُ وسيبويه: «السّوء» هنا الفساد[2].

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/٢٤٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠ .

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنَّم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضم. وفتحَ الباقون[1]. قال الجوهري[2]: ساءه يسوءه سَوْءاً؛ بالفتح، ومَسَاءة ومَسائية؛ نقيضُ سرَّه، والاسم: السُّوء؛ بالضم. وقُرِئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوء﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَح فهو من المساءة.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. تقدَّم في غير موضعٍ جميعه، والحمد لله.

وقيل: لمَّا جرى صُلح الحديبية قال ابن أُبيّ: أيظنُّ محمدٌ أنَّه إذا صالح أهلَ مكّة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارسُ والروم؟ فبيَّنَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ جنودَ السماوات والأرضِ أكثرُ من فارس والروم.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأنَّ الذي سبقَ عقيبَ ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيبَ ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمرادُ في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاكَ المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسَمّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ قال قتادة: على أمَّتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم[3]. وقيل:

---

(١) السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص١١٩ .

(٢) في الصحاح (سوأ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٢ .

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدُ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيِّب[١] هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ البِشارة والنِّذارة ومعناهما[٣]. وانتصبَ «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه[٤]: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنَّا أرسلناك مقدِّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأمَّا قبلَه فقولُه: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ وأمَّا بعدَه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب[٥]، واختارَه أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُفخِّموه؛ قاله الحسن والكلبي[٦]. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه[٧]. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطاميّ[٨]:

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغير سَفَاهةٍ تُعاتِبُ والمَوْدُود ينفعه العَزْرُ

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير ـ وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيب ٦/٣٢٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٣ ، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/ ٢٥٠ .

(٣) ١/ ٢٨١ ، ٣٥٨ .

(٤) في الكتاب ٢/٤٩ .

(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٣ .

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥١ .

(٨) في ديوانه ص١٢٤ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣١٣ ، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف[١]. وقال بعضُ أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسوِّدُوه؛ قاله السُّديّ[٢]. وقيل: تُعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزِين أيضاً[٣]. والهاء فيهما للنبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تام، ثم تبتدئ: «وتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عَشِيًّا.

وقيل: الضمائرُ كلُّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحةَ الربوبية وتنفوا عنه أنْ يكونَ له ولدٌ أو شريك[٤]. واختارَ هذا القول القشيريّ. والأوَّل قولُ الضَّحَّاك، وعليه يكون بعضُ الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضُه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تَدْعوه بالرسالة والنبوَّة لا بالاسم والكُنيَة.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كلِّ قبيح. والثاني: هو فعلُ الصلاة التي فيها التسبيح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدْوة وعَشِيّاً[٥]. وقد مضى القول فيه[٦]. وقال الشاعر[٧]:

لَعَمْرِي لأنتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ ... وأجلس في أفْيائه بالأصائلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن

---

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطأة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٣-٣١٤.

(٦) ١٧/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤١. وسلف ٩/ ٤٣٥.

أن بيعتهم لنبيِّه ﷺ إنَّما هي بيعةُ الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعةُ هي بيعةُ الرِّضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إنْ شاء الله تعالى.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى[١]: يدُه في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويدُه في المِنَّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة[٢]. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة[٣]. وقال ابن كَيْسان: قوَّةُ الله ونصرتُه فوق قوَّتهم ونصرتهم[٤].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يَرجعُ ضررُ النَّكث عليه؛ لأنَّه حَرَمَ نفسَه الثوابَ، وألزمَها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنَّة.

وقرأ حفصٌ والزُّهريّ: «عليهُ الله» بضمِّ الهاء. وجرَّها الباقون. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر: «فَسَنُؤتِيهِ» بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء[٥]. وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ لِقُرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهدٌ وابن عباس: يعني

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٠.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٦.

(٥) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١٤٤، ٢٠١.

أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعرابُ الذين كانوا حول المدينة؛ تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ حين أرادَ السَّفر إلى مكّة عام الفتح، بعد أنْ كان استنفرَهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمرَةٍ وسَاق معه الهَدْيَ؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يريدُ حرباً، فتثاقلوا عنه، واعتلُّوا بالشُّغل؛ فنزلت[١]. وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأنَّ الله خلَّفهم عن صُحبة نبيِّه. والمخَلَّف المتروك. وقد مضى في «براءة»[٢].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقومُ بهما. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادُهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضَحَهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا هو النِّفاقُ المحض.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيّ: «ضُرًّا» بضمِّ الضَّاد هنا فقط، أي: أمراً يضرُّكم. وقال ابنُ عباس: الهزيمة. الباقون بالفتح[٣]؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضَّمِّ اسمٌ لمَا ينالُ الإنسان من الهُزال وسوء الحال[٤]. والمصدرُ يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالا: لأنَّه قابَله بالنفع، وهو ضدُّ الضَّرِّ[٥]. وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر، والضَّعْف والضُّعف[٦]. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصراً وغَنيمةً. وهذا ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أنَّ التخلُّف عن الرسول يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النفع[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ .

(٢) ١٠/ ٣١٦ .

(٣) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٩ .

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٧٢ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٠٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أَكَلَةُ رأسٍ لا يرجعون[١]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: النِّفاق. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيينُ من الشيطان، أو يخلقُ الله ذلك في قلوبهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ الله لا ينصر رسولَه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيءٍ من الخير[٢]. قال الجَوهريّ[٣]: البُور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبدُ الله بن الزِّبَعرى السَّهمِي[٤]:

يا رسولَ المليك إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وامرأةٌ بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد[٥]. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحُول. وقد بار فلانٌ، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر[٦]. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ القلوبِ وقد ... يهدي الإله سبيلَ المَعْشَرِ البورِ[٧]

أي: الهالك.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ . وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليلٌ يشبعُهم رأسٌ واحد. الصحاح (أكل).
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٣) في الصحاح (بور).
(٤) ديوانه ص٣٦ .
(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٧) ديوان حسان ص١٢٣ . وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، ووقع في الديوان، والخزانة ٤/ ٧٢ : ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانُ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانمَ خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ أهلَ الحديبية فتحَ خَيْبر، وأنها لهم خاصَّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غيرُ جابر بن عبد الله، فقسَم له رسولُ الله ﷺ كَسَهْمِ من حضر[١].

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة[٢]، وزيد بن ثابت من بني النَّجّار؛ كانا حاسبَين قاسمَين[٣].

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرْه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذِرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يسَعُه. وقد أُميت مصدرُه[٤]، لا يقال: وَذره ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٤٩.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدراً، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/١٢٥.

(٣) الدرر ص٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٢/٣٥٧: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيَه.

وَاذِر، ولكنْ تركه وهو تارك .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكَّة، فلمَّا خرج النبي ﷺ، وأخذَ قوماً، ووجَّه بهم، قالوا: ذَرُونا نتَّبعكم فنقاتلَ معكم[١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: يغيِّروا. قال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ﴾ الآية [التوبة: ٨٣]. وأنكر هذا القولَ الطبريُّ[٢] وغيره؛ بسبب أنَّ غزوةَ تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكَّة. وقيل: المعنى يريدون أنْ يغيِّروا وعدَ الله الذي وَعَد لأهل الحُدَيبيَة، وذلك أنَّ الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهدٌ وقتادة، واختارَه الطبريُّ[٣]، وعليه عامَّةُ أهل التأويل[٤].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر[٥]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] .

والكلام: ما استقلَّ بنفسه من الجمل. قال الجوهريّ: الكلام اسمُ جنسٍ يَقَع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنَّه جمعُ كَلِمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه[٦]: هذا بابُ عِلم مَا الكَلِمُ من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنَّه أراد نفسَ ثلاثة أشياء: الاسمُ والفعلُ والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وتركَ ما يمكن أنْ يقعَ على الواحد والجماعة. وتميمٌ تقول: هي كِلْمةٌ، بكسر

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٢ .

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٦٣ .

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٢ .

(٥) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) في الكتاب ١/ ١٢ .

الكاف[١]، وقد مضى في «براءة» القول فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل رجوعنا من الحديبية: إنَّ غنيمةَ خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُصيبَ معكم من الغنائم[٣]. وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إنْ خرجتُم لم أمنعكم إلا أنَّه لا سهمَ لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهونَ من أمر الدين إلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابنُ عباس وعطاءُ بن أبي رباح ومجاهدٌ وابنُ أبي لَيْلَى وعطاءٌ الخراسانيّ: هم فارس. وقال كعبٌ والحسنُ وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلَى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبَير: هوازن وثَقِيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يومَ حُنين. وقال الزُّهْريُّ ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحابُ مُسَيلِمة. وقال رافعُ بن خَديج: والله لقد كنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم مَن هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنَّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

(١) الصحاح (كلم).

(٢) ١٠/٢١٩-٢٢٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/١٣٨، وتفسير البغوي ٤/١٩٢.

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردُّه[١].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أنْ يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنَّه لم يدعُ هؤلاء القومَ بعد النبي ﷺ إلَّا أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما[٢]. الزَّمَخْشَرِي[٣]: فإنْ صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لنْ تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنَّهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلَّا متطوّعين لا نصيبَ لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمُ من لا تُؤخذ منهم الجِزية، وهو معطوفٌ على «تُقَاتِلُونَهُمْ». أي: يكونُ أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلةُ وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ: «أَوْ يُسْلِمُوا»[٤] بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كُلْ أو تشبع، أي: حتى تشبع. قال:

فقلتُ له لاتَبْكِ عَيْنُك إنَّما ... نحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا[٥]

وقال الزَّجَّاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلِمون من غير قتال[٦]. وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣.

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٥/ ١٧٣.

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٧٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمةَ والنَّصر في الدنيا، والجنَّة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عام الحُدَيْبِيَة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذابُ النار.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] أي: لا إثمَ عليهم في التخلُّف عن الجهاد لِعَماهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبيَّنًا[2].

والعَرَجُ: آفةٌ تَعرِض لرِجْلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرًا؛ فخللُ الرِّجْلين أولى أنْ يؤثِّر.

وقال مقاتل: هم أهلُ الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن الحديبية وقد عذرهم[3]. أي: مَنْ شاء أنْ يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء[4]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدُّم اسم الله أوّلاً. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٥٦، ونسبه للكلبي.

(٢) ١٠/ ٣٣١، ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعة الرِّضوان، وكانت بالحُديبية، وهذا خبرُ الحديبية على اختصار: وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقام مُنْصَرَفَه من غَزْوة بني المُصطَلِق في رمضان وشوَّال، وخرج في ذي القَعدة مُعْتَمِرًا، واستنفر الأعرابَ الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرُهم، وخرج النبيُّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتَّبعه من العرب، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربع مئة[1] وقيل: ألف وخمس مئة[2]. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساقَ معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَم النَّاسُ أنَّه لم يخرجْ لحرب، فلمَّا بلغ خروجُه قريشاً خرج جمْعُهم صادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنَّه إنْ قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدَّموا خالدَ بن الوليد في خيل إلى كُرَاع الغَمِيم[3]. فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[4] وكان المخبرَ له بشرُ بن سفيان الكَعبيّ[5]، فسلك

---

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسيأتي بتمامه ص٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ ، والدرر لابن عبد البر ص٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٥ : وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة.

(٤) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ٤/ ١٢٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ . ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ . والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٤ . وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/ ٣٠٩ .

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليلَه فيه[(١)] رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرتْ إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقتُه ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأتْ؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسَها حابسُ الفيل عن مكَّة. لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِم إلَّا أعطيتُهم إيَّاها». ثم نزلَ ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأخْرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليبٍ من تلك القُلُب، فغرزَه في جوفه، فجاشَ بالماء الرَّواء حتى كفى جميعَ الجيش[(٢)].

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُدْن النبيِّ ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القَليب البرَاءُ بن عازب.

ثـمَّ جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أنْ جاءه[(٣)] سُهيل بن عمرو العامريّ، فقاضاه على أنْ ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابُه مكَّة بلا سلاح[(٤)]، حاشا السيوف في قُرُبها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أنْ يكون بينه

---

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلأ). وماء رَواء. أي: كثير مروٍ. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلحُ عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمنُ بعضهم بعضاً، وعلى أنَّ من جاء من الكفَّار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأةٍ رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما[1] علَّمه الله من أنَّه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلحَ سبباً إلى ظهور دينه». فأنِس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفارٍ منهم.

وأبَى سهيلُ بن عمرو أنْ يُكْتَب في صدر صحيفة الصُّلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له[2]: لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمَّا تريد! فلابدَّ أنْ تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليٍّ ـ وكان يكتب صحيفةَ الصلح ـ: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليَّ» فأشار إليه فمحَاه رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أنْ يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرْسُفُ في قيوده، فردَّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أنَّ الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً[3].

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكَّةَ رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ أهل مكَّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكَّة؛ فرُوي أنَّه بايعَهم على الموت. ورُوي أنَّه بايعَهم على ألَّا يَفِرُّوا؛ وهي بيعةُ الرِّضوان تحت الشجرة، التي أخبرَ الله تعالى أنَّه رضيَ عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتَها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّهم لا يدخلون النَّار. وضربَ

(١) في (م) والدرر ص٢٢٤: بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص٢٢٤، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»(١)؛ فهو كمن شهدَها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبيّ قال: أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان(٢) الأسدي(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمُرَة، وقال: بايعناه على ألَّا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت(٤).

وعنه أنَّه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة؛ وهي سَمُرة؛ فبايعناه، غيرَ جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطن بعيره(٥).

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن أصحاب الشجرة، فقال: لو كنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كنَّا ألفاً وخمس مئة(٦). وفي روايةٍ: كنَّا خمسَ عشرة مئة(٧).

وعن عبد الله بن أبي أوْفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلَمُ ثُمُنَ المهاجرين(٨).

---

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص٣١٤ من هذا الجزء. والسمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمة: على أيِّ شيء بايعتُم رسولَ الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت[١].

وعن البَرَاء بن عازب قال: كتب عليٌّ ﷺ الصُّلح بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتبَ عليه محمدٌ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلمُ أنَّك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليّ: «امْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبيُّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبَّان السلاح؛ القِراب وما فيه[٢].

وعن أنس: أنَّ قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمدٍ رسول الله» قالوا: لو علمنا أنَّك رسوله لاتبعناك! ولكنْ اكتب اسمكَ واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاء[٣] منَّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتبُ هذا! قال: «نعم، إنَّه مَن ذهب[٤] منَّا إليهم فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً»[٥].

وعن أبي وائل قال: قام سهلُ بن حُنيف يومَ صِفِّين فقال يا أيُّها الناس، اتَّهموا أنفسَكم، لقد كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِراب وما فيه. هو من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: «بلى» قال: ففيَم نعطي الدّنِيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضيِّعَني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضيعه الله أبداً. قال: فنَزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَ فَتْحٌ هو؟ قال: «نعم». فطابتْ نفسُه ورجع[١].

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء[٢]. وقال ابن جريج وقتادة: من الرِّضا بأمر البيعة على ألَّا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت[٣]. ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إيَّاهم، وتخلُّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم؛ إذ[٤] رأى أنَّه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنَّما ذلك رؤيا منام». وقال الصِّدِّيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطُّمأنينةُ وسكونُ النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحُ خيبر. وقيل: فتحُ مكة[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٦.

(٣) ذكر قول مقاتل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣١٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٤ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.

(٤) في (د) و(م): إذا.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٦، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢١/ ٢٧٨.

وقُرِئ: «وآتاهُمْ»(١).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبرُ ذاتَ عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكّة. فـ«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنّها المغانمُ التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانمُ خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجّل لكم صلحَ الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكّة؛ كفَّهم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفَّ أيديَ اليهود عن المدينة بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبريّ(٢)؛ لأنَّ كفَّ أيدي المشركين بالحديبية مذكورٌ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» يعني عُيينة ابن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبيُّ ﷺ محاصرٌ لهم؛ فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعب، وكَفَّهم عن المسلمين(٣).

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتُهم وسلامتكم آيةً للمؤمنين؛ فيعلموا أنَّ الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم(٤). وقيل: أي: وليكون(٥) كفُّ أيديهم عنكم

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٦ ، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قرءاة شاذة.

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٨٢ ، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١ .

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٣ .

(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عجَّلها لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيثُ وعدتهم أنْ يصيبوها[١].

والواو في «ولِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين[٢].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيديكم هُدًى، أو يثبِّتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ «أُخْرَى» معطوفة على «هذِهِ»؛ أي: فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى[٣].

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارسَ والروم، وجميع ما فتحه المسلمون[٤]. وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى[٥].

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَها اللهُ نبيَّه قبل أنْ يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها[٦].

وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكَّة[٧]. وقال عكرمة: حُنين[٨]؛ لأنَّه قال:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٢/ ٤٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبريُّ ٢١/ ٢٨٤، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولةٍ لها، وفواتِ دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مكَّة؛ قاله القشيريّ.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة[١].

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي: أعدَّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، فأنتم وإنْ لم تقدروا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: علم أنَّها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظَها الله عليكم؛ ليكون فتحُها لكم[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٗا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ۝٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفارَ قريشٍ في الحديبية[٣]. وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» غَطَفان وأسد، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر[٤]؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ يعني: طريقةُ الله وعاداتُه السالفةُ نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّةَ اللهِ» أي: كَسُنَّةِ الله[٥]. والسنة: الطريقة والسِّيرة[٦]. قال:

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٧.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) الصحاح (سنن).

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ[١] أنت سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[٢]

والسُّنة أيضاً: ضَرْبٌ من تمر المدينة[٣]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رَوى يزيدُ بن هارون قال: أخبرنا حمَّادُ بنُ سلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ أنَّ ثمانينَ رجلاً من أهل مكَّةَ هبطوا على النبيِّ ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

وقال عبد الله بن مُغفَّل المُزَنيُّ: كنا مع النبيِّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينَا نحن كذلك، إذ خرجَ علينا ثلاثون شابّاً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأخذَ الله بأبصارِهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جَعل لكم أحدٌ أماناً». قالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[٦].

---

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والغِرَّة: هي الغفلة. الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً ـ أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابنُ هشامٍ عن وكيع: وكانت قريشٌ قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطِنَ المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراءُ يمشونَ بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّونَ العُتَقاء، ومنهم معاويةُ وأبوه(١).

وقال مجاهد: أقبل النبيُّ ﷺ مُعتَمِراً، إذ أخذ أصحابُهُ ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبيُّ ﷺ؛ فذلك الإظفارُ ببطن مكة(٢).

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيم، اطَّلعَ الثنيَّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهمٍ فقتلوه؛ فبعث النبيُّ ﷺ خيلاً، فأتَوا باثني عشرَ فارساً من الكفار، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «هل لكم عليَّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلَهم، فنزلت(٣). وقال ابن أبْزَى والكلبيُّ: هم أهل الحديبية، كفَّ الله أيديَهم عن المسلمين حتى وقع الصُّلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيديَ المسلمين عنهم.

وقد تقدَّم أنَّ خالدَ بنَ الوليد كان في خيل المشركين(٤). قال القشيري: فهذه رواية، والصحيحُ أنَّه كان مع النبيِّ ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمةُ بن الأكْوَع: كانوا في أمر الصُّلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستَّةٍ من المشركين أسُوقُهم متسلِّحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؛ فأتيتُ بهم رسولَ الله ﷺ(٥).

وكان عمر قال في الطريق: يا رسولَ الله، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص٢٢٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١-٦٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠-٢٩١ .

(٤) ص٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٤٠-٤٤١ .

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتَوه بكلِّ سلاح وكُراعٍ كان فيها، وأُخبِر رسول الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهْلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهَزم الكفارَ ودفعهم إلى حوائط مكَّة[١]. وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة[٢]. وقيل: بالنَّبل والظُّفْر[٣]. وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَط في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكَّةَ مسلمون، وخافوا أنْ يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون عِيْرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل[٤].

وقيل: هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيبر[٥]؛ لأنَّهم كانوا حلفاءَهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكَّة. الثاني: الحُديبية؛ لأنَّ بعضَها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي[٦]: وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: بفتح مكَّة[٧]. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكَّة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكَّة فُتحت صُلحاً؛

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩١ عن ابن أبزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كرع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٣/ ٥٤٧ .

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ . والظُّفْر: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ ، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلت: الصحيحُ أنَّ هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكَّة، حسب ما قدَّمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

ورَوى الترمذيُّ قال: حدَّثنا عبدُ بن حُميد، قال: حدَّثني سليمانُ بن حرب، قال: حدَّثنا حمَّاد بنُ سلمةَ عن ثابتٍ، عن أنس؛ أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابِهِ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أنْ يقتلوه؛ فأُخذوا أخذاً، فأعتقهُمْ رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد تقدَّم[١].

وأمَّا فتحُ مكَّة، فالذي تدلُّ عليه الأخبارُ أنها إنَّما فُتحت عَنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخولَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيبِية، حين أحرم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة[٣]، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوهُ عن أنْ يبلغ مَحِلَّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنَّه حملتهم الأنفة، ودَعتْهمْ

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ١٤/٣٥٢.

(٣) النكت والعيون ٥/٣١٩.

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً، فوَبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً[٢]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهريُّ[٣]: عَكَفَه، أي: حبسه ووَقَفه، يَعْكِفُه ويَعْكُفه عَكْفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكافُ في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مَنْحَرَه؛ قاله الفراء[٤]. وقال الشافعي ﷺ: الحَرَم[٥]. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: المُحصَر محلُّ هَدْيه الحرَم[٦]. والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّه الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة[٧]، ولكنَّ الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلًّا[٨]. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٩] عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [الآية:١٩٦] والصحيحُ ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدَنَةَ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١٠].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٥/ ٣١٩، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٨.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٩) ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أيُشتَرَكُ في البدَنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلّا من البُدْن. وحضر جابرٌ الحديبية قال: ونحرنا يومئذٍ سبعين بَدَنة، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنة(١).

وفي البخاريِّ(٢) عن ابن عمرَ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعتمرين؛ فَحَال كفارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسولُ الله ﷺ بُدْنَه، وحَلَق رأسَه.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسَه يومئذٍ خِراشُ بن أميَّة بن أبي العيص الخزاعي(٣). وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أنْ ينحروا ويَحِلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضبَ رسول الله ﷺ. فقالت له أمّ سلمةَ: لو نحرتَ لنحروا؛ فنحر رسولُ الله ﷺ هَدْيَه، ونحروا بِنَحْرِهِ، وحَلَق رسولُ الله ﷺ رأسَه، ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرةً(٤). ورأى كعبَ بن عُجرَة والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟» قال: نعم؛ فأمره أنْ يَحلِقَ وهو بالحديبية. خرَّجه البخاريُّ والدَّارقُطنيّ(٥). وقد مضى في «البقرة»(٦).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْيَ﴾ الهَديُ والهَدِيُّ لغتان. وقُرئ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص٢٢٥، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٩: ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص.
وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٣/ ٨٦، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الدرر ص٢٢٥، وقصة أم سلمة أخرجها البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص٣٢٥ من هذا الجزء.
ودعاء النبي للمحلقين ثم للمقصرين سلف ٣/ ٢٨٧.

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٣/ ٢٩٠.

﴿مَحِلَّهُ﴾ [البقرة:١٩٦] بالتخفيف والتشديد(١)؛ الواحدة هَدْية [وهَدِيَّة](٢). وقد مضى في «البقرة» أيضاً(٣). وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، وموضع «أنْ» من قوله: «أَن يَبْلُغَ مَحِلَّه» نُصِبَ على تقدير الحَمْل على «صَدُّوكُمْ» أي: صدُّوكم وصدُّوا الهَدْي عن أن يبلغ(٤). ويجوز أنْ يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَديَ كراهيةَ أن يبلغ مَحِلَّه. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكف(٥)؛ لأنَّا لا نعلم «عكف» جاء متعدِّياً(٦)، ومجيءُ «مَعْكُوفاً» في الآية يجوز أنْ يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لمّا كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بإلى، فإنْ حُمل على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكونُ مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهة(٧) أن يبلغ مَحِلَّه. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغَ مَحِلَّه. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنْ زيدٍ و إن عمرٍو؛ فأضمر الجارَّ لِتَقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكَّة

---

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص١٢ . وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٣/ ٢٨٢ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٢ .

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ .

(٧) في (م): كراهية.

وسطَ الكفار[١]؛ كسلمةَ بنِ هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، ، وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون[٢].

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطِئتُ القوم، أي: أَوقعتُ بهم. و«أنْ» يجوز أنْ يكون رفعاً على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنَّه قال: ولولا وَطْؤكُم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطْأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجالٌ» و«نساءٌ». وجواب «لَوْلا» محذوف[٣]؛ والتقدير: ولولا[٤] أنْ تطؤوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذِنَ الله لكم في دخول مكَّة، ولسَلَّطكم عليهم؛ ولَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكتمُ إيمانَه خوفاً[٥]. وقال الضَّحَّاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات، لم تعلموهم[٦] أنْ تطؤوا آباءهم فيَهلك أبناؤهم[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المَعَرَّة: العيب، وهي مَفْعَلَة من العُر، وهو الجَرَب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قَتلهم ما يلزمُكم من أجله كفارةُ قتل الخطأ؛ لأنَّ الله تعالى إنما أوجبَ على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرَ منها ولم يَعلم بإيمانه، الكفارةَ دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٣٠٩ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

(٤) في (م): لو.

(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما[١]. وقد مضى في «النساء» القول فيه[٢].

وقال ابن زيد: «مَعَرَّةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهريُّ[٣]. ابن إسحاق[٤]: غُرْم الدِّيَة. قطرب: شِدَّة. وقيل: غمّ[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدِّي، حتى لو أنَّهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملةُ عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ **فيه أربع مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ اللام في «لِيُدْخِلَ» متعلقةٌ بمحذوف[٧]، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته[٨]. ويجوز أنْ تتعلَّقَ بالإيمان[٩]. ولا تُحملُ على مؤمنينَ دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميعَ يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكَّة؛ وكذلك كان، أسلمَ الكثيرُ منهم وحَسُنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

---

(١) نسبه للكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ . وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ . دون نسبة.

(٢) ٧/ ٢٥ .

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٠٥ .

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥١٠ .

(٩) والتقدير ـ كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ ـ : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميَّزوا؛ قاله القُتَبيّ[١]. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زَال المؤمنون من بين أَظهُر الكفار، لَعذَّب الكفارَ بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنينَ عن الكفار[٢]. وقال عليٌّ ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيّل المؤمنونَ عن أصلاب الكافرين، لعذَّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً»[٣].

الثالثة: هذه الآيةُ دليلٌ على مراعاة الكافر في حُرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذايةُ الكافر إلا بإذاية[٤] المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حَصَرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أُسارى في أيديهم، أيُحرقُ هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكاً، وسُئلَ عن قومٍ من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنَّار ومعهم الأُسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكَّة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٥]. وكذلك لو تَتَرَّس كافرٌ بمسلم، لم يجز رَميهُ. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلفَ أحداً من المسلمين، فعليه الدِّية والكفَّارة. فإنْ لم يعلموا فلا دية ولا كفَّارة؛ وذلك أنَّهم إذا علموا فليس لهم أنْ يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتَلَة خطأً، والدِّية على عواقلهم. فإنْ لم يعلموا، فلهم أنْ يرموا، وإذا أُبيحوا الفعل لم يجز أن يبقَى عليهم فيها تِبَاعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعةٌ: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

---

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/ ٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥-١٦٩٦ .

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَن في الصُّلب أو في البطن لا يُوطأ، ولا تُصيبُ منه معرَّة. وهو سبحانه قد صرَّح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال، وإنَّما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينةً للروم[1] فحُبس عنهم الماء، فكانوا يُنزِلون الأُسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدرُ أحدٌ على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابهُ والثَّوريُّ الرَّميَ في حصون المشركين، وإنْ كان فيهم أُسارى من المسلمين وأطفالِهم. ولو تَتَرَّس كافرٌ بولدِ مسلم، رُميَ المشرك، وإن أُصيب أحدٌ من المسلمين فلا دية فيه ولا كفَّارة. وقال الثوري: فيه الكفَّارة ولا دية. وقال الشافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروحِ المسلم؛ فلا قولَ إلا ما قاله مالك ﷺ. والله أعلم[2].

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلافٌ إنْ شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحةُ ضروريةً كليَّةً قطعيةً. فمعنى كونها ضروريةً: أنَّها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلَّا بقتل التُّرس. ومعنى أنها كُلِّية: أنه قاطعةٌ لكلِّ الأمَّة، حتى يحصلَ من قتل التُّرس مصلحةُ كلِّ المسلمين؛ فإنْ لم يفعل، قَتَلَ الكفارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمة. ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحةَ حاصلةٌ من قتل التُّرس قطعاً[3].

قال[4] علماؤنا: وهذه المصلحةُ بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الفَرْضَ أنَّ التُّرسَ مقتولٌ قطعاً؛ فإما بأيدي العدوِّ فتحصل المفسدة العظيمة، التي

---

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٦ .

(٣) ينظر المستصفى ١/ ٤٢٠ ، والمحصول ٦/ ١٦٤ .

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاءُ العدوّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيهلِكَ العدُّو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنَّه يلزم[١] منه ذهابُ التُّرس والإسلام والمسلمين، لكنْ لمَّا كانت هذه المصلحةُ غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرتْ منها نفسُ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»[٢] وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزايل: التباين[٣]. و«تَزَيَّلُوا» تفعَّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَوْلاَ رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»[٤]. وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدَّم[٥]. و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

العامل في «إذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذَّبناهم إذ فعلوا[٦] هذا. أو فعلٌ مضمرٌ تقديره: واذكروا[٧].

---

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ .

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٥) ص٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٤٨-٥٤٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩ .

﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ فعِيلة، وهي الأنَفَة. يقال: حَمِيتُ عن كذا حَمِيَّة ـ بالتشديد ـ ومَحْمِيَّة: إذا أنِفْتَ منه وداخلك عارٌ وأَنَفةٌ أن تفعله[1]. ومنه قول المتلمِّس:

ألا إنـنـي مـنـهـم وعِـرْضـيَ عِـرْضُـهـم كذِي الأنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشَّما[2]

أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمِيَّتُهم: أَنَفَتُهم من الإقرار للنبيِّ ﷺ بالرسالة والاستفتاحِ ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهم من دخول مكة[3]. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدَّم[4].

وقال ابن بحر: حمِيَّتُهم عصبيَّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنَفةُ من أنْ يعبدوا غيرها[5]. وقيل: «حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ» إنَّهم قالوا: قَتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً[6].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتسليم، ولم يُدخِل قلوبَهم ما أدخلَ قلوبَ أولئك من الحميَّة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ[7]. وهو قول عليٍّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

---

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ١٠/ ٥٨ ، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ .

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمةَ بن كُهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّيّ، وابن زيد. وقاله عطاءٌ الخُراسانيّ، وزاد: محمدٌ رسول الله[1].

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر[2].

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير[3].

وقال الزهريُّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أنَّ المشركين لم يُقِرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصَّ الله بها المؤمنين، وكلمةُ التَّقوَى: هي التي يُتَّقى بها من الشرك.

وعن مجاهد أيضاً: أنَّ كَلِمَةَ التَّقوى: الإخلاص[4].

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي: أحقَّ بها من كفار مكَّة؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

قال قتادة: كان رسولُ الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصِّفة؛ فلمَّا صالح قريشاً بالحُدَيبية ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنَّه يدخل

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣ . عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣ ، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١ ، ٣١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/ ٣١٤ .

مكّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنَّ رؤياه ﷺ حقٌّ[(١)]. وقيل: إنَّ أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقّتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية[(٢)]، ورؤيا[(٣)] الأنبياء حقٌّ. والرؤيا أحدُ وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنّه حكايةُ ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنّه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تأدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣][(٤)]. وقيل: خاطب الله العبادَ بما يُحبُّ[(٥)] أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون، قاله ثعلب[(٦)]. وقيل: كان الله علم أنه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فَوَقع الاستثناءُ لهذا المعنى، قاله الحسينُ بنُ الفضل[(٧)]. وقيل: الاستثناء من «آمِنينَ»، وذلك راجعٌ إلى مخاطبة العباد على ما جَرت به العادة[(٨)]. وقيل: معنى «إنْ شَاءَ اللهُ» إنْ أمرَكُم الله بالدخول[(٩)]. وقيل: أي: إنْ سهَّل الله. وقيل: «إن شَاءَ اللهُ» أي:

---

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٢٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢١/ ٣١٦.

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٦، وذكر الألوسي ٢٦/ ١٢٠ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٥.

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٥/ ٢٨.

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إنْ» بمعنى «إذ»[(١)]، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ، لأنَّ «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدُّخول في المستقبل، فوَعَدهم دخولَ المسجد الحرام وعلَّقه بشرط المشيئة، وذلك عامَ الحديبية؛ فأَخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخَّر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءَهم ذلك واشتدَّ عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذِنَ الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. وإنَّما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضُهم أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشك، والله تعالى لا يَشكُّ، و«لَتَدْخُلُنَّ» تحقيقٌ، فكيف يكون شك. فـ«إنْ» بمعنى «إذا»[(٢)].

﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليقُ والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غَلَّب المذكَّر على المؤنَّث. والحلقُ أفضل، وليس للنِّساء إلا التقصيرُ. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[(٣)]. وفي الصحيح أنَّ معاوية أخذ من شعر النبيِّ ﷺ على المَرْوَة بمِشْقَص[(٤)]. وهذا كان في العمرة لا في الحجّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حَلَق في حَجَّته[(٥)].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتقدير: غير خائفين[(٦)]. ﴿فَعَلِمَ

---

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥ ، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤ ، ثم ردَّه.

(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).

(٣) ٣/ ٢٨٧ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية (شقص).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٧ وخبر حَلْق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم(١). وذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خيبرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أُهبةٍ وقوَّةٍ وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أنَّ دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عَلِم أنَّ بمكَّةَ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم(٢).

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبيِّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك(٣). وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية(٤)؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتحٌ(٥) في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَّما كانت الهدنةُ؛ وَضعتِ الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً؛ فالتقَوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئاً إلَّا دخل فيه، فلقد دخل في تَينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر(٦). يدلُّكَ على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستٍّ يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنةَ ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٤٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٢.

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/ ٣١٩.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨.

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨، وفيه: ما فُتِح في الإسلام فتحٌ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدين اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظهرَ رسولَه على الدين كلِّه ـ أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ ـ بالحجَّة، ثمَّ باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيداً» نصبٌ على التفسير، والباء زائدة، أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه ﷺ؛ وشهادته له تبيِّن صحة نبوَّته بالمعجزات. وقيل: «شَهِيداً» على ما أُرسل به؛ لأنَّ الكفارَ أبوا أنْ يكتبوا: «هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»(١).

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولُ» خبره. وقيل: «مُّحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَف على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لأنَّ صفاتِه عليه الصلاة والسلام تزيد على ما وَصَفَ به(٢) أصحابَه؛ فيكون «مُحَمَّدٌ» ابتداءً، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءٌ ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاءُ» خبر ثان(٣).

وكونُ الصفات في جملة أصحاب النبيِّ ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

---

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦، ٣١٨.

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩.

الحديبية أشدَّاءُ على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأَسد على فريسته(١). وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادُّون(٢). وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفارِ رُحَماءَ بينهم» بالنصب على الحال(٣)، كأنَّه قال: والذين معه في حال شدَّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ إخبارٌ عن كثرة صَلاتهم. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ السِّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المدُّ والقصر، أي: لاحت علاماتُ التهجُّد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطَّلحِيُّ قال: حدَّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرتْ صلاته بالليل، حَسُنَ وجهُه بالنهار»(٤).

وقال ابن العربي(٥): ودَسَّه قومٌ في حديث النبيِّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيِّ ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ ذلك مما يتعلَّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: صلَّى صبيحةَ إحدى وعشرينَ من رمضان، وقد وَكَفَ المسجدُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٣، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٥٤: واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٩٨-١٦٩٩.

وكان على عريش؛ فانصرف النبيُّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثرُ الماء والطين[١].

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة[٢]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقاله الزهري[٤].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أنْ يُخرِجَ برحمته من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكةَ أن يُخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد اللهُ أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم[٥] بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»[٦].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر[٧].

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّيما في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ رُكْبة العَنْز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنَّه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٣.

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٦.

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٣٢٣-٣٢٤.

وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شِمْر بن عطية: هو صفرةُ الوجه من قيام الليل[١].

قال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضَّحَّاك: أمَا إنَّه ليس بالنَّدْب في وجوههم، ولكنَّه الصُّفرة[٢].

وقال سفيان الثَّوريُّ: يصلُّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قولُه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخُراسانيُّ: دخل في هذه الآية كلُّ من حافظ على الصلوات الخمس[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: فيه وجهان، إن شئتَ قلتَ: المعنى: ذلك مَثَلُهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنْجِيل». وإن شئت قلت: تمامُ الكلام: ذلك مَثَلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال: ومَثَلُهم في الإنجيل[٥]. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مَثَلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التَّورَاةِ»[٦]. وقال مجاهد: هو مَثَل واحد[٧]؛ يعني أنَّ هذه صفتُهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التَّورَاةِ» على هذا، ويوقف على «الإنْجِيل»، ويَبتدئ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى: وهُم كزرعٍ.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٥ بلفظ: تَهيُّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠١، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩.

و«شَطأَهُ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره[١]. وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه[٢]. قال الجوهريُّ: شَطْءُ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطؤه. قال الأخفش في قوله: «أَخْرَجَ شَطأَهُ» أي: طَرفَه[٣]. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشطِئٌ، إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشَّطءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثمرْ[٤]

الزَّجّاج[٥]: أخرج شطأه، أي: نباته.

وقيل: إنَّ الشَّطءَ شوكُ السُّنْبُل، والعرب أيضاً تسمِّيه: السَّفَا، والبُهْمَى[٦]، قاله قُطْرُب. وقيل: إنَّه السنبل، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعٌ وثمان؛ قاله الفرَّاء[٧]، حكاه الماورديُّ[٨].

وقرأ ابن كثير وابن ذَكوان: «شَطَأه» بفتح الطَّاء، وأَسكنَ الباقون[٩]. وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاه»، مثل: عصاه[١٠]. وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ﷺ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفا: شوك البُهْمى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تَجِد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/ ٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

(٩) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها[١].

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ يعني أنَّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظَ ساقُه[٢] وأفراخه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح[٣] بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر[٤].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه وأعانه وشدَّه؛ أي: قوَّى الشطءُ الزرعَ. وقيل بالعكس، أي: قوَّى الزرعُ الشطءَ[٥].

وقراءةُ العامة: «آزَرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حَيوةَ وحُميد بن قيس: «فَأَزَرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَله[٦]. والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها ... مَجَرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ[٧]

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له[٨]. والسُّوق: جمع الساق.

---

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠٣ .

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٣٢٤ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ .

(٦) قراءة ابن ذكوان ـ وهو راوية ابن عامر ـ في السبعة ص٦٠٥ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٧) ديوان امرئ القيس ص٤٥ ، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم أو خائب، فلا ينزلُها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكلئها. اهـ. والضَّالُ: السِّدْر البَرّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣ .

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرعُ زُرَّاعَه. وهو مَثَلٌ كما بيَّنَّا، فالزرعُ محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فَقَوُوا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فَعَلَ الله هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنَّة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعِّضةً لقومٍ من الصحابة دون قوم، ولكنَّها عامةٌ مجنِّسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصد للتبعيض؛ لكنَّه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، إذْ كان الرِّجس يقع من أجناسٍ شتّى؛ منها الزِّنى، والرِّبا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنسَ الصحابة. ويقال: أَنفقْ نفقتَكَ من الدراهم، أي: اجعل نفقتَك هذا الجنس. وقد يُخصَّصُ أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإنْ وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرةَ.

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أنَّ «من» مؤكدةٌ للكلام، والمعنى وَعَدهم الله كلَّهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول](٢) العربي: قطعتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعتُ الثوبَ كلَّه قميصاً. و«من» لم تبعِّض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: وننزِّل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشِّفاءُ مختصًّا به بعضُه دون بعض. على أنَّ من اللُّغويين من يقول:

---

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣١٢.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنِّسة؛ تقديرها: نُنزِّل الشفاءَ من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير(١):

أمِــن أُمِّ أوفَــى دِمْـنَــةٌ لــم تَــكَــلَّـمِ

أراد: من ناحية أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُـو رغـائـبَ يُـعـطـيـهـا ويُـسـأَلُـهـا   يـأبـى الـظُّـلامـةَ مـنه الـنَّـوفَـلُ الـزُّفَـرُ(٢)

فـ«من» لم تُبعِّض شيئاً، إذْ كان المقصد: يأبى الظُّلامةَ؛ لأنَّه نوفَلٌ زُفَرُ. والنَّوفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروةَ الزبيريُّ من ولد الزبير: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكُ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر(٣).

قلت: لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نَقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمَّنت الثناءَ عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

(١) في ديوانه ص٤، وسلف ٤/ ٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.

[الحشر:٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآلِ أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيرُ الناسِ قَرنِي، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه» خرَّجهما البخاري(١). وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفقَ ما في الأرض، لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»(٢).

قال أبو عبيد(٣): معناه لم يُدرك مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصفَ المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِير، وللخُمس: خميس، وللتِّسع: تَسيع، وللثُّمن: ثَمين، وللسُّبع: سَبيع، وللسُّدس: سَدِيس، وللرُّبع: رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا - فجعلهم أصحابي. وقال في أصحابي: كلُّهم خير»(٤).

وروى عُوَيم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراءَ وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٥).

---

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦ : رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/ (٣٤٩)، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير[١]، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدِّين فقال: إنَّ المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاَّ عن عقبةَ بن عامر[٢]، وعقبةُ بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردٌّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلَته لنا الصحابة من المِلَّة. فإنَّ عقبةَ بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن رَوى لنا الشريعةَ في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فمن نسبَه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبطِلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى أَلحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنَّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظمَ من الكذب، وقد لَعن رسول الله ﷺ من سَبَّ أصحابه؛ فالمكذِّب لأصغرهم ـ ولا صغيرَ فيهم ـ داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسولُ الله ﷺ، وألزمَها كلَّ مَن سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتْ مسألةٌ تنازعها الحضور، وعلَتْ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرة مُتَّهمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦ : وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاريُّ: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠-٤٩١ .

وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَر قولهم، فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نَظر مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثْ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتحنَّط وتكفَّن! فقلت: اللهُم إنَّك تعلم أنِّي دفعتُ عن صاحب نبيِّك، وأجللتُ نبيَّك أن يُطعنَ على أصحابه، فَسلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النِّطْع[١]؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقَّاني من الردِّ والدفع بما تلقَّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ[٢] على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابُه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلُّه مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بن حبيب أحياك الله[٣]؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم[٤].

قلت: فالصحابة كلُّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرذمةٌ لا مبالاةَ بهم إلى أنَّ حالَ الصحابة كحالِ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

---

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/١٩٦ - ١٩٧. والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١/١٩٦-١٩٧، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ٢١/ ٢٩٤-٢٩٥. ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدَّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بَداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيَّرت بهمُ الأحوالُ، فظهرتْ فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث.

وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيارَ الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضيَ عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرةَ المقطوعَ لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوةُ مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمورُ مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهد مصيبٌ.

وسيأتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيَّنةً إنْ شاء الله تعالى[1].

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.

---

(١) ١٦/٣٢١-٣٢٢.

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية.

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وَكيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾.

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية[٣].

وقال[٤] البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه[٦]، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد».
(٢) المسند (٥/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).
(٣) رواه الطبرى (٢٦/ ٤٤).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون نزل فى شىء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء، قال: فقال النبى ﷺ: «نزلت[1] على الليلة[2] سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾».

ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى من طرق، عن مالك، رحمه الله[3]، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى [جيد][4] لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: نزلت على النبى ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبى ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به[5].

وقال[6] الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبى يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبى يزيد الأنصارى عن عمه مجمع بن جارية الأنصارى ـ وكان أحد[7] القراء الذين قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أى رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إى والذى نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهما.

رواه أبو داود فى الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به[8].

وقال[9] ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبى علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول[10]: لما

---

(١) فى م: «نزل». (٢) فى ت، م: «البارحة».
(٣) المسند (١/ ٣١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).
(٤) زيادة من م.
(٥) المسند (٣/ ١٩٧) وصحيح البخارى برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).
(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «أحب».
(٨) المسند (٣/ ٤٢٠) وسنن أبى داود برقم (٢٧٣٦).
(٩) فى ت: «وروى». (١٠) فى ت: «عن ابن مسعود قال».

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»[(١)]. فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل][(٢)] من نام أو نسى». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها[(٣)]، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه [الوحى][(٤)] اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى من غير وجه، عن جامع بن شداد به[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة[(٦)] يقول: كان النبى[(٧)] ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجاه[(٨)] وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه[(١٠)].

فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[(١١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر[(١٢)] حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه[(١٣)].

---

(١) فى م: «أنصتوا». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «فركب». (٤) زيادة من م.
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣) والمسند (١/ ٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٧) فى أ: «رسول الله».
(٨) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٩) المسند (٤/ ٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذى برقم (٤١٢) وسنن النسائى (٣/ ٢١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).
(١٠) فى أ: «ينفطر قدماه».
(١١) المسند (٦/ ١١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).
(١٢) فى أ: «بشير».
(١٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٥/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار» من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب» ،فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[(١)]، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم[(٢)] تعظيما لأوامره[(٣)] ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[(٤)]. فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(٥)]. وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٦)] أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) فى م: «بعضا». (٢) فى ت، أ: «وأشدهم». (٣) فى ت: «لأوامر الله».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) زيادة من ت.

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه(١) ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب»(٢) ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ﴾ ، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَيُوَقِّرُوهُ﴾ ، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله ، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ، كقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

(١) فى ت،م: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) عند الآية الخامسة والأربعين.

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال(١) ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنبارى، حدثنا على بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه فى سبيل الله، فقد بايع الله»(٢).

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٣).

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط(٤) أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به(٥). وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبى الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم(٦).

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا(٧). وفى رواية [فى](٨) الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة(٩).

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه ابن مردويه كما فى الجامع الصغير، ورمز له السيوطى بالضعف.
(٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٤) فى ت: «والأول».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٣٩).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة[١].

قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة[٢].

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة[٣]. وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين[٤].

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة[٥].

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى[٦] عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٧).
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٨).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٨).
(٦) فى ت،م: «غلظتى».

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [ﷺ][(١)] ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل.[(٢)]

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود[(٣)]، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد فى سياقه: أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان][(٤)] سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين[(٥)] بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامو بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين[(٦)]، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام[(٧)]، حدثنا الحسن بن بشر[(٨)]، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس[(٩)] بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه][(١٠)] رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم[(١١)].

---

(١) زيادة من ت، م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).

(٣) فى ت: «أبى الأسود».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى م «من».

(٦) فى ت: «المشركون» وهو خطأ.

(٧) فى أ، م: «هشام».

(٨) فى أ: «بشير».

(٩) فى ت: «وروى البيهقى بسنده».

(١٠) زيادة من ت.

(١١) لم أجده فى دلائل النبوة، ولعله فى غيره.

قال ابن هشام[١]: وحدثنى من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبى مليكة[٢]، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوى: فذكر وكيع، عن إسماعل بن أبى خالد، عن الشعبى: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى[٣].

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبى خالد، عن الشعبى، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدى رضى الله عنه][٤]، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ: «علام تبايعنى؟». فقال أبو سنان: على ما فى نفسك. هذا أبو سنان [بن][٥] وهب الأسدى [رضى الله عنه][٦] [٧].

وقال البخارى: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع][٨]، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر[٩] أسلم قبل عمر.

ثم قال البخارى: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمرى، أخبرنى نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقى عن أبى[١٠] عمرو الأديب، عن أبى بكر الإسماعيلى، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثنى الوليد بن مسلم فذكره[١١].

وقال الليث، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه[١٢].

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس[١٣]، وأنا رافع

(١) فى أ: «شهاب». (٢) فى أ: « عن أبى بكر بن أبى مليكة».
(٣) السيرة النبوية (٢/٣١٦).
(٤) زيادة من أ . (٥، ٦) زيادة من م، أ.
(٧) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٣٧) من طريق الحميدى به.
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى أ: «عبد الله بن عمر». (١٠) فى أ: «ابن».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبى».

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر[(١)].

وقال البخارى: حدثنا المكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم[(٢)]، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[(٣)].

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد[(٤)]. وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت[(٥)].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهم، حدثنا أبو عامر العقدى عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة[(٦)] بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك[(٧)] فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه[(٨)] وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت[(٩)] فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).
(٢) فى م: «سلمة».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).
(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».
(٧) فى ت: «بايعت».
(٨) فى ت، م: «وأجنبه».
(٩) فى ت،م،أ: «واضطجعت»

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى، ثم قلت[(١)]: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل][(٢)]: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريبا منه[(٣)].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[(٤)].

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا[(٥)] جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره».

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به[(٦)].

وقال الحميدى أيضا: حدثنا سفيان[(٧)]، عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر[(٨)] لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبى الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[(١٠)].

وقال[(١١)] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثى، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خداش بن عياش، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع[(١٢)].

---

(١) فى ت،م: «وقلت». (٢) زيادة من ت،م.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/١٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.
(٥) فى م: «عن».
(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٣٧) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان». (٨) فى ت،م: «أنظر».
(٩) مسند الحميدى (٢/ ٥١٤) ،وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٠) المسند (٣/ ٣٥٠).
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خداشًا هذا من هو».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا قرة، عن أبى الزبير[١]، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى[٢] الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله [ﷺ][٣]. فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة[٤]. رواه مسلم عن عبيد الله، به[٥].

وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم[٦].

وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبى الزبير، عن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»[٧].

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾.

---

(١) فى ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».
(٢) فى أ: «من».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ضالته».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

يقول تعالى مخبرا رسوله[١] ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم[٣]، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول[٤] ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا[٥]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة[٦] الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا[٧] يقع غير ذلك شرعا وقدرا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾. قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير[٨].

---

(١) فى ت،م: «لرسوله». (٢) فى ت: «ﷺ». (٣) فى ت،أ: «والشغل بهم».
(٤) فى م: «رسول الله». (٥) فى ت: «أو نافقتمونا». (٦) فى ت،م،أ: «عمرة».
(٧) فى ت: «ولا».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة[١] الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم[٢] الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشرككم فى المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم[٣].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾.

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة[٤]، أو جميعا ـ ورواه هُشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهرى. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن مَعْمَر[٥]، عن

(١) فى ت،م،أ: «عمرة». (٢) فى ت،م: «قبل أن يسالوكم». (٣) فى ت،أ: «لأنهم عدو لهم».
(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

الزهرى، فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك[1].

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان[2] آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد[3].

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم[4] فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتم».

قال البخارى: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت(١): ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم(٢).

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا(٣) وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال(٤) ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعنى ابن عبيدة ـ حدثنى إياس(٥) بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى(٦): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [قال](٧): فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن(٨) هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»(٩).

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾.

(١) فى م: «وقلت».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٦٣).
(٣) فى ت: «تأخذونها».
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «عن أبان».
(٦) فى ت، م: «فذلك قوله تعالى».
(٧) زيادة من ت، م.
(٨) فى ت، م: «وذكر».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٩٠) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٨٤): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خيبر.

وروى العوفى عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: صلح الحديبية.

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس [عنكم][1] الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله[2].

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفى عن ابن عباس: هى خيبر. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ :إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم.

وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنَفَى، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم[3].

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار[4] فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه[5] المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم[6].

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، م: «لرسوله».
(٣) فى ت: « إلى يوم القيامة».
(٤) فى م: «الكفر».
(٥) فى ت، أ: « ولعباده».
(٦) فى ت، م: «ومددهم».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل[١] إليهم منهم سوء، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به[٢].

وقال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَانى، عن[٣] عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب فى قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب فى قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا فى[٤] وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم فى عهد أحد؟ أو: هل[٥] جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائى من حديث حسين بن واقد، به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّى، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما

---

(١) فى ت: «تصل».

(٢) المسند (٣/١٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٣) فى ت: «بن».	(٤) فى ت، م: «إلى».	(٥) فى ت: «وهل».

(٦) المسند (٤/٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

خرج النبى ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبى الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل[١]»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمى سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بى أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ][٢] ﴾ إلى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره[٣] عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل[٤].

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين[٥] يومئذ، كما ثبت فى الصحيح. ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتى من العام المقبل[٦] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شىء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثنى من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى[٧] عسكر رسول الله ﷺ[٨] بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفى ذلك أنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية[٩].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلا، فأتوه باثنى عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله فى ذلك: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية.

(١) فى أ: «الجبل».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أظفركم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٩).
(٥) فى أ: «للمشركين».
(٦) فى ت: «قابل».
(٧) فى أ: «فى».
(٨) فى ت، م: «عسكر المسلمين».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٥٩).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم(١) على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أى: وصدوا الهدى أن يصل(٢) إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدىُ سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله:﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة(٣) القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله(٤) أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف(٥) يقول(٦): سمعت(٧) جنيد بن سبع يقول(٨): قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت:﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين(٩).

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكى به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره(١٠) والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف(١١)،

(١) فى ت، أ: «ولا هم». (٢) فى ت: «يبلغ». (٣) فى أ: «حال».
(٤) فى م، أ: « عبيد الله». (٥) فى أ: «عمرو». (٦) فى ت: «روى الحافظ الطبرانى بسنده».
(٧) فى ت: «عن». (٨) فى ت: «قال».
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠).
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤).
(١١) فى أ: «حنيف».

به. وقال: كنا ثلاثة[١] رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبى حمزة[٢]، عن عطاء، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير[٤]، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعنى: ابن أبى بن كعب [٥] [رضى الله عنه] [٦]ـ عن أبيه، [أنه][٧] سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب[٩]، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون[١٠] يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى[١١]، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) فى م: «ثلاث». (٢) فى أ: «عن أبى هريرة». (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».
(٤) فى أ: «ثور». (٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».
(٦) زيادة من ت. (٧) زيادة من ت، م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦) وزوائد عبد الله على المسند (٥/١٣٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).
(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده». (١٠) فى أ: «قريش».
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِى، عن على: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهرى: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿**وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائى: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبى رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبى إدريس، عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [الفتح:٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله(١).

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى(٢)، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).

(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم](١) دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه(٢) على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك(٣) لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم](٤) قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: [و](٥) كانت خزاعة فى عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله [ﷺ](٦)؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى(٧)، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدَه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج(٨) حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «يحرصه».
(٣) فى ت: «وما ذاك».
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) زيادة من ت، م.
(٦) زيادة من ت، م.
(٧) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه».
(٨) فى أ: «ثم خرج».

ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد[(١)]، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله [ﷺ][(٢)] وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت[(٣)] به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ﷺ][(٤)] قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأت أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

---

(١) فى ت: «بالحدد».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «عثرت».
(٤) زيادة من ت، أ.

الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. [ثم][1] قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من[2] الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب [رضى الله عنه][3] فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح[4] عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله[5] من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ[6] لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بعير السيوف فى القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ[7] قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله [ﷺ][8] على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجت[9] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا[10]، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبى][11] جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

---

(١) زيادة من م، أ.
(٢) فى ت: «عن».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ما صالح».
(٥) فى أ: «محمداً».
(٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى ت، أ: «تمت».
(١٠) فى ت، م، أ: «عهدنا».
(١١) زيارة من ت، م، أ.

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا[١] واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن[٢] منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائى، عن ابن إسحاق، بنحوه[٣]، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، به نحوه[٤] وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقة[٥] حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط[٦] من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: « أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل عل عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عنُقًا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه][٧]: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

---

(١) فى ت، أ: «انحروا فى الحرم». (٢) فى ت، أ: «فلا تكلمن».
(٣) المسند (٤/ ٣٢٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٦).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٢٨) من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى م: «بسياقات». (٦) فى ت، م: «الشرط». (٧) زيادة من أ.

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث(١) الناس حتى نزحوه، وشكى(٢) إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله [ﷺ](٣) من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن(٤) الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا(٥) من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبى ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء».

---

(١) فى ت، م: «يلبثه». (٢) فى أ: «شكوا». (٣) زيادة من م.
(٤) فى ت، م: «أو لينفذن». (٥) فى أ: «أوباشاً».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه[(١)]، قال: فوالله ما تنخم رسول الله [ﷺ][(٢)] نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال[(٣)] رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: «هذا مكرز [بن حفص][(٤)] وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرنى أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: «قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك[(٥)] كتابا فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «[اكتب][(٦)]: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو][(٧)]: أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

---

(١) فى ت: «بعينه».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «فقام».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت: «بينكم».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ت، م.

ابن عمرو يرسُفُ فى قيوده، قد[1] خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إلى، فقال النبى ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل. قال عمر [ابن الخطاب][2] رضى الله عنه: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه[3] العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول[4] الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله[5] ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال:

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «أنك تأتيه».
(٤) فى ت: «النبى». (٥) فى م: «النبى».

قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا[(١)]، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به[(٢)] ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمة][(٣)]، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك[(٤)]. وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعنى: الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح[(٥)].

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان[(٦)]

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٨٠).

(٣) زيادة من م.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى أول الشروط برقم (٢٧١١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٤).

(٦) فى هـ: «شقيق».

ابن سلمة، عن سهيل[١] بن حنيف به[٢]، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم[٣] أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن[٤] من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامى، بنحوه[٦].

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس،رضى الله عنهما، قال:نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحنُّ إلى أولادها[٧].

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ .

(١) فى م: «سهل».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).
(٣) فى م: «علمنا». (٤) فى م: «أنه».
(٥) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).
(٦) المسند (١/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).
(٧) المسند (١/ ٣١٤).

كان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر(١) هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه(٢) عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: [و](٣)هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شيء، [وقوله](٤): ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم(٥) لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة(٦).

وقوله: ﴿لا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل(٧) والزروع، فاستخدم(٨) من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى](٩) سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز

---

(١) فى أ: «تتعين».
(٢) فى ت، م: «آتيه».
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م.
(٥) فى م، أ: «دخولهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) فى أ: «النخيل».
(٨) فى ت: «واستخدم».
(٩) زيادة من ت.

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال[١]: دخلت: علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا][٢] إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه ... باسم الذى محمدٌ رسوله

خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تَأْويله

كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله

ويُذْهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله

فى صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر[٣] بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ[٤]، وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ

خلوا فكل[٥] الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله

نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

---

(١) فى ت،م: «فقال». (٢) زيادة من ت،م،أ. (٣) فى ت: «محمد».
(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه». (٥) فى ت: «وكل».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٧١).

خلوا بني الكفار عن سبيله قد نزل الرحمن في تنزيله

بأن خير القتل في سبيله يا رب إني مؤمن بقيله

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعني: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعني: ابن عثمان ـ عن أبي الطُّفَيْل[1]، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول][2]: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي[3] من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى[4] القوم فيكم غميزة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنقُزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع[5].

وقال[6] أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه][7] أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به[8] وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أي من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

---

(١) في ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت، أ: «إليّ». (٤) في ت: «ألا ترى».
(٥) المسند (١/ ٣٠٥).
(٦) في ت: «وروى». (٧) زيادة من ت.
(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخاري برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٦).

قال البخارى: وزاد ابن سلمة ـ يعنى: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامه الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته[١].

ورواه فى مواضع أخر، ومسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به[٢].

وقال أيضا: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمع ابن أبى أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم[٣].

وقال[٤] البخارى أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثنى محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج.

وهو فى صحيح مسلم أيضا[٥]:

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٧).
(٢) صحيح البخارى برقم(١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٥).
(٤) فى ت: «روى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٢).

وجعفر، فقال عليّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه][٢] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين[٣] ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه[٤]، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى أ: «مسلمين».

(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر»[1]، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[2] كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة[3] الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة[4] المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعنى: السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسى، حدثنا حسين الجَعْفى، عن زائدة[5]، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال: ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحى، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله [6] ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[7].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

والغرض أن الشىء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠١١)ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٣) فى ت، م: «وذكر». (٤) فى م: «المحبة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٦) فى ت: «عن النبى».

(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن سلمة بن كُهَيْل[١]، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال: قال النبى ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمى متروك[٢].

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن[٤] موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما[٥] كان»[٦].

وقال[٧] الإمام أحمد [أيضا][٨]: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبى ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به[٩].

فالصحابة [رضى الله عنهم][١٠] خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ [فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ][١٢]﴾ أى: فراخه، ﴿فَآزَرَهُ﴾ أى: شده ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أى: شب وطال، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة[١٣]، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

---

(١) فى ت: «وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده».
(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وحامد بن آدم كذاب.
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى ت: «من».
(٦) المسند (٣/ ٢٨).
(٧) فى ت: «وروى». (٨) زيادة من ت.
(٩) المسند (١/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٦).
(١٠) زيادة من ت، م، أ.
(١١) فى م: «المقدسة». (١٢) زيدة من م. (١٣) فى م: «كبيرة».

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم[1]، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «مثواهم».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

/ # سورة الفتح [١٠٤ظ]

مدنيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ فتحُ البلد عبارة عن الظفر به عَنوةً أو صلحًا، بحِراب أو بدونه، فإنّه ما لم يُظفَر به مُنْغَلَق، مأخوذ مِن "فتح باب الدار". وإسناده إلى نون العظَمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقًا وإيجادًا. والمراد به فتح مكّة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه،[1] بُشِّر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند انصرافه عن الحُدَيبية. والتعبير عنه بصيغة الماضي على سَنن سائر الأخبار الربّانيّة للإيذان بتحقّقه لا محالةَ تأكيدًا للتبشير، كما أنّ تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك. وفيه مِن الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبِر جلّ جلاله وعزّ سلطانه ما لا يخفى.

وقيل: هو ما أُتيح له عليه السلام في تلك السَّنة مِن فتح خيبر، وهو المرويّ عن مجاهد.[2]

وقيل: هو صُلح الحُديبية، فإنّه وإن لم يكن فيه حِراب شديد؛ بل تَرامٍ بين الفريقين بسهام وحجارة، لكن لمّا كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحًا بلا ريب. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رمَوا المشركين حتّى أدخلوهم ديارَهم».[3] وعن الكلبي: «ظهروا عليهم حتّى سألوا الصلح».[4]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤١؛ واللباب لابن عادل، ١٧/٤٧٤.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤١؛ واللباب لابن عادل، ١٧/٤٧٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٨٣.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٨٣.

وقد رُوي أنّه عليه السلام حين بلغه أنّ رجلًا قال: «ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا»، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح، ويسألوكم القضيّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأَوا منكم ما يكرهون».[١]

وعن الشعبي: «نزلت بالحُديبية، وأصاب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الغزوة ما لم يُصِب في غزوةٍ، حيث أصاب أن بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، وبلغ الهديُ مَحِلّه، وأُطعِموا نخل خيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرِح به المسلمون».[٢]

وكان في فتح الحُديبية آية عظيمة، هي أنّه نُزِحَ ماؤها حتّى لم يبقَ فيها قطرة، فتمضمَض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ مَجّه فيها فدرَّت بالماء حتّى شرب جميع مَن كان معه.[٣] وقيل: فجاش الماء حتّى امتلأت، ولم ينفَد ماؤها بعدُ.

وقيل: هو جميعُ ما فُتِح له عليه السلام مِن الفتوح. وقيل: هو ما فَتح الله له عليه السلام مِن الإسلام والنبوّة والدعوة بالحجّة والسيف، ولا فتحَ أبينُ منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافّةً؛ إذ لا فتحَ مِن فتوح الإسلام إلّا وهو شعبة مِن شُعَبِه، وفرع مِن فروعه. / وقيل: "الفتح" بمعنى القضاء، ومنه [١٠٥و] "الفُتاحة" للحكومة، والمعنى: قضينا لك على أهل مكّة أن تدخلها مِن قابل، وهو المرويّ عن قتادة رضي الله عنه.[٤]

وأيًّا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذانِ بأنّ مناط التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصيّةُ المفتوح.

﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ بيّنًا ظاهرَ الأمر، مكشوفَ الحال، أو فارِقًا بين الحقّ والباطل.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوّة، ١٦٠/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٢٤٤/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢/٩.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. والقصّة في صحيح البخاري، ١٩٣/٤ (٣٥٧٧)؛ وصحيح مسلم، ١٤٣٣/٣ (١٨٠٧).

٤ م - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ٢٣٨/٢١؛ تفسير عبد الرزّاق، ٢١٠/٣.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ غايةٌ للفتح مِن حيث إنّه مترتّب على سعيه عليه السلام[1] في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابَدة مشاقّ الحروب، واقتحامِ موارد الخطوب. والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ ممّا انتظم في سِلك الغاية مِن أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى مِن حيثيّةٍ غيرِ حيثيّة الآخر مترتّبةٍ على صفة مِن صفاته تعالى.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: جميعَ ما فرَط منك مِن ترك الأَولى. وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضمِّ المُلك إلى النبوّة وغيرهما ممّا أضافه عليه مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامةِ مراسم الرياسة. وأصلُ الاستقامة وإن كانت حاصلةً قبلَ الفتح لكن حصل بعد ذلك مِن اتّضاح سُبل الحقّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلًا قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لكونه خاتمةَ الغايات، ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يُعرِب عنه تأكيده بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نَصرًا فيه عِزّة ومَنَعة، أو قويًا مَنيعًا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازًا للمبالغة، أو عزيزًا صاحبُه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

---

[1] وفي هامش م: فإنّه وإن كان مِن حيث الخلقُ والإيجادُ مستندًا إلى الله عز وجلّ، لكن مِن حيث الكسبُ مستند إليه عليه السلام، مترتّب على ما ذُكر مِن المساعي الجميلة الحقيقة باستتباع تلك الغايات الجليلة. «منه».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بيان لِما أفاضَ عليهم مِن مبادي الفتح مِن الثبات والطُّمأنينة، أي: أنزلَها ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمنِ إظهارًا لِفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، / ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: يقينًا [١٠٥ظ] منضمًّا إلى يقينهم، أو أنزلَ فيها السكون إلى ما جاء به عليه السلام مِن الشرائع ليزدادوا إيمانًا بها مقرونًا مع إيمانهم بالوحدانيّة واليوم الآخر. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «أنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التوحيد، ثمّ الصلاة والزكاة، ثمّ الحجّ والجهاد، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم».[٢] أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّر أمرَها كيفما يريد، يسلّط بعضها على بعض تارةً، ويُوقع بينهما السِّلم أخرى، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العلم بجميع الأمور، ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلّق بما يدلّ عليه ما ذُكر مِن كون جنود السماوات والأرض له تعالى مِن معنى التصرّف والتدبير، أي: دبَّر ما دبَّر مِن تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيُدخلهم الجنّة، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغطّيَها ولا يظهرَها. وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدرُه؛ لأنّه مُنتَهى ما يمتدّ إليه أعناق الهِمم مِن جلب نفع ودفعِ ضرّ.

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٩.

و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ﴿فَوْزًا﴾؛ لأنّه صفته في الأصل، فلمّا قُدِّم عليه صار حالًا، أي: كائنًا عند الله، أي: في علمه وقضائه. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿يُدْخِلَ﴾.[١] وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى مِن الدلالة على أنّهم أحقّ منهم بالعذاب. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنَّ الأمر السَّوء، وهو أن لا يَنصر رسوله والمؤمنين.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم، ودائر عليهم. وقُرئ: "دَائِرَةُ السُّوءِ" بالضمّ،[٢] وهما لغتان مِن "سَاءَ"، كـ"الكَرْه" و"الكُرْه"، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه مِن كلّ شيء، وأمّا المضموم فجارٍ مَجرى الشرّ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِما استحقّوه / في [١٠٦و]
الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا. و"الواو" في الأخيرين مع أنّ حقّهما "الفاء" المفيدة لِسببيّة ما قبلها لِما بعدها للإيذان باستقلال كلٍّ منها في الوعيد وأصالتِه مِن غير اعتبار استتباع بعضها لبعضٍ. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ إعادة لِما سبَق، قالوا: فائدتها التنبيه على أنّ لله تعالى[٣] جنودَ الرحمة وجنودَ العذاب، وأنّ المراد ههنا جنودُ العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لوصف العزّة.

---

١ في الآية السابقة.
٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.
٣ س - تعالى.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي: على أمّتك، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ على المعصية.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأمّته، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بتقوية دينه ورسوله، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنَزِّهوه، أو تصلّوا له، مِن "السُّبحة"، ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشيًّا. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[1] «صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر».[2]

وقُرئ الأفعال الأربعة بـ"الياء" التحتانيّة.[3] وقُرئ: "وتُعْزِرُوهُ" بضمّ "التاء" وتخفيف "الزاء" المكسورة.[4] وقُرئ بفتح "التاء" وضمّ "الزاء"[5] وكسرها،[6] و"تُعَزِّزُوهُ" بزاءَين.[7] و"تُوقِرُوهُ"،[8] مِن "أَوْقَرَهُ" بمعنى "وَقَّره".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: على قتالِ قريش تحت الشجرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، يعني: أنّ مبايَعتك هي مبايَعة الله عزّ وجلّ؛ لأنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حال أو استئناف مؤكِّد له على طريق التخييل، والمعنى: أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعَقْده مع الله تعالى مِن غير تفاوت

---

[1] م - رضي الله عنهما.
[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٣٥/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.
[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.
[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.
[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]. وقُرئ: "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ"،[١] أي: لأجله ولوجهه.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فمَن نقَض عهدَه فإنّما يعود ضررُ نكثه على نفسه. وقُرئ بكسر "الكاف".[٢] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضمّ "الهاء"، فإنّه أُبقِيَ بعد حذف "الواو"[٣] / توسّلًا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة. [١٠٦ظ]

وقُرئ بكسرها.[٤] أي: ومَن وَفَى بعهده.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنّة. وقُرئ: "بِمَا عَهِدَ".[٥] وقُرئ: "فَسَنُؤْتِيهِ" بنون العظَمة.[٦]

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أعراب غِفارٍ ومُزَينة وجُهَينة وأشجَع وأسلَم والدِّيل،[٧] تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين استنفر مَن حول المدينة مِن الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسيرَ إلى مكّة عام الحُديبية معتمِرًا حذَرًا مِن قريش أن يَعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرَم عليه السلام وساق معه الهدي ليُعلَم أنّه لا يريد الحرب، وتثاقلوا عن الخروج، وقالوا: «نَذهَبُ إلى قوم قد غزَوه في عُقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن تمّام بن العبّاس بن عبد المطّلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٢ أي: "يَنكِثُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٣ وفي هامش م: حُذفت "الواو" لسكونها وسكونِ "اللام"، وبقيت الضمّة تدلّ عليها. كواشي. | تفسير الكواشي، ٥٠٣و.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٧ بنو الدِّيل: بطن مِن عبد القيس بن ربيعة مِن العدنانيّة، قال الجوهري: وهما دِيلان، أحدهما: الدِّيل بن شدّاد بن أقصى بن عبد القيس، والثاني: الدِّيل بن عمرو بن وديعة بن أقصى بن عبد القيس. قال الجوهري: ومنهم أهل عُمان. والنسب إلى الديل: "دِيلي". نهاية الأرب للقلقشندي، ٥٦/١.

فنُقاتلهم»»، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام بأنهم سَيَعتَلُّون ويقولون: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ولم يكن لنا مَن يَخلفُنا فيهم، ويقوم بمصالحهم، ويحميهم مِن الضياع.[١] وقُرِئ: "شَغَّلَتْنا" بالتشديد[٢] للتكثير. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيارٍ؛ بل عن اضطرارٍ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ بدل مِن ﴿سَيَقُولُ﴾، أو استئناف لتكذيبهم في الاعتذار والاستغفار.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي: فمَن يقدر لأجلكم مِن مشيئة الله تعالى وقضائه على شيء مِن النفع ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ أي: ما يضرّكم مِن هلاك الأهل والمال وضياعهما حتّى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما. وقُرِئ: "ضُرًّا" بالضمّ.[٣] ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ أي: ومَن يقدر على شيء مِن الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم مِن حفظ أموالكم وأهليكم، فأيّ حاجة إلى التخلّف لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحقّ، وردّ لهم بموجَب ظاهر مقالتهم الكاذبة.

وتعميم الضرّ والنفع لِما يتوقّع على تقدير الخروج مِن القتل والهزيمة
[١٠٧و] والظفَر والغنيمة يَردّه قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ / فإنّه إضراب عمّا قالوا، وبيان لكذبه، بعد بيان فساده على تقدير صِدقه، أي: ليس الأمر كما تقولون؛ بل كان الله خبيرًا بجميع ما تعملون مِن الأعمال التي مِن جملتها تخلُّفكم وما هو مِن مباديه.

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ﴾... إلخ بدل مِن ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾... إلخ[٤] مفسِّر لِما فيه مِن الإبهام، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٢٥٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٤ في الآية السابقة.

بأن يستأصلهم المشركون بالمرّة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا لِما ذكرتم مِن المعاذير الباطلة. و"الأهلون" جمع "أهل"، وقد يجمع على "أهلات" كـ"أرضات" على تقدير تاء التأنيث، وأمّا "الأهالي" فاسم جمع كـ"الليالي". وقُرِئ: "إِلَى أَهْلِهِمْ".[١]

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقَبِلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غيرَ مبالِين بهم. وقُرِئ: "زَيَّنَ"[٢] على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه، أو إلى الشيطان، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إمّا الظنّ الأوّل، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيلِ عليه بالسوء، أو ما يَعمّه وغيرَه مِن الظنون الفاسدة التي مِن جملتها الظنّ بعدم صحّة رسالته عليه السلام، فإنّ الجازم بصحّتها لا يحومُ حول فكره ما ذُكر مِن الاستئصال.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هالِكين عند الله مستوجِبين لسخَطه وعقابه، على أنّه جمع "بائر"، كـ"عائذ" و"عُوذٍ"،[٣] أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خيرَ فيكم. وقيل: "البُور" مِن "بارَ"، كـ"الهُلك" مِن "هلك" بناءً ومعنًى، ولذلك وُصف به الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كلام مبتدأ مِن جهته تعالى، غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، مقرِّرٌ لبَوارِهم، ومبيِّن لكيفيّته، أي: ومَن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: لهم، وإنّما وضع موضع الضمير "الكافرون" إيذانًا بأنّ مَن لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، وأنّه مستوجِب للسعير بكفره. وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للتهويل، أو لأنّها نار مخصوصة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ س: كعائد وعود. | وفي هامش م: وهو الحديث السنّ مِن الظباء والإبل. «منه».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

[١٠٧ظ] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ/ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، يتصرّف في الكلّ كيف يشاء، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه مِن غير دخل لأحدٍ في شيء منهما وجودًا وعدمًا، وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغة في استغفاره عليه السلام لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في المغفرة والرحمة لمَن يشاء، ولا يشاء إلّا لمَن يقتضي الحكمةُ مغفرته ممّن يؤمن به وبرسوله، وأمّا مَن عداه مِن الكافرين فهم بمَعزِل مِن ذلك قطعًا.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المذكورون. وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرف لِما قبله، لا شرطٌ لِما بعده، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إيّاها وخصّكم بها عِوضًا ممّا فاتكم مِن غنائم مكّة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونَشهَدْ معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنّه عليه السلام رجع مِن الحديبية في ذي الحجّة مِن سنة ستٍّ، وأقام بالمدينة بقيّتَها وأوائلَ المحرَّم مِن سنة سبعٍ، ثمّ غزا خيبر بمَن شهد الحديبية، ففتَحها وغنِم أموالًا كثيرةً، فخصّها بهم حسبما أمره الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "كَلِمَ اللهِ"،[١] وهو جمع "كلِمة". وأيًّا ما كان فالمراد ما ذُكِر مِن وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصّةً، لا قوله تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة، ٨٣/٩]، فإنّ ذلك في غزوة تبوك.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

﴿قُلْ﴾ إقناطًا لهم: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتّبعونا، فإنّه نفي في معنى النهي للمبالغة. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: عند الانصراف مِن الحديبية. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: ليس ذلك النهيُ حُكمَ الله؛ بل تَحسدوننا أن نشارككم في الغنائم. وقُرئ: "تَحسِدُونَنَا" بكسر "السين".[١]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا فهمًا قليلًا، وهو فِطنتهم لأمور الدنيا، ردٌّ لقولهم الباطل، ووصفٌ لهم بما هو أعظم مِن الحسد، وأطمّ مِن الجهل المُفرِط، وسوء الفهم في أمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ/ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في ذمّهم: [١٠٨و] ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو[٢] حَنيفة قومُ مسيلِمة الكذّاب، أو غيرهم ممّن ارتدّوا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو المشركين،[٣] لقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين، إمّا المقاتَلة أبدًا، أو الإسلامُ لا غيرُ، كما يُفصِح عنه قراءة: "أَوْ يُسْلِمُوا".[٤] وأمّا مَن عداهم فينتهي قتالهم بالجِزية كما ينتهي بالإسلام. وفيه دليل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ لم يتّفق هذه الدعوة لغيره إلّا إذا صحّ أنّهم ثقيف وهوازن، فإنّ ذلك كان في عهد النبوّة، فيُخَصُّ دوام نفي الاتّباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنّة.[٥] وقيل: هم فارس والروم، ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾: ينقادون، فإنّ الروم نصارى، وفارسَ مجوس يُقبل منهم الجِزية.

---

[١] قراءة شاذّة، مروية عن أبي حَيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

[٢] م: بنوا.

[٣] وفي هامش م: أي: مشركو العرب.

[٤] قراءة شاذّة، مروية عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

[٥] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٢/٧.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنّة في الآخرة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعُف جرمكم.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلّف عن الغزو لِما بهم مِن العُذر والعاهة، فإنّ التكليف يدور على الاستطاعة. وفي نفي الحرَج عن كلٍّ مِن الطوائف المعدودة مزيد اعتناءٍ بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرخصة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكر مِن الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. وقُرئ: "نُدْخِلْهُ" بنون العظَمة.[1] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ وقُرئ بالنون[2] ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم الذين ذُكِر شأن مبايعتهم. وبهذه الآية سمّيت بيعة الرضوان. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ منصوب بـ﴿رَضِىَ﴾. وصيغة المضارع لاستحضار صورتها، و﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ متعلّق به، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا نزل الحديبية بعثَ جوّاس بن أميّة الخزاعي[3] رسولًا إلى أهل مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمانَ بن عفّان، فأخبرهم أنّه عليه السلام لم يأتِ لحرب، وإنّما جاء زائرًا لِهذا البيت،

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[3] جوّاس بن أميّة؛ كذا في الأصول الخطيّة بالجيم والواو وآخره سين، وهو كذلك في «

/ معظِّمًا لحُرمته، فوقَّروه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: [١٠٨ظ]
ما كنتُ لأطوفَ قبل أن يطوف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنّهم قتلوه، فقال عليه السلام: «لا نبرَح حتّى نُناجزَ القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايَعوه تحت الشجرة -وكانت سَمُرةً، وقيل: سِدرةً- على أن يُقاتلوا قريشًا، ولا يفِرّوا. ورُوي على الموت دونه وأن لا يفرّوا، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنتم اليومَ خير أهل الأرض»، وكانوا ألفًا وخمسَمائة وخمسةً وعشرين.[١] وقيل: ألفًا وأربعَمائة. وقيل: ألفًا وثلثمائة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، لِما عرفتَ مِن أنّه بمعنى: بايَعوك، لا على ﴿رَضِيَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مترتّب على علمه تعالى بما في قلوبهم مِن الصدق والإخلاص عند مبايَعتهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿رَضِيَ﴾، أي: فأنزل عليهم الطُّمأنينة والأمن وسكونَ النفس بالربط على قلوبهم، وقيل: بالصلح. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غِبَّ انصرافهم مِن الحديبية كما مرّ تفصيله. وقُرئ: "وَآتَاهُمْ".[٣]

= مطبوع الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢٩/٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٢/٩. ولم أجد ذكرًا له في كتب التراجم بهذا الاسم. والصواب "خِراش بن أميّة"؛ بالخاء والراء وآخره شين؛ كما في جامع البيان للطبري، ٢٧٢/٢١؛ ومسند أحمد، ٢١٦/٣١ (١٨٩١٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩. وهو خِراش بن أميّة بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشيّة بن سلول الخزاعي ثمّ الكُلَيبي، يُكنى أبا نَضلة (ت. نحو ٦٠هـ/٦٨٠م). وهو حليف بني مخزوم، شهد المرَيسيع والحديبية، وحلَق رأس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذ، أو في العمرة التي تليها. وذكَر ابن الكلبي أنّه كان حجّامًا، وأنّه رمى بنفسه على عامر بن أبي ضرار الخزاعي يوم المرَيسيع مخافةَ أن يقتله الأنصار. تُوفّي في آخر خِلافة معاوية. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤٤٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٢٣١/٢.

١ س ي: وعشروين.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٢٣/٥ (٤١٥٤)؛ وصحيح مسلم، ١٤٨٤/٣ (١٨٥٦).

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[١] أي: مغانم خيبر. والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع[٢] لتشريفهم في مقام الامتِنان. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيًا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ٢٠﴾

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما يُفِيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكلّ واحدة منها. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيديَ أهل خيبر وحُلَفائهم مِن بني أسد وغطَفان حيث جاءوا لِنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكَصوا. وقيل: أيديَ أهل مكّة بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها صدقَ الرسول في وعده إيّاهم عند رجوعه مِن الحديبية ما ذُكر مِن المغانم وفتحِ مكّة ودخولِ المسجد الحرام. و"اللام" متعلِّقة إمّا بمحذوف مؤخَّر، / أي: ولِتكون آيةً لهم فعَلَ ما [١٠٩و]
فعَلَ مِن التعجيل والكفّ، أو بما تعلّق به علّة أخرى محذوفة مِن أحد الفعلَين، أي: فعَجل لكم هذه أو كفّ أيدي الناس لتغتنموها ولِتكون... إلخ. فـ"الواو" على الأوّل اعتراضيّة، وعلى الثاني عاطفة.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى، والتوكّلُ عليه في كلّ ما تأتون وما تذَرون.

---

١ س: تأخذونها. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س. وهي بـ"التاء" قراءة شاذّة كما سيأتي.

٢ م س ي – على قراءة الأعمش وطلحة ونافع ["صح" في هامش م]. | أي: "تَأْخُذُونَهَا". وهي قراءة شاذّة عنهم. أمّا القراءة المشهورة عن نافع فهي بـ"الياء" كالجمهور. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٩٣.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾،[١] أي: فعجّل لكم هذه المَغانم ومَغانمَ أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووَصْفُها بعدم القدرة عليها لِما كان فيها مِن الجَوْلة قبل ذلك لِزيادة ترغيبهم فيها. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ صفةٌ أخرى لِ﴿أُخْرَىٰ﴾، مفيدةٌ لسهولةِ تَأَتّيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة مَنالها بالنظر إلى قدرتهم، أي: قد قدَر الله عليها واستولى، وأظهركم عليها. وقيل: حفِظها لكم، ومنعَها مِن غيركم.

هذا، وقد قيل: إنّ ﴿أُخْرَىٰ﴾ منصوب بمضمَر يفسّره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: وقضى الله أخرى، ولا ريبَ في أنّ الإخبار بقضاء الله إيّاها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾،[٢] ليس فيه مزيد فائدة، وإنّما الفائدة في بيان تعجيلها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنّ قدرته تعالى ذاتيّة لا تختصّ بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكّة ولم يصالحوكم، وقيل: حُلَفاء خيبر، ﴿لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنّ الله غلبةَ أنبيائه سنّةً قديمةً فيمَن مضى مِن الأمم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾[٣] أيديَ كفّار مكّة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخلها ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ س ي + أي.

خرج في خمسمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد على جند فهزَمهم حتّى أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد. وقيل: كان يوم الفتح، وبه استشهَد أبو حنيفة على أنّ مكّة فُتحت عَنوةً لا صلحًا.[1]

[١٠٩ظ] / ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن مقاتَلتهم وهَزمِهم أوّلًا والكفِّ عنهم ثانيًا لتعظيم بيته الحرام. وقُرئ بـ"الياء".[2] ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك، أو يجازيهم.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوكُمْ﴾. وقُرئ بالجرّ[3] عطفًا على ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ بحذف المضاف، أي: ونحرِ الهدي، وبالرفع على "وصُدَّ الهديُ". وقوله تعالى: ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال مِن ﴿ٱلْهَدْىَ﴾، أي: محبوسًا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْهَدْىَ﴾، أو منصوب بنزع الخافض، أي: محبوسًا مِن أن يبلغ مكانه الذي يحِلّ فيه نحره، وبه استدلّ أبو حنيفة رحمه الله[4] على أنّ المحصَر محلّ هديه الحرَمُ.[5] قالوا: بعض الحديبية مِن الحرَم. ورُوي أنّ خيامه عليه السلام كانت في الحِلّ، ومصلّاه في الحرَم.[6] وهناك نُحِرت هداياه عليه السلام. والمراد صدُّها عن محلّها المعهود الذي هو منًى.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تَعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم، وهو صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نِسَآءٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي: تُوقِعوا بهم وتُهلكوهم، بدل اشتمال منهم، أو مِن الضمير[7] المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾.

---

١ انظر: المبسوط للسرخسي، ٣٧/١٠.
٢ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٥/٩.
٤ س - رحمه الله.
٥ انظر: بدائع الصنائع للكاساني، ١٧٤/٢.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤. وفي مسند أحمد، ٢٢٠/٣١ (١٨٩١٠)، في حديث طويل: «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي في الحرَم، وهو مضطرِب في الحِلّ».
٧ وفي هامش م: فيه بحث.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن جهتهم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: مشقّة ومكروه، كوجوب الدية أو الكفّارة بقتلهم، والتأسّفِ عليهم، وتعييرِ الكفّار، وسوءِ قالتهم، والإثمِ بالتقصير في البحث عنهم. وهي "مَفْعَلَة" مِن "عَرَّه" إذا عَراه ودَهاه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، أي: غير عالمين بهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهلِكوا أُناسًا مؤمنين بين الكافرين غيرَ عالمين بهم فيصيبكم بذلك مَكروه لَما كفَّ أيديكم عنهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّق بما يدلّ عليه الجواب المحذوف، كأنّه قيل عقيبَه: لكن كفّها عنهم ليُدخل بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بلا مَحذور في رحمته الواسعة بقسمَيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون، فإنّهم كانوا خارجين مِن الرحمة الدنيويّة التي مِن جُملتها الأمْنُ، مستَضعَفين تحت أيدي الكفَرة، وأمّا الرحمة الأخرويّة فهم وإن كانوا غيرَ مَحرومين منها بالمَرّة لكنّهم كانوا قاصرين في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها / على الوجه الأتمّ إدخال لهم في الرحمة الأخرويّة. [١١٠و]

وقد جُوّز[١] أن يكون ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عبارةً عمّن رغِب في الإسلام مِن المشركين، ويأباه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾... إلخ، فإنّ فَرض التزيّل وترتيبَ التعذيب عليه يقتضي تحقّق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيّل حتمًا، أي: لو تفرّقوا وتميّز بعضهم مِن بعض. وقُرئ: "لَوْ تَزَايَلُوا".[٢] ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقتل مُقاتِلتهم وسَبْيِ ذراريهم. والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوب بـ"اذكُر" على المفعوليّة، أو بـ﴿عَذَّبْنَا﴾[٣] على الظرفيّة. وقيل: بمُضمَر هو "أحسَن الله إليكم". وأيًّا ما كان فوضع الموصول

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٣٤٤/٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٣ في الآية السابقة.

موضعَ ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة وتعليلِ الحكم به. و"الجَعلُ" إمّا بمعنى الإلقاءِ، فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: الأنَفَةَ والتكبّرَ؛ متعلِّقٌ به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلّق بمحذوف هو مفعول ثانٍ له، أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: حميّةَ المِلّة الجاهليّة، أو الحميّةَ الناشئة مِن الجاهليّة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿جَعَلَ﴾، والمراد تذكير حُسن صنيعِ الرسول عليه السلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسُوءِ صنيع الكفرة، وعلى الثاني على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة، كأنّه قيل: لم يتزيّلوا فلم نعذّب فأنزَل... إلخ. وعلى الثالث على المضمَر تفسير له. و"السكينة" الثبات والوَقار.

يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل الحديبيةَ بعث قريش سُهيلَ بنَ عمرو القرشي،[1] وحويطبَ بن عبد العُزّى،[2] ومِكْرَزَ بن حفص بن الأحنَف،[3] على أن يَعرضوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يرجع مِن عامه ذلك على أن تُخلّي له قريش مكّة مِن العام القابل ثلاثةَ أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"»،

---

[1] هو سُهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، مِن لؤيّ، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهليّة. أسَره المسلمون يوم بدر، وافتُدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكّة، فأسلم، وسكَنها، ثمّ سكن المدينة. وهو الذي تولّى أمر الصلح بالحديبية. رُوي عن الشافعي: «كان سُهيل محمودَ الإسلام مِن حين أسلم». مات بالطاعون في الشام. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٧٧/٣؛ **الأعلام** للزركلي، ١٤٤/٣.

[2] هو حُوَيطب بن عبد العزّى بن أبي قيس القرشي العامري، أبو محمّد، أو أبو الأصبغ (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). أسلمَ عام الفتح. وشهِد حُنينًا، وكان مِن المؤلّفة، وجدّد أنصاب الحرَم في عهد عمر. كان حُويطب يقول: «انصرفتُ مِن صلح الحديبية وأنا مستيقِن أنّ محمّدًا سيظهر». عاش مائة وعشرين سنةً. ومات في خلافة معاوية. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢٤/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

[3] كذا في الأصول الخطّيّة: "الأحنَف" بالحاء وبعدها نون، والصواب: "الأخيَف" بالخاء وبعدها ياء. هو مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف بن علقمة القرشي العامري (ت. بعد ٢هـ/٦٢٤م). قال ابن حبّان: «يُقال: له صحبة»، قال ابن حجَر: «ولم أرَه لغيره. وذكره المرزباني في معجم الشعراء، ووصفه بأنّه جاهلي، ومعناه أنّه لم يُسلم، وإلّا فقد ذكَر هو أنّه أدرك الإسلام، وقدِم المدينة بعد الهجرة لمّا أُسر سُهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٦٣/٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٤/٧.

فقالوا: «ما نعرف ما هذا، اكتب "باسمك اللّهمّ"»، ثمّ قال: «اكتب: هذا ما صالحَ رسول الله عليه السلام[١] أهلَ مكّة»، فقالوا: «لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صدَدناك عن البيت، وما قاتَلناك، اكتب: هذا ما صالح عليه[٢] محمّد بن عبد الله / أهلَ مكّة»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اكتب ما يريدون»، [١١٠ظ] فهمّ المؤمنون أن يأبَوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل عليه الله السكينة عليهم، فتوقّروا وحَلُموا.[٣]

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلمةَ الشهادة، أو "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو "محمّد رسول الله". وقيل: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي الوفاء بالعهد والثباتُ عليه، وإضافتها إلى ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لأنّها سبب التقوى وأساسُها، أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ متّصفين بمزيد استحقاقٍ لها، على أنّ صيغة التفضيل للزيادة مطلقًا. وقيل: أحقَّ بها مِن الكفّار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم حقَّ كلّ شيء، فيَسوقه إلى مستحِقّه.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابَه قد دخلوا مكّة آمنين، وقد حلّقوا رءوسَهم وقصّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسِبوا أنّهم داخلوها في عامهم، فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبدُ الله بن نُفَيل ورفاعةُ بن الحارث: «واللهِ ما حلّقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام»، فنزلت.[٤] أي:

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ س – عليه.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٤/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥. وانظر: صحيح البخاري، ١٩٣/٣ (٢٧٣١).

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٩/٩.

صَدَقَه عليه السلام في رؤياه، كما في قولهم: «صدَقَني سِنَّ بَكْرِه»،[١] وتحقيقه: أراهُ الرؤيا الصادقة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّد محذوف، أي: صِدقًا ملتبسًا بالحقّ، أي: بالغرض الصحيح والحكمةِ البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزِل فيه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، أي: ملتبسةً بالحقّ ليست مِن قَبيل أضغاث الأحلام.

وقد جُوّز أن يكون قسَمًا بالحقّ الذي هو مِن أسماء الله تعالى، أو بنقيض الباطل، وقولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابه. وهو على الأوّلَين جواب قسم محذوف، أي: واللهِ لتدخلُنَ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق للعِدَة بالمشيئة لتعليم العباد، أو للإشعار بأنّ بعضهم لا يدخلونه لموتٍ أو غيبةٍ أو غير ذلك، أو هي حكاية لِما قاله ملَك الرؤيا لرسول الله عليه السلام،[٢] أو لِما قاله عليه السلام لأصحابه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، والشرط معترِض، وكذا قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلِّقًا بعضُكم ومقصِّرًا آخرون. وقيل: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال مِن ضمير ﴿ءَامِنِينَ﴾، فتكون متداخلة.

[١١١و] ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، أو ﴿ءَامِنِينَ﴾، / أو ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، أو ﴿مُقَصِّرِينَ﴾، أو استئناف أي: لا تخافون بعد ذلك.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقَ﴾، والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلي المتعلّق بأمر حادث بعد المعطوف عليه، أي: فعلِمَ عقيبَ ما أراهُ الرؤيا الصادقةَ ما لم تعلموا مِن الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهَد بالصدق علمًا فِعليًا، ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: مِن دون تحقّق مصداق ما أراه مِن دخول المسجد

---

١ «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه» يُضرب مَثَلًا في الصدق، والبَكْر: الفَتِيّ مِن الإبل. وأصله أنّ رجلًا ساوَم رجلًا في بَكْر، فقال: «ما سِنُّه؟» فقال صاحبه: «هِدَعْ هِدَعْ»، وهذه لفظة يُسكَّن بها الصغار مِن الإبل، فلمّا سمع المشتري هذه الكلمة قال: «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه». ونصب "سِنّ" على معنى: عرّفَني سِنّ. مجمع الأمثال للميداني، ١/٣٩٢.

٢ س: صلّى الله عليه وسلّم.

الحرام آمنين... إلخ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر. والمراد بجَعلِه وَعْدَه وإنْجازَه مِن غير تسويفٍ ليُستدَلّ به على صدق الرؤيا حسبما قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وأمّا جعلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ عبارةً عن الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل كما جنَحَ إليه الجمهور،[2] فيأباه "الفاء"، فإنّ علمه تعالى بذلك متقدِّم على إراءة الرؤيا قطعًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ملتبسًا به، أو بسببه ولأجله، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِبَه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقًّا مِن بعض الأحكام المتبدّلة بتبدُّل الأعصار، وإظهارِ بُطلان ما كان باطلًا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان؛ إذ ما مِن أهل دين إلّا وقد قهرهم المسلمون. وفيه فضلُ تأكيد لِما وعد مِن الفتح، وتوطينٌ لنفوس المؤمنين على أنّه تعالى سيَفتح لهم مِن البلاد، ويُتيحُ لهم مِن الغلَبة على الأقاليم ما يستقلّون إليه فتحَ مكّة.[3]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن لا محالةَ، أو على نبوّته عليه السلام بإظهار المعجزات.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

---

١ الفتح، ٢٠/٤٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٧/٢١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥.

٣ وفي هامش م: أي: يَعدّون قليلًا بالنسبة إليه فتحَ مكّة. «منه».

﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو بيان، أو نعت، أي: ذلك الرسول المرسَل بالهدى ودين الحقّ محمّد رسولُ الله. وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ / خبره، والجملة مبيِّنة للمشهود به. [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ و﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع "شديد"، و﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع "رحيم". والمعنى: أنّهم يُظهرون لمَن خالف دينهم الشدّةَ والصلابةَ، ولمَن وافقهم في الدين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٥/٥٤]. وقُرئ: "أَشِدَّاءَ" و"رُحَمَاءَ"[١] بالنصب على المدح، أو على الحال مِن المستكِنّ في ﴿مَعَهُۥٓ﴾، لوقوعه صِلة، فالخبر حينئذ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: تشاهدهم حالَ كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات. وهو على الأوّل خبرٌ آخَر، أو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثوابًا ورضًا؛ إمّا خبرٌ آخَر، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَىٰهُمْ﴾، أو مِن المستتِر في ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنّه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلًا... إلخ.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سِمَتُهم. وقُرئ: "سِيمِيَاؤُهُمْ" بـ"الياء" بعد "الميم" والمدّ،[٢] وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي "السِّيماء" بالمدّ. وهو مبتدأ خبرُه: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جباههم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال مِن المستكنّ في الجارّ، أي: مِن التأثير الذي يؤثّره كثرةُ السجود. وما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قوله عليه السلام: «لا تَعْلُبُوا صُوَرَكم»،[٣] أي: لا تَسِمُوها؛ إنّما هو فيما إذا اعتمد بجبهته

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٧؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩/١٢٧.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٧. ولم أجده مرفوعًا في مصادر الحديث. وفي غريب الحديث لأبي عبيد، ٤/٢٥٣، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه رأى رجلًا بأنفه أثر السجود، قال: «لا تَعلُب صورتَك». يقول: لا تؤثّر فيها أثرًا، يُقال: "عَلَبتُ الشيءَ أَعلُبه عَلْبًا وعُلوبًا" إذا أثّرتَ فيه.

على الأرض ليُحدث فيها تلك السِّمة، وذلك مَحض رياء ونفاق، والكلام فيما حدث في جبهة السَّجّاد الذي لا يسجد إلّا خالِصًا لوجه الله عزّ وجلّ. وكان الإمام زين العابدين[١] وعليّ بن عبد الله بن العبّاس[٢] رضي الله عنهما يقال لهما: "ذُو الثَّفِنَاتِ"، لِما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباهَ ثَفِناتِ البعير،[٣] قال قائلهم:

ديــار عــلــيّ والـحـسـين وجـعـفـرٍ وحـمـزةَ والـسَّـجّـادِ ذي الـثَّـفِـنـاتِ[٤]

وقيل: صُفرة الوجه / مِن خشية الله تعالى. وقيل: نَدَى الطهور وتراب الأرض. وقيل: استنارةُ وجوههم مِن طول ما صَلَّوا بالليل، قال عليه السلام: «مِن كثُر صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار».[٥] وقُرئ: "مِنْ آثَارِ السُّجُودِ"،[٦] و"مِنْ إِثْرِ السُّجُودِ" بكسر "الهمزة".[٧] [١١٢و]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن نُعوتهم الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوّ شأنه، وبُعد منزلته في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وَصفُهم العجيبُ الشأنِ الجاري في الغَرابة مَجرى الأمثال. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال مِن ﴿مَثَلُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة.

---

١ هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي العلوي المدني، زين العابدين، أبو الحسين، ويقال: أبو الحسن (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). السيّد، الإمام. حدث عن أبيه الحسين، وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنةً، وكان يومئذ مَوعوكًا، فلم يقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه مع آله إلى المدينة. كان ثقة، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورِعًا. أُحصي بعدَ موته عدد مَن كان يقوتهم سِرًّا، فكانوا نحو مائة بيت. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨٦/٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٧/٤.

٢ هو عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، أبو محمّد (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). الإمام، السيّد، السَّجّاد. ولد عام قُتل عليّ رضي الله عنه، فسمّي باسمه. وأمّه هي ابنة مشرح بن عديّ الكِندي؛ أحدِ الملوك الأربعة. كان رحمه الله عالمًا عاملًا جسيمًا وسيمًا مَهيبًا. رُوي أنّه كان يسجد كلّ يوم ألفَ سجدة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ٣٠٢/٤.

٣ ثَفِناتِ البعير: هي ما يقع على الأرض مِن أعضائه إذا استناخ وغَلُظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح للجوهري، «ثفن».

٤ لدُعبل الخزاعي في ديوانه، ص ٧٩، مِن قصيدة يمدح فيها آل البيت.

٥ سنن ابن ماجه، ٣٥٨/٢ (١٣٣٣)؛ مسند الشهاب للقضاعي، ٢٥٢/١ (٤٠٨)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٧١/٤ (٢٨٣٠).

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، كأنّه قيل: ذلك مَثَلهم في التوراة والإنجيل. وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾... إلخ تمثيل مستأنَف، أي: هم كزرع أخرج فِراخه. وقيل: هو تفسير لـ﴿ذَٰلِكَ﴾،[1] على أنّه إشارة مبهَمة. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقُرئ: "شَطَأَهُ" بفتحاتٍ.[2] وقُرئ: "شَطَاهُ" بفتح "الطاء" وتخفيفِ "الهمزة"،[3] و"شَطَاءَهُ" بالمدّ،[4] و"شَطَهُ" بحذف "الهمزة" ونقلِ حركتها إلى ما قبلها،[5] و"شَطْوَهُ" بقلبها واوًا.[6]

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه، مِن "المُؤازرة" بمعنى المعاونة، أو مِن "الإيزار"، وهي الإعانة. وقُرئ: "فَأَزَرَهُ" بالتخفيف،[7] و"أَزَّرَهُ" بالتشديد،[8] أي: شَدّ أَزْرَه وقوّاه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظًا بعد ما كان دقيقًا، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قَصَبه، جمع "ساق". وقُرئ: "سُؤْقِهِ" بـ"الهمزة".[9]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوّته وكثافته وغِلَظه وحُسن منظره، وهو مَثل ضَربه الله عزّ وعلا[10] لأصحابه صلّى الله عليه وسلّم قلّوا في بَدْء الإسلام، ثمّ كَثُروا واستحكموا، فترقّى أمرهم يومًا فيومًا بحيث أعجَب الناس. وقيل: مكتوب في الإنجيل: «سيخرج قوم يَنبتون نباتَ الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر».[11]

---

[1] وفي هامش م: لفظ.
[2] قرأ بها ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الهمداني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
[5] قرأ بها حمزة في حالة الوقف. وأمّا في الوصل فهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة والجَحدَري. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٤٨١ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
[7] قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
[9] قرأ بها قُنبل عن ابن كثير في أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.
[10] س: عزّ وجلّ.
[11] جامع البيان للطبري، ٢١/٣٣٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٦٦.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علّة لِما يُعرِب عنه الكلام مِن تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه، أو لِما بعده مِن قوله تعالى: / ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنّ الكفّار إذا سمِعوا بما أُعدّ للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا مِن العزّة غاظَهم ذلك أشدّ غيظٍ. و﴿مِنْهُم﴾ للبيان. [١١٢ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفتح فكأنّما كان ممّن شهد مع محمّد رسول الله عليه الصلاة والسلام[1] فتحَ مكّة».[2]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/١٠ (سورة النصر)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٩/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الفتح

تزلت بالمدينة على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ، والأخبار تدلُّ على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها، وهو الصحيح؛ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو داود والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحُديبية مع رسول الله ﷺ - أي: عامَ ستٍّ بعد الهجرة وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يومَ الاثنين هلالَ ذي القَعْدة - فأقام بها بضعةَ عشر يومًا، وقيل: عشرين يومًا، ثم قَفَل عليه الصلاة والسلام، فبينما نحن نسيرُ إذْ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى، فأخبرنا أنه أُنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1].

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فسألته عن شيء ثلاثَ مرات، فلم يَرُدَّ عليَّ، فحرَّكتُ بعيري ثم تقدَّمت أمامَ الناس وخشيتُ أن ينزلَ فيَّ القرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخًا يصرخُ بي، فوجئتُ وأنا أظنُّ أنه نزل فيَّ شيء، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[2].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٥٤، ومسند أحمد (٤٤٢١)، والتاريخ الكبير ٥/ ٢٥١، وسنن أبي داود (٤٤٧) - وهو عنده مختصر - وسنن النسائي الكبرى (٨٨٠٢).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (٢٠٩)، وصحيح البخاري (٤١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٦٢)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٣٥)، وصحيح ابن حبان (٦٤٠٩). ومعنى «فما نشبت»: لم أتعلَّق بشيء غير ما ذكرت. فتح الباري ٨/ ٥٨٣.

وفي حديث صحيح أخرجه أحمدُ وأبو داود وغيرهما عن مُجَمِّع بن جاريةَ الأنصاري ما يدلُّ على أنها نَزَلَتْ بعد مُنْصرفِهِ ﷺ من الحُديبية أيضًا، وأن ذلك عند كُراع الغَميم، فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته(١).

وفي رواية ابن سعد عنه ما يدلُّ على أنها بِضَجْنان(٢)، ونُقل ذلك عن البِقاعي(٣)، وضَجْنانُ: بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما ألف بزِنَةِ سَكْران، كما في «القاموس»(٤): جبل قُربَ مكة. وهذا ونحوه قولٌ بنزولها بين مكة والمدينة، ومثلُ ذلك يُعَدُّ مدنيًّا على المشهور وهو أن المدنيَّ ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أمْ بمكة، أَمْ بسفر من الأسفار، والمَكيُّ ما نزل قبل الهجرة. وأما على القول بأنَّ المكيَّ ما نزل ولو بعدَ الهجرة بمكة، ويدخل فيها كما قال الجلال السيوطي(٥) نواحيها كمنى وعرفات والحديبية، بل بعضها على ما في «الهداية» ـ وأكثرها على ما قال المحبُّ الطبري ـ من حرم مكة؛ والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل فيها كما قال أيضًا نواحيها كأُحُد وبدر وسَلْع = فلا، بل يُعَدُّ على القول بأنه نزل قُرب مكة مكيًّا، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلافٍ فيه نظرٌ ظاهر.

وهي تسعٌ وعشرون آية بالإجماع، ولا يخفى حسنُ وضعها هنا، لأن الفتح بمعنى النصر مُرتَّبٌ على القتال، وفي كلٍّ من ذكر المؤمنين المُخلصين والمنافقين والمشركين ما فيه، وقد ذُكر أيضًا في الأُولى الأمر بالاستغفار وذُكر هنا وقوعُ المغفرة، وذُكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف وكُني عنها بكلمة التقوى بناءً على أشهرِ الأقوال فيها، وستعرفها إنْ شاء الله تعالى. إلى غير ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف. وكراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.

(٣) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآي والسور ١٨/ ٢٧٥، وتصحفت فيه: بضجنان، إلى: بصحيان.

(٤) القاموس المحيط (ضجن).

(٥) الإتقان ١/ ٢٦-٢٧.

وفي «البحر»[1]: وجهُ مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدَّم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ الآية، وهو خطابٌ لكفار قريش أخبر سبحانه رسولَه ﷺ بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصلَ الاستبدال وأَمِنَ كلُّ مَنْ كان بمكة وصارَتْ دارَ إيمان. وفيه ما لا يخفى.

وفي الأخبار السابقة ما يدلُّ على جلالة قَدْرها. وفي حديث مُجَمِّع بن جارية الذي أخرجه عنه ابنُ سعد[2]: لما نزل بها جبريل عليه السلام قال: نُهنِّيك يا رسول الله، فلما هناه جبريلُ عليه السلام هناه المسلمون، ويُحكى أنه مَنْ قرأها أولَ ليلة من رمضان حُفِظَ ذلك العام[3]. ولم يثبتْ ذلك في خبرٍ صحيح، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إخبارٌ عن صُلح الحديبية عند الجمهور، ورُوي ذلك عن ابن عباس وأنس[4] والشعبي والزهري، قال ابن عطية[5]: وهو الصحيح.

وأصلُ الفتح: إزالةُ الأغلاق، وفتح البلد كما في «الكشاف»[6]: الظَّفَر به عُنوة أو صُلحًا بحرب أو بغيرِه، لأنه مُنغلقٌ ما لم يُظْفَر به، فإذا ظَفِرَ به وحصل في اليدِ فقد فُتح، وسُمِّي ذلك الصُّلح فَتْحًا لاشتراكهما في الظهور والغَلبة على المشركين، فإنهم - كما قال الكلبي - ما سألوا الصُّلح إلا بعد أن ظهرَ المسلمون عليهم. وعن ابن عباس أن المسلمين رَمَوْهم - أي: بسهام وحِجارة كما قيل - حتى أدخلوهم ديارَهم. أو لأنَّ ذلك الصُّلح صار سببًا لفتح مكة، قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظمَ من صُلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامَهم وتمكَّن الإسلام من قُلوبهم، وأسلم في ثلاثِ سنين خَلْقٌ كثير، وكَثُرَ بهم سوادُ الإسلام[7].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسلفي في الطيوريات.
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٣٤).
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٦) ٣/ ٥٤١.
(٧) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.

قال القرطبي[١]: فما مَضَتْ تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها.

والتسميةُ على الأول من باب الاستعارة التبعية كيفما قُرِّرت، وعلى الثاني من باب المَجاز المُرسل سواء قلنا: إنه في مثل ما ذكر تبعيٌّ أَمْ لا، حيث سُمِّي السببُ باسم المُسبَّب، ولا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة، فيكون استعمالُ أحدِهما في الآخر باعتبار كلٍّ نوعًا من المجاز كما في المِشْفَر[٢] والشفة الغليظة لإنسان.

وإسنادُ الفتح المُراد به الصُّلح الذي هو فعلُ رسول الله ﷺ إليه عز وجل مجازٌ من إسناد ما للقابل للفاعل المُوجِد، وفي ذلك من تعظيم شأن الصُّلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه؛ لا يقال: قد تقرَّر في الكلام أن الأفعال كلَّها مخلوقةٌ له تعالى فنسبة الصُّلح إليه سبحانه إسنادٌ إلى ما هو له فلا مَجاز. لأنا نقول: ما هو له عبارةٌ عمَّا كان الفعل حَقّه أن يُسندَ إليه في العُرف سواء كان مخلوقًا له تعالى أو لغيره عز وجل كما صرَّح به السعد في «المطول»، وكيف لا ولو كان كذلك لكان إسنادُ جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازًا، وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرها.

وقال المحقِّقُ ميرزاجان: يمكن توجيهُ ما في الآية الكريمة على أنه استعارةٌ مَكنيةٌ، أو على أن يُراد خلق الصُّلح وإيجاده، أو على أن يكون المَجازُ في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له فاستعملت في الإسناد إلى غيره، أو على أن يكون من قَبيل الاستعارة التمثيلية، والأوجه الأربعة جاريةٌ في كلِّ ما كان من قَبيل المجاز العقلي، ك: أنبتَ الربيعُ البقلَ، وقد صرَّح القومُ بالثلاثة الأُوَل منها، وزعم بعضٌ أن الصُّلح مما يُسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك، وفيه ما فيه.

ويجوز أن يكون ذلك إخبارًا عن جعل المشركين في الحديبية مَغلوبين خائفين طالبين للصُّلح، ويكون الفتحُ مجازًا عن ذلك وإسناده إليه تعالى حقيقة، وقد خَفِيَ

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٧.
(٢) المشفر: شفة البعير. القاموس (شفر).

كونُ ما كان في الحديبية فتحًا على بعض الصحابة حتى بيَّنه عليه الصلاة والسلام؛ أخرج البيهقي[١] عن عروة قال: أقبل رسولُ الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ: واللهِ ما هذا بفتحٍ، لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هَدْيُنا، وعكف رسولُ الله ﷺ بالحديبية، وردَّ رجلين من المسلمين خرجا؟! فبلغ رسولَ الله ﷺ ذلك فقال: «بئس الكلامُ هذا، بل هو أعظمُ الفتح، لقد رضي المشركون أنْ يدفعوكم بالراحِ عن بلادهم ويسألونكم القضية[٢] ويرغبون إليكم في الأمان، وقد كَرِهوا منكم ما كَرِهوا، وقد أظفركم اللهُ عليهم، وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظمُ الفتح، أنسيتم يومَ أُحد إذ تُصعِدون ولا تَلوون على أحدٍ، وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتُم يومَ الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغَتِ الأبصار وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظُّنون؟» قال المسلمون: صدقَ اللهُ ورسولُه هو أعظمُ الفتوح والله يا نبيَّ الله، ما فكَّرنا فيما ذكرتَ، ولأنتَ أعلمُ بالله وبالأمورِ منا.

وفائدة الخبر بالفتح على الوجهين بالنسبة إلى غيره عليه الصلاة والسلام، لأنه ﷺ يعلم ذلك، وكذا يعلم لازمَ الفائدة، كذا قيل.

وحمل الغير على مَنْ لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم، لأنَّ الحاضرين عَلِموا ذلك قبلَ النزول، وقيل: الحاضر إنما عَلِمَ وقوعَ الصُّلح أو كونَ المُشركين بحيث طلبوه ولم يعلم كونَه فتحًا كما يُشعر به الخبر، وإن سُلِّم أنه عَلِمَ ذلك، لكنه لم يعلم عظم شأنه على ما يُشعر به إسنادُه إلى نون العظمة والإخبار به بذلك الاعتبار.

وقال بعض المحقِّقين: لعلَّ المقصودَ بالإفادة كونُ ذلك للمغفرة وما عُطِفَ عليها، فيجوز أن تكون الفائدةُ بالنسبة إليه ﷺ أيضًا، وأقول: قد صرَّحوا بأنه كثيرًا ما تُورَدُ الجملة الخبرية لأغراض أُخَر سوى إفادة الحُكم أو لازمه نحو: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ﴿لَّا يَسْتَوِى

(١) في دلائل النبوة ٤/ ١٦١.

(٢) جاء في هامش الأصل: أي: الهدنة والصلح.

﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآية، إلى غير ذلك مما لا يُحصى، فيجوز أن يكونَ الغرضُ من إيرادِها هاهنا الامتنانَ دون إفادة الحُكم أو لازمِهِ، ولا مجازَ في ذلك ونحوه على ما أشار إليه العلامة عبد الحكيم السيالكوتي في حواشيه على «المُطوَّل».

وصرح في «الرسالة الجندية» بأن الهيئةَ التركيبية الخَبرية في نحو ذلك منقولةٌ إلى الإنشائية، وأنَّ المجازَ في الهيئة فقط لا في الأطراف ولا في المجموع، وهو مجازٌ مفردٌ عند صاحبِ الرسالة، والكلمة أعظمُ من اللفظ الحقيقي والحُكمي، وبعضهم يقول: هو مجازٌ مركَّب ولا ينحصر في التمثيلية، وتحقيقهُ في موضعه.

والتأكيدُ بـ «إنَّ» للاعتناء لا لردِّ الإنكار، وقيل: لأن الحُكم لعظم شأنه مَظِنَّةٌ للإنكار. وقيل: لأن بعضَ السامعين منكرٌ كون ما وقع فتحًا، ويقال في تكرير الحكم نحو ذلك.

وقال مجاهد: المراد بالفتح فتح خيبر، وهي مدينةٌ كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرُدٍ من المدينة إلى جهة الشام، وكان خروجُ النبيِّ ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق ورجَّحه الحافظ ابن حجر[1] ـ في بقية المحرَّم سنة سبع، وأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها.

ونُقل عن مالك، وجزمَ به ابنُ حزم أنه كان في آخر سنةِ ستٍّ، وجمع بأنَّ من أطلق سنة ستٍّ بناه على أنَّ ابتداءَ السنة من شهر الهجرة الحقيقيِّ، وهو شهرُ ربيع الأول، وقول الشيخ أبي حامد في «التعليقة»: إنَّ غزوةَ خيبر كانت سنةَ خمسٍ. وَهمٌ. وقول ابن سعد[2] وابن أبي شيبة[3] روايةً عن أبي سعيد الخُدري أنها كانت لثمانِ عشرةَ من رمضان. خطأٌ، ولعلَّ الأصلَ: كانت حنين، فَحُرِّف[4]، ومع هذا يحتاج إلى توجيهٍ، وقد فُتحت على أيدي أهل الحُديبية لم يَشْرَكهم أحدٌ من

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٦٤، وقول ابن إسحاق فيه، وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٣٨.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٦٣.
(٤) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ١٧ بلفظة: حنين.

المُتخلِّفين عنها، فالفتحُ على حقيقته، وإسناده إليه تعالى على حدِّ ما سمعت فيما تقدَّم، والتأكيدُ بـ «إنَّ» وتكرير الحُكم للاعتناء، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي مع أنه لم يكن واقعاً يومَ النزول ـ بناءً على ما رُوي عن المِسور بن مَخْرمة من أن السورة نزلت من أوَّلها إلى آخرها بين مكةَ والمدينة ـ من باب مجازِ المُشارفة نحو: مَنْ قتل قتيلاً، على المشهور، أو الأوْل[1] نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦]، ولا يضرُّ اختلافُهما في الفعلية والاسمية؛ وفيه وجهٌ آخرُ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وذهب جماعةٌ إلى أنه فتحُ مكة، وهو ـ كما في «زاد المعادِ»[2] ـ الفتحُ الأعظمُ الذي أعزَّ الله تعالى به دينَه، واستنقذ به بَلَدَه، وطهَّر حَرَمه، واستبشر به أهلُ السماء، وضُربت أطنابُ عِزِّه على مناكبِ الجوزاء، ودخل الناسُ بعدَه في دين الله عز وجل أفواجاً، وأشرق وجهُ الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ ـ وفي رواية: ونصف ـ وقد خرج رسولُ الله ﷺ ـ على ما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد ـ لليلتين خَلتا من شهر رمضان[3].

وفتح مكة لثلاثَ عشرةَ خَلَتْ منه على ما رُوي عن الزهري، ورُوي عن جماعة أنه كان الفتحُ في عشرٍ بَقيتْ من شهر رمضان، وقيل غيرُ ذلك، وكان معه ﷺ من المسلمين عشرةُ آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً، والجمع مُمكن، وكان الفتحُ عند الشافعي صُلحاً ـ وهي روايةٌ عن أحمد ـ للتأمين في ممرِّ[4] الظَّهران بـ «مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمنٌ، . . . ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ»[5]، ولعدمِ قسمة الدور بين الغانمين. وذهبَ الأكثرون إلى أنه عُنوة للتصريح بالأمر بالقِتال ووقوعه من خالدِ بن الوليد، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أحلَّتْ لي ساعة من نهار»[6].

---

(١) وهو من تسمية باسم ما يؤول إليه. ينظر أنواع المجاز اللغوي في الإتقان ٢/ ٧٥٨.

(٢) ٣/ ٣٩٤.

(٣) مسند أحمد (١١٨٢٥).

(٤) كذا في الأصل و(م). والذي في معجم البلدان (مرّ) والنهاية (مرر): مرُّ الظهران، ويقال: مرّ ظهران.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٠٢٢) عن ابن عباس ﵄، وسلف ٢/ ٤٠١.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٧٩)، والبخاري (١٣٤٩) من حديث ابن عباس ﵄.

ولا يُسمَّى ذلك التأمين صُلحاً إلا إذا التزم مَن أُشير إليه به الكفَّ عن القتال، والأخبارُ الصحيحة ظاهرةٌ في أن قريشاً لم يلتزموا، وتركُ القِسمة لا يستلزم عدمَ العُنوة، فقد تُفتح البلدةُ عُنوة ويُمَنُّ على أهلها وتُترك لهم دورُهم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتحِ خمسَ عشرةَ ليلة في رواية البخاري[(١)]، وسبعَ عشرةَ في رواية أبي داود[(٢)]، وثمانَ عشرةَ في رواية الترمذي[(٣)]، وتسعَ عشرةَ في رواية بعض[(٤)]، وتمامُ الكلامِ في كتب السِّير.

واستظهر هذا القولَ[(٥)] أبو حيان، وذكر أنه المناسبُ لآخر السورة التي قبلُ لمَّا قال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ﴾ الآية [محمد:٣٨] فبيَّن جلَّ وعلا أنه فتحَ لهم مَكَّةَ، وغَنِموا، وحصل لهم أضعافُ ما أنفقوا، ولو بَخِلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بُخْلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لمَّا قال سبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد:٣٥] بيَّن تعالى برهانه بفتح مكةَ، فإنهم كانوا هم الأعلين، وأيضاً لمَّا قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ [محمد:٣٥] كان ذلك في فتح مكة ظاهراً حيث لم يلحقهم وهنٌ ولا دعوا إلى الصُّلح، بل أتى صناديدُ قريش مستأمنين مُستسلمين[(٦)]. وهذا ظاهرٌ بالنسبة إلى القول بأنَّ المراد به فتحُ الحديبية، وأما على القول بأنَّ المرادَ به فتحُ خيبر فليس كذلك.

ورجَّح[(٧)] بعضُهم القولَ بأنه صُلح الحديبية على القول بأنه فتحُ مكة بأن وعدَ فتحِ مكةَ يجيء صريحاً في هذه السورة الكريمة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ

(١) هذه الرواية ليست عند البخاري، وإنما هي عند أبي داود (١٢٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سنن أبي داود (١٢٣٢) من حديث ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما.
(٣) هذه الرواية ليست عند الترمذي، وهي عند أبي داود (١٢٢٩) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.
(٤) أخرج هذه الرواية البخاري (٤٢٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) يعني: القول بأن المراد بالفتح فتح مكة.
(٦) البحر المحيط ٨/٨٩.
(٧) تصحفت في (م) إلى: ورجع.

ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٧] فلو حُمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً، بخلاف ما إذا حُمل على صُلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً، والتأسيسُ خيرٌ من التأكيد، ورجَّحه بعضٌ على القول بأنه فتحُ خيبر بمثل هذا، لأنَّ فتحَ خيبر مذكورٌ فيما بعدُ أيضاً، وللبحث في ذلك مجالٌ. و«إنَّ» والتكرير لما تقدَّم، وكذا الإسناد إلى ضمير العظمة، بل هذا الفتحُ أولى بالاعتناء وتعظيم الشأن، حتى قيل: إنَّ إسناده إليه تعالى لكونه من الأمور الغريبة العَجيبة التي يخلقها الله تعالى على يدِ أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المُشارِ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وهذا خلافُ الظاهر، والمشهورُ أنَّ في الكلام مجازاً عقليًّا، وفيه الاحتمالات السابقة.

وقال بعض المحقِّقين: يمكن أن يقال: لعلَّ الإرادة هاهنا معتبرةٌ إما على سبيل الحَذْف، أو على المجاز المُرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] عند أكثر الأئمة، ومثل هذا التأويل قيل: مُطَّردٌ في الأفعال الاختيارية، وزعم بعضُهم أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره. وذكر بعضُ الصدور في توجيه التأكيدِ بـ «إنَّ» هاهنا أنه قد يُجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قُدِّم إليه ما يلوِّح له بالخبر، وصرَّحوا بأن الملوِّحَ لا يلزم أن يكون كلاماً، وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المُفسِّرين وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه وأصحابَه ﷺ دخلوا مكةَ آمنين، فصار المقامُ مقامَ أن يتردَّد في الفتح، فأُلقي إليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكَّداً كما يُلقى إلى السائل كذلك.

وجُوِّز أن يكون لردِّ الإنكار بناءً على تحقُّقه من المشركين، فإنهم كانوا يزعُمون أنه ﷺ لا يستولي على مكةَ كما لم يستولِ عليها مَن أراد الاستيلاء عليها قبلَه عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وذكر بعضُ أجلَّة القائلين بأن المرادَ به فتحُ مكة أنَّ الكلامَ وعدٌ بفتحِها؛ فقيل: إنَّ الجملةَ حينئذ إخبار. وقيل: إنها إنشاءٌ، واستُشكل بما صرَّح به الرَّضي من أن الجمل الإنشائية مُنحصرةٌ بالاستقراء في الطلبيَّة والإيقاعيَّة، والوعدُ ليس شيئاً

منهما، أما الأول فظاهرٌ، وأما الثاني فلأن مجرَّد قولك: لأكرِمَنَّك، مثلاً، لا يقع به الإكرام.

وقال بعضُ الصدور: إن كلامهم مضطربٌ في كون الوعد إنشاءً أو إخباراً، ويمكن التوفيق بأن يقال: أصلُ الوعد إنشاءٌ لأنه إظهارُ أمرٍ في النفس يوجب سرورَ المخاطَب، وما يتعلَّق به الوعدُ وهو الموعود إخبارٌ، نظيره قول النحاة: «كأنَّ» لإنشاء التشبيه، مع أنَّ مدخولَها جملةٌ خبرية.

وقال الخفاجيُّ: هذا ناشئ من عدمِ فهم المُراد منه. فإن قيل: المرادُ من: لأُكرمنَّك مثلاً، إكرامٌ في المستقبل، فهو خبرٌ بلا مِرْية، وإن قيل: معناه العزمُ على إكرامه وتعجيل المَسَرَّة له بإعلامه فهو إنشاءٌ[1].

وأقول: لا يخفى أنَّ الإخبار أصلٌ للإنشاء، وقد صرَّح بذلك العلامة التفتازاني في «المطول»، وليست هيئة المركَّب دالَّة على أنه إنشاءٌ، وليس فيه ما يدلُّ بمادَّته على ذلك، فيمكن أن يقال: إنه إخبارٌ قُصِدَ به تعجيل المَسَرَّة، وأنَّ ذلك لا يُخرجه عن الإخبار، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] ونحوه، فتدبَّر.

والتعبير عن ذلك بالماضي لتحقُّقه، وفيه من تسليةِ قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غايةَ الحزن من تأخير الفتح ما فيه، وهذا التعبير من قَبيل الاستعارة التبعيَّة على ما حقَّقه السَّيِّد السند في حواشي «المطوَّل» حيث قال: اعلم أنَّ التعبيرَ عن المضارع بالماضي وعكسه يُعَدُّ من باب الاستعارة بأنْ يُشبَّه غير الحاصل بالحاصل في تحقُّق الوقوع، ويُشبَّه الماضي بالحاضر في كونه نصبَ العين واجبَ المُشاهدة، ثم يُستعار لفظ أحدِهما للآخر، فعلى هذا تكون استعارةُ الفعل على قسمين: أحدهما: أن يُشبَّه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه، ثم يشتقُّ منه قَتَل بمعنى: ضَرَبَ ضرباً شديداً. والثاني: أن يُشبَّه الضرب المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقُّق الوقوع، فيستعمل فيه ضرب، فيكون المعنى

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٥٣.

المصدري أعني الضرب موجوداً في كلٍّ واحد من المُشبَّه والمُشبَّه به، لكنه قُيِّد في كلٍّ منهما بقيد يُغاير الآخر، فصحَّ التشبيهُ لذلك.

وقال المحقِّق ميرزاجان: يمكن توجيهُ الاستعارة هاهنا بوجه آخر، وهو أن يشبَّه الزمان المستقبل بالزمان الماضي، ووجهُ الشَّبه أنه كما أن الثاني ظرفُ أمر محقَّق الوقوع كذلك الزمانُ الأول، واللفظُ الدالُّ على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالًّا على الزمان المستقبل مستعملاً فيه، ومن البين أن المصدرَ على حاله لم يتغيَّر معناه، فكانت الاستعارةُ في الصيغة والهيئة أولى لأنها الدالَّة على الزمان الماضي وبواسطتها كانت الاستعارةُ في الفعل كما كانت الاستعارةُ في الفعل بواسطة المصدر، والفرقُ أن هذه الاستعارةَ في الفعل بواسطة جوهره ومادَّته، وفيما نحن فيه بواسطة صورته، لا يقال: الدالُّ على الزمان هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه، لأنا نقول: يجزي هذا الاحتمالُ في الاستعارة التبعية المشهورة بأن يقال: الدالُّ على المعنى الحدثي هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه؛ لأن المصدر بصيغته غيرُ متحقِّق في المشتق، فإنَّ الضربَ غيرُ موجود في ضارب وضرب.

فإن قلت: المصدرُ لفظٌ مستقلٌّ يمكن التعبيرُ به عن معناه بخلاف الهيئة. قلت: لفظُ الزمان الماضي أيضاً كذلك، فلا فرقَ، ولو سُلِّم نقول في كلٍّ منهما: نستعيرُ المعنى المطابقي للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمُّني له، ولا يبعدُ أن يُسمَّى مثل هذا استعارةً تبعيَّة، والأمر في التسمية هيِّن لا اعتدادَ بشأنه، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارةَ في مثل ذلك بواسطة المصدر، واعتبروا التغايرَ الاعتباري، ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفسِ الزمان بالزمان حتى تصيرَ الاستعارةُ في الفعل تبعيَّةً بلا تكلُّف رعاية لطي النَّشر بقدرِ الإمكان، وأيضاً في كون الصيغة والهيئة جُزْءاً للَفظ تأمُّل، وأيضاً الهيئة ليست جُزْءاً مستقلًّا كالمصدر، وأيضاً الهيئة ليست لفظاً، والاستعارة قسم للَّفظ، ولعلَّ القومَ لهذه كلِّها أو بعضها لم يلتفتوا إليه. انتهى، وفيه بحث.

وللفاضل مير صدر الدين رسالة في هذه الآية الكريمة تعرَّض فيها للمحقّق في

هذا المقام، وتعقَّبها الفاضل يوسف القرباغي[1] برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدَّل، وذكرَ عِدَّة احتمالات في الاستعارة التبعيَّة، ومال إلى أن الهيئة لفظٌ، مُحتجًّا بما نقله من شرح المختصر العضدي ومن شرح الشرح للعلامة التفتازاني، وأيَّده بنقول أُخر، فليراجع ذلك، فإنه وإن كان في بعضه نظرٌ لا يخلو عن فائدة.

والذي يترجَّح عندي أن الهيئة ليست بلفظ لكنها في حكمه، وأنه قد يتصرَّف فيها بالتجوّز كما في الخبر إذا استُعمل في الإنشاء، وأن المجازَ المُرسل يكون تبعيًّا بناءً على ما ذكروه في وجه التبعيَّة في الاستعارة. وقول الصدر في الفرق: إنَّ العلاقةَ في الاستعارة ملحوظة حين الإطلاق، فإنهم صرَّحوا بأنَّ اسمَ المُشبَّه به لا يُطلق على المُشبَّه إلا بعد دخوله في جنس المُشبَّه به، بخلاف المُرسَل فإن العلاقة باعثةٌ للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال، فلا ضرورةَ في القول بالتبعيَّة فيه = إنْ تمَّ لا يُجدي نفعاً، فافهم.

وزعم بعضُهم أن التعبيرَ بالماضي هاهنا على حقيقته بناءً على أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره وتسهيله، وهو مما لا يتوقَّف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلاً بالنسبة إلى زمن النزول مثله، ألا ترى أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربَّه تعالى بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٢٦] أنْ يُسهل أمرَه، وهو خلافتُه في أرضه وما يصحبها، وأُجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦] ولم يُباشر بعد شيئاً، وحملُه على الوعد بإيتاء السؤال خلافُ الظاهر. وأنت تعلم أنَّ ما ذهب إليه الجمهور أظهرُ وأبلغُ.

وفي مَجيء المستقبل بصيغة الماضي لتنزيله منزلةَ المُحقَّق من الفخامة والدلالة على علوِّ شأن المُخبر ما لا يخفى كما في «الكشاف»[2]. وذلك ـ على ما قيل ـ لأنه يدلُّ على أنَّ الأزمنة كلَّها عنده تعالى على السواء، وأنَّ مُنتظَرَه كمحقَّق غيره،

(١) هو يوسف بن محمد خان القَرَباغي أو: القره باغي، نسبة لقرباغ أو: قَره باغ، من علماء الكلام، له حاشية على شرح العقائد العضدية، ورسالة في الكلام، وغيرهما. توفي في نيف وثلاثين وألف. خلاصة الأثر ٤/ ٥١٠، والأعلام ٨/ ٢٥٢.

(٢) ٣/ ٥٤٠.

وأنه سبحانه إذا أراد أمراً تحقَّق لا محالة، وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابِهِ القريبة والبعيدة، وقيل غير ذلك.

واستشكل أمر المُضي في كلامه تعالى بناءً على ثبوت الكلام النفسي الأزلي للزوم الكذب، لأنَّ صدقَ الكلام يستدعي سبق وقوع النسبة، ولا يتصوَّر السبقُ على الأزل. وأُجيب بأنَّ كلامَه تعالى النفسي الأزلي لا يتصف بالماضي وغيره لعدم الزمان. وتُعقِّب بأنَّ تحقُّقَ هذا مع القول بأنَّ الأزليَّ مدلولُ اللفظي عسيرٌ جدًّا، وكذا القولُ بأنَّ المتَّصف بالمُضي وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم. وأجاب بعضُهم بأن العُسْر لو كان دلالةُ اللفظي عليه دلالةَ الموضوع على الموضوع له، وليس كذلك عندهم، بل هي دلالةُ الأثر على المُؤثِّر، ولا يلزم من اعتبار شيء في الأثر اعتباره في المُؤثِّر. ولا يخفى أن كونَ الدلالة دلالة الأثر على المُؤثِّر خلافُ الظاهر.

وقال ابن الصدر في ذلك: إنَّ اشتمالَ الكلام اللفظي على المُضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المُخاطَب لا إلى زمان المُتكلِّم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه: إني أرسلت إليك زيداً، مع أنه حينما تكتبه لم يتحقَّق الإرسال، فتلاحظ حال المُخاطَب، وكما تُقدِّر في نفسك مخاطباً وتقول: لِمَ تفعل الآن كذا، وكان قبلَ ذلك كذا، ولا شكَّ أن هذا المُضي والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المُقدَّر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المُتكلِّم بالكلام النفسي لكونه متوجِّهاً لمخاطَبٍ مُقَدَّر لا يُلاحظ فيه إلا أزمنة المخاطبين المقدَّرين، وما اعتبره أئمَّة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضي والحضور والاستقبال في الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلُّم قريبٌ منه جدًّا. انتهى.

وللمحقِّق ميرزاجان كلامٌ في هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدي.

وقيل: المراد بالفتح فتحُ الروم على إضافة المصدر إلى الفاعل، فإنهم غلبوا على الفرس في عام النزول، وكونه فتحاً له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن

الغَيب فتحقَّق ما أخبر به في ذلك العام، ولأنه تفاؤل لِغَلبة أهل الكتاب المؤمنين، وفي ذلك من ظهور أمره ﷺ ما هو بمنزلة الفتح. قيل: ففي الفتح استعارةٌ لتشبيه ظهوره ﷺ بالفتح. وقيل: لا تجوُّزَ فيه، وإنما التجوُّز في تعلُّقه به عليه الصلاة والسلام، وقيل: لا تجوُّز أصلاً، والمعنى: فتحنا على الروم لأجلك. وأنت تعلم أنَّ حمل الفتح على ما ذكره في نفسه بعيدٌ جدًّا.

وأُورد عليه أن فتحَ الروم لم يكن مُسبَّباً على الجهاد ونحوه فلا يصحُّ ما ذكروه في توجيه التعليل الآتي.

وعن قتادة أنَّ «فَتَحنا» من الفُتاحة ـ بالضَّمِّ ـ وهي الحكومة، أي: إنا قضينا لك على أهل مكة أن تَدخُلَها أنت وأَصحابُك مِن قابل لتطوفوا بالبيت، وهو بعيدٌ أيضاً.

وقيل: المرادُ به فتحُ الله تعالى له ﷺ بالإسلام والنبوَّة والدعوة بالحُجَّة والسيف؛ وقريبٌ منه ما نقله الراغب من أنه فَتْحُه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التي هي ذريعةٌ إلى الثواب والمقامات المحمودة[1]. وأمره في البعد كما سبق. وأيًّا ما كان فحذف المفعول للقَصْد إلى نفس الفعل والإيذان بأنَّ مَناطَ التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح.

وتقديم «لك» على المفعول المُطلق أعني قوله تعالى: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ مع أنَّ الأصلَ تقديمه على سائرِ المفاعيل كما صرَّح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام، وقيل: لأنه مدار الفائدة، و«مبين» من أبان بمعنى بان اللازم، أي: فتحاً بيِّناً ظاهرَ الأمر مكشوفَ الحال، أو فارقاً بين الحقِّ والباطل.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ مذهبُ الأشاعرة القائلين بأن أفعالَه تعالى لا تُعلَّل بالأغراض أنَّ مثلَ هذه اللام للعاقبة، أو لتشبيه مدخولها بالعلَّة الغائيَّة في ترتُّبه على متعلّقها وترتُّب المغفرة على الفتح من حيث إن فيه سعياً منه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فتح).

بمكابدة مشاقِّ الحروب واقتحامِ موارد الخُطوب؛ والسلف ـ كما قال ابن القَيِّم وغيره ـ يقولون بتعليل أفعالِه عز وجل. وفي «شرح المقاصد»[١] للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلَّتهم ـ أي: الأشاعرة ـ ومن وافقهم على هذا المطلب يُفهم أنهم أرادوا عُمومَ السَّلب، ومن بعضها أنهم أرادوا سَلب العُموم، ثم قال: الحقُّ أنَّ بعضَ أفعاله تعالى مُعَلَّل بالحكم والمصالح، وذلك ظاهرٌ والنصوص شاهدةٌ به، وأما تعميمُ ذلك بأنه لا يخلو فعلٌ من أفعاله سبحانه من غرض فمحلُّ بحث.

وذكر الأصفهاني في «شرح الطوالع» في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء، وأنا أقول بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث، والتزامُ تأويل جميعها خروجٌ عن الإنصاف، وما يذكره الحاظرون[٢] من الأدلة يُدفَع بأدنى تأمُّل كما لا يخفى على من طالع كتب السَّلفيين عليهم الرحمة.

وفي «الكشاف»[٣]: لم يجعل الفتح عِلَّةً للمغفرة لكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة؛ وهي المغفرةُ وإتمامُ النعمة وهدايةُ الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسَّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوِّك لنجمع لك بين عزِّ الدارين وأغراض العاجل والآجل.

وحاصله كما قال العلامة: إنَّ الفتح لم يجعل عِلَّةً لكلٍّ من المتعاطفات بعد اللام، أعني: المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر، بل لاجتماعها، ويكفي في ذلك أن يكونَ له دخلٌ في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز، وتحقيقه كما قال: إن العطفَ على المجرور باللام قد يكون للاشتراك في متعلّق اللام مثل: جئتك لأفوزَ بِلُقياك وأحوزَ عطاياك، ويكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جارٍّ ومجرور على جارٍّ ومجرور، وقد يكون للاشتراك في معنى اللام كـ : جئتك لتستقرَّ في مقامك وتُفيضَ عليَّ من إنعامك، أي: لاجتماع الأمرين، ويكون من قَبيل:

(١) ٤/ ٣٠١.
(٢) في (م): الحاضرون.
(٣) ٣/ ٥٤١.

جاءني غلامُ زيد وعمرو، أي: الغلام الذي لهما. واستظهر ـ دفعاً لتوهُّم أنه إذا كان المقصودُ البعضَ فَذِكْرُ الباقي لغوٌ ـ أن يقال: لا يخلو كلٌّ منهما أن يكونَ مقصوداً بالذات، وهو ظاهرٌ. أو المقصودُ البعض، وحينئذ فذكر غيره إما لتوقُّفه عليه أو لشدَّة ارتباطه به أو ترتُّبه عليه، فَيُذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقولك: أعددتُ الخشب ليميلَ الحائطُ فأدعمه، و: لازمتُ غريمي لأستوفيَ حَقِّي وأُخلِّيه.

وظاهرُ كلام الزمخشري أن المقصودَ فيما نحن فيه تعليلُ الهيئة الاجتماعية فحسب، فتأمَّل لتعرفَ أنه من أيِّ الأقسام هو.

واعلمْ أنَّ المشهورَ كونُ العِلَّة ما دخلته اللام لا ما تعلَّقت به كما هو ظاهرُ عبارة «الكشاف»، لكن حُقِّق أنها إذا دخلت على الغايةِ صحَّ أن يُقال: إنَّ ما بعدَها عِلَّة، ويُراد بحسب التعقُّل، وأن يقال: ما تعلَّقت به عِلَّة، ويُراد بحسب الوجود، فلا تغفُل.

وزعم صاحبُ «الغنيان» أن اللام هاهنا هي لامُ القسم وكُسِرتْ وحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام «كي».

ورُدَّ بأنَّ لامَ القَسَم لا تُكسر ولا ينصب بها، فإنه لم يُسمع: والله لِيقوم زيدٌ، على معنى: لَيقومنَّ زيدٌ. وانْتُصِرَ له بأن الكسرَ قد عُلِّل بتشبيهها بلام «كي»، وأما النصب فله أن يقول فيه: بأنه ليس نصباً، وإنما هو الحركةُ التي تكون مع وجودِ النون بقيت بعدَ حذفِها دلالةً على الحذف. وأنت تعلم أنه لا يُجدي نفعاً مع عدم السَّماع.

هذا، والالتفاتُ إلى اسم الذات المُستتبع لجميع الصفات قيل: للإشعار بأن كلَّ واحدٍ مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادرٌ عنه عز وجل من حيثيَّة غيرِ حيثيَّة الآخر مُترتِّبة على صفة من صفاته جلَّ شأنه.

وقال الصدرُ: لا يبعدُ أن يقال: إنَّ التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليلِ المُشعِرِ بصفات الجمال والجلال يُشعر بسبق مَغْفرته تعالى على عذابِه.

وفي «البحر»[(١)] : لما كان الغفران وما بعدَه يشترك في إطلاقه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] وقوله: عز وجل: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات:١٧٢] وكان الفتحُ مختصًا بالرسول ﷺ، أسنده الله تعالى إلى نونِ العظمة تفخيماً لشأنه، وأسندَ تلك الأشياء إلى الاسمِ الظاهر وضميره. وهو كما ترى، وإن قاله الإمام[(٢)] أيضاً.

وأقول: يمكن أنْ يكونَ في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعدَ إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماءٌ إلى أنَّ المغفرةَ مما يتولَّاها سبحانه بذاته، وأنَّ الفتحَ مما يتولَّاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرَّح بعضُهم بأنَّ عادةَ العُظَماء أنْ يُعبِّروا عن أنفسهم بصيغة المُتكلِّم مع الغير، لأنَّ ما يصدرُ عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم، ولا يُعترض بأنَّ النصرَ كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل؛ لِمَا لا يخفى عليك.

وتقديم «لك» على المفعول الصريح أعني قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة، و«ما» للعموم، والمتقدِّم والمتأخِّر للإحاطة كنايةً عن الكلِّ، والمرادُ بالذنب ما فَرَطَ من خِلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قَبيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين. وقد يقال: المرادُ ما هو ذنبٌ في نظره العالي ﷺ، وإن لم يكن ذنباً ولا خلافَ الأولى عنده تعالى، كما يرمزُ إلى ذلك الإضافة.

وقال الصدر: يُمكن أن يكون قوله تعالى: «ليغفر» إلخ، كنايةٌ عن عدم المُؤاخذة، أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقُّق معاني المفردات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٠.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩-٨٠.

وأخرج ابن المنذر عن عامر وأبي جعفر أنهما قالا: ما تقدَّم في الجاهلية وما تأخَّر في الإسلام[١].

وقيل: ما تقدَّم من حديث مارية[٢]، وما تأخَّر من امرأة زيد. وليس بشيء، مع أنَّ العكسَ أولى؛ لأن حديثَ امرأة زيد مُتقدِّم.

وفي الآية مع ما عُهِدَ من حاله ﷺ مِن كَثْرة العبادة ما يدلُّ على شرفِ مقامه إلى حيث لا تُحيط به عبارة، وقد صحَّ أنه ﷺ لما نزلَتْ صام وصلَّى حتى انتفخَتْ قدماه، وتعبَّد حتى صار كالشنِّ[٣] البالي، فقيل له: أتفعل هذا بنفسك، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٤].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وانتشاره في البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه ﷺ من النِّعم الدينية والدنيوية.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ في تبليغِ الرسالة وإقامة الحدود، قيل: إنَّ أصلَ الاستقامة وإن كان حاصلاً قبلَ الفتح لكن حَصَلَ بعد ذلك من اتِّضاح سُبل الحقِّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل مع النصر، قيل: لكونه خاتمةَ العلل أو الغايات، ولإظهار كمال العِناية بشأنه كما يُعرب عنه إردافه بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٠.

(٢) ينظر ما سيأتي في أول سورة التحريم.

(٣) الشِّنان: الأسقية الخلقة، واحدها: شَنّ وشَنَّة. النهاية (شنن).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب (١٤٩٦) من حديث أبي سلمة ﷺ، وفي إسناده: نصر بن حريش أبو القاسم الصامت والمُشمعلّ بن مِلْحان، وهما ضعيفان كما في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢ و٢٨٦. وأخرجه أحمد (١٨١٩٨)، والبخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وأحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة ﵂، ولفظه: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وليس فيه أن ذلك كان عند نزول هذه السورة.

عَزِيزًا ﴿٣﴾ وقال الصدر: أظهرَ الاسمَ الجليل في الصدر وهنا لأنَّ المغفرةَ تتعلَّق بالآخرة والنصرَ يتعلَّق بالدنيا، فكأنه أُشير بإسناده المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أنَّ الله عز وجل هو الذي يتولَّى أمرك في الدنيا والآخرة.

وقال الإمام[1]: أُظهرت الجلالةُ هنا إشارةً إلى أنَّ النصرَ لا يكون إلا من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وذلك لأنَّ النصرَ بالصبر، والصبر بالله قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] لأنه سكونُ القلب واطمئنانه، وذلك بذِكْر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والعزيز بحسب الظاهر هو المنصورُ، وحيث وُصِفَ به النصر فهو إما للنسبة، وإن كان المعروف فيها فاعلاً كلابِن، وفعَّالاً كبزَّاز، أي: نصراً فيه عزٌّ ومَنَعةٌ، أو فيه تجوُّز في الإسناد من باب وَصْف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصورُ هنا، نحو: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] في قول، لا الفاعل ـ وهو الناصر ـ لما قيل من عدم مُناسبته للمقام وقلة فائدته، إذ الكلام في شأن المُخاطَب المنصور، لا المُتكلِّم الناصر، وفيه شيء. وقيل: الكلامُ بتقدير مضاف، أي: عزيز صاحبُه، وهو المنصورُ، وفيه تكلُّف الحذفِ والإيصال.

وقد يقال: لا يحتاج إلى شيء مما ذُكر، إذْ لا مانع من وَصْف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر بناءً على أحدِ معاني العِزَّة، وهو قلَّةُ الوجود وصعوبة المَنال، والمعنى: ينصرك اللهُ نصراً يَقِلُّ وجودُ مثله ويصعبُ منالُه، وقد قال الراغب[2] بهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] ورأيتُ ذلك للصَّدر بعد أنْ كتبته من الصَّدر، فتأمَّل ولا تكن ذا عَجْز.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ لما أفاض سبحانه عليهم من مَبادي الفتح، والمرادُ بالسَّكينة الطُّمأنينة والثَّبات، من السكون، أي: أنزلها في

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩.
(٢) المفردات (عزز).

قلوبهم بسبب الصُّلح والأمن إظهاراً لِفَضْله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمرادُ بإنزالها خَلْقها وإيجادها، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماءٌ إلى عُلُوِّ شأنها. وقال الراغب[١]: إنزالُ الله تعالى نعمتَه على عبدٍ إعطاؤه تعالى إيَّاها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه.

وقيل: «أنزل» مِنْ نزلَ في مكان كذا: حطَّ رَحْلَه فيه، وأنزله غيرُه، فالمعنى: حَطَّ السكينةَ في قلوبهم، فكان قلوبهم منزلاً لها ومأوى.

وقيل: السكينة مَلَكٌ يسكنُ قلبَ المؤمن ويُؤمنه، كما رُوي أنَّ عليًّا رضي الله عنه وكرم وجهه قال: إنَّ السكينة لَتنطِقُ على لسان عمر. وأمرُ الإنزال عليه ظاهرٌ جدًّا.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: السكينةُ هي الرحمةُ[٢]. وقيل: هي العقل، ويقال له: سكينة إذا سكنَ عن المَيْل إلى الشهواتِ وعن الرُّعب. وقيل: هي الوَقار والعَظَمة لله تعالى ولرسوله ﷺ. وقيل: هي مِنْ سَكَن إلى كذا: مالَ إليه، أي: أنزل في قلوبهم السُّكون والمَيْل إلى ما جاء به الرسولُ ﷺ من الشرائع.

وأرجحُ التفاسير هنا ـ على ما قال الخفاجي[٣] ـ الأول، وما ذكره بعضُهم من أن السكينةَ شيء له رأس كرأس الهِرَّة، فما أراه قولاً يصحُّ.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم بِرُسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها، على أن الإيمان لمَّا ثبتَ في الأزمنة نزِّلَ تجدُّد أزمانه مَنزلةَ تجدُّده وازدياده فاستُعير له ذلك ورشِّحَ بكلمة «مع». وقيل: ازدياد الإيمان بازدياد ما يُؤمن به، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ أولَ ما أتاهم به النبيُّ ﷺ التوحيدُ، ثم الصلاة

---

(١) المفردات (نزل).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٤٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٨.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٥٧.

والزكاة، ثم الحجُّ والجهاد، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم. ومن قال: الأعمالُ من الإيمان، قال بأنه نفسُه ـ أي: الإيمان المركَّب من ذلك وغيره ـ يزيدُ وينقص، ولم يَحتجْ في الآية إلى تأويل، بل جعلها دليلاً له. وتفصيلُ الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهورُ الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمُحدِّثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيدُ وينقصُ، ونُقِلَ ذلك عن الشافعي ومالك، وقال البخاري: لقيتُ أكثرَ من ألفِ رجلٍ من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ويزيدُ وينقصُ[1]. واحتجُّوا على ذلك بالعقل والنقل: أما الأول: فلأنه لو لم تتفاوَتْ حقيقةُ الإيمانِ لكان إيمانُ آحادِ الأمَّة المُنهمكين في الفِسق والمعاصي مُساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً، واللازم باطلٌ فكذا المَلْزوم. وأما الثاني: فلِكَثْرة النصوص في هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما: قلنا: يا رسولَ الله، إنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ؟ قال: «نعم، يزيدُ حتى يُدخِلَ صاحبَه الجنَّة، وينقصُ حتى يُدخِلَ صاحبُه النار»[2] ومنها ما رُوي عن عمر وجابر رضي الله عنهما مرفوعاً: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لَرَجَحَ به»[3].

واعتُرض بأنَّ عدمَ قبول الإيمان الزيادةَ والنَّقصَ على تقدير كونِ الطاعات داخلةً في مُسمَّاه أولى وأحقُّ من عدمِ قَبوله ذلك إذا كان مُسمَّاه التصديق وحدَه: أمَّا أولاً: فلأنه لا مرتبةَ فوق كلِّ الأعمال لتكون زيادة، ولا إيمان دونه ليكون نقصاً. وأما ثانياً: فلأنَّ أحداً لا يستكملُ الإيمانَ حينئذ، والزيادة على ما لم يكمل بَعْدُ مُحال.

وأُجيب بأنَّ هذا إنما يتوجَّه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعةُ إنما يقولون: إنها شرطُ كمالٍ في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال، وهو غيرُ قادح في أصل الإيمان.

---

(١) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ١/ ٤٧. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨١، وعزاه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٣٤ للثعلبي. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب ١/ ٦٩ موقوفاً على عمر رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٣٤: أخرجه إسحاق بن راهويه عن عمر وإسناده صحيح. ولم نقف عليه من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال النووي وجماعة مُحققون من علماء الكلام: إنَّ الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقصُ أيضاً بِكَثْرة النظر ووضوح الأدلَّة وعدمِ ذلك، ولهذا كان إيمان الصِّدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشُّبه، ويُؤيِّده أنَّ كلَّ واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكونَ في بعض الأحيان أعظمَ يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظُهور البراهين وكَثْرتها(١).

واعتُرض بأنه متى قبل ذلك كان شكًّا.

ودُفع بأن مراتبَ اليقين متفاوتةٌ إلى علم اليقين وحقِّ اليقين وعين اليقين مع أنها لا شكَّ معها، وممن وافقَ النوويَّ على ما جزم به السعدُ في القسم الثاني من «تهذيبه».

وقال جماعةٌ من العلماء أعظمهم الإمامُ أبو حنيفة وتَبِعَه أصحابُه وكثيرٌ من المُتكلِّمين: الإيمان لا يزيُد ولا ينقصُ، واختاره إمام الحرمين، واحتجُّوا بأنه اسمٌ للتصديق البالغ حدَّ الجزم والإذعان، وهذا لا يُتصوَّر فيه زيادةٌ ولا نقصان، فالمُصدِّق إذا ضمَّ إليه الطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقُه بحاله لم يتغير أصلاً، وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلَّةً وكثرةً.

وأجابوا عمَّا تمسَّك به الأولون بوجوه: منها ما أشرنا إليه أولاً من أنَّ الزيادة بحسب الدوام والثَّبات وكَثْرة الزمان والأوقات، وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين: النبيُّ ﷺ يفضلُ مَنْ عداه باستمرار تصديقه وعِصْمة الله تعالى إيَّاه من مُخامرة الشُّكوك، والتصديقُ عَرَضٌ لا يبقى بشخصه بل بتجدُّد أمثاله، فتقع للنبيِّ عليه الصلاة والسلام متواليةً ولغيره على الفترات، فيثبت(٢) للنبيِّ ﷺ أعدادٌ من الإيمان لا يثبتُ لغيره إلا بعضها، فيكون إيمانه ﷺ أكثرَ. والزيادةُ بهذا المعنى قيل: مما لا نزاعَ فيها.

واعتُرض بأنَّ حصولَ المثل بعد انعدامِ الشيء لا يكون زيادة فيه كسوادِ الجسم، ودُفع بأنَّ المُرادَ زيادةُ أعدادٍ حصلَتْ، وعدمُ البقاء لا يُنافي ذلك.

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ١/٤٦، وسلف بعضه ١٠/٢١.
(٢) في الأصل و(م): فثبتت، والمثبت من الإرشاد ص٣٣٦، ومما سلف ١٠/٢١.

ومنها ما أشرنا إليه ثانياً من أنَّ المراد الزيادة بحسب زيادة ما يُؤمن به، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولاً بما آمنوا به وكانت الشريعةُ لم تتمَّ، وكانت الأحكام تنزلُ شيئاً فشيئاً، فكانوا يؤمنون بكلٍّ ما يتجدَّد منها ولا شكَّ في تفاوت إيمان الناسِ بملاحظة التفاصيل كَثْرةً وقِلَّة، ولا يختصُّ ذلك بعصره ﷺ؛ لإمكان الاطِّلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً.

ومنها أن المرادَ زيادةُ ثمرته وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نورَ الإيمان يزيدُ بالطاعات وينقص بالمعاصي، قيل: وهذا إنما يحتاج إليه بعد إقامةِ قاطع على امتناع قَبول التصديق الزيادةَ والنقصَ، ومتى لم يَقُمْ قاطعٌ على ذلك كان الأولى إبقاءُ الظواهر على حالها.

وقال الخطابي: الإيمان قولٌ وهو لا يزيدُ ولا ينقص، وعملٌ وهو يزيدُ وينقصُ، واعتقادٌ وهو يزيدُ ولا ينقصُ، فإذا نقصَ ذهب. واعتُرض أنه إذا زاد ثم عاد إلى ما كان فقد نقص ولم يذهَبْ. ودُفع بأنَّ مراده أنَّ الاعتقاد باعتبار أول مَراتبه يزيدُ ولا ينقص لا أنَّ الاعتقادَ مطلقاً كذلك.

وذهب جماعةٌ منهم الإمام الرازي وإمام الحرمين [في قول] إلى أنَّ الخلافَ لفظيٌّ، وذلك بحمل قول النفي على أصل الإيمان، وهو التصديق، فلا يزيدُ ولا ينقص، وحملِ قول الإثبات على ما به كمالُه، وهو الأعمال، فيكون الخلافُ في هذه المسألة فرعَ الخلاف في تفسير الإيمان(١). والحقُّ أنه حقيقيٌّ لما سمعتَ عن الإمام النووي ومن معه من أنَّ التصديق نفسَه يزيدُ وينقص.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ الزيادة والنقص من خواصِّ الكَمِّ، والتصديق قِسْم من العلم، ولم يقلْ أحدٌ بأنه من مَقولة الكَمِّ، وإنما قيل: هو كيف، أو انفعالٌ، أو إضافة وتعلُّق بين العالم والمعلوم، أو صفة ذات إضافة؛ والأشهر أنه كيف، فمتى صحَّ ذلك وقلنا بمغايرة الشِّدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأسَ بحملها في النصوص وغيرها على الشِّدة والضعف، وذلك مجازٌ مشهور، وإنكار اتصاف الإيمان بهما يكادُ يلحقُ بالمُكابرة، فتأمَّل.

---

(١) سلف بنحوه ١٠/ ٢٤، وما بين حاصرتين منه.

وذكر بعضُهم هنا أن الإيمان الذي هو مدخولُ «مع» هو الإيمان الفِطْري، والإيمان المذكور قبلَه الإيمان الاستدلالي، فكأنه قيل: ليزدادوا إيماناً استدلاليًّا مع إيمانهم الفِطْري، وفيه من الخَفَاء ما فيه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدَبِّر أمرَها كيفما يُريد فيُسلِّط بعضها على بعض تارة، ويُوقِع سبحانه بينها السِّلم أُخرى، حسبما تقتضيه مشيئته المَبْنية على الحِكَم والمصالح، ومن قضيَّة ذلك ما وقع في الحديبية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ في تقديره وتدبيره عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلِّق بما يدلُّ عليه ما ذُكر من كون جنودِ السماوات والأرض له جل شأنه من معنى التصرُّف والتدبير، وقد صرَّح بعضُ الأفاضل بأنه كنايةٌ عنه. أي: دبَّر سبحانه ما دبَّر من تسليط المؤمنين لِيعرفوا نعمةَ الله تعالى في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنةَ، فالعلَّة في الحقيقة معرفةُ النِّعمة وشُكرها لكنها لما كانت سبباً لدخول الجنة أُقيم المُسبَّب مُقامَ السبب.

وقيل: متعلِّق بـ«فتحنا». وقيل: بـ«أنزل»، وتعلُّقه بذلك مع تعلُّق اللام الأُخرى به مبنيٌّ على تعلُّق الأول به مطلقاً والثاني مقيَّداً وتنزيلُ تغاير الوصفين منزلةَ تغاير الذاتين، وإلا فلا يتعلَّق بعامل واحد حرفا جرٍّ بمعنى واحد من غير اتباع. وقيل: متعلِّق بـ«ينصرك». وقيل: بـ«يزداد». وقيل: بجميع ما ذُكر؛ إما على التنازع والتقدير، أو بتقدير ما يشملُ ذلك كـ: فَعَل سبحانه ما ذكر لِيُدخِلَ.. إلخ. وقيل: هو بدل من ليزداد بدل اشتمال، فإن إدخالَ المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عُطف عليه مستلزمٌ لزيادة الإيمان، وبدل الاشتمال يعتمد على مُلابسةٍ مّا بين المُبدل والمُبدل منه بحيث يشعر أحدُهما بالآخر غيرِ الكلية والبعضية. ولعلَّ الأظهرَ الوجهُ الأول.

وضمُّ المؤمنات هاهنا إلى المؤمنين دفعاً لتوهُّم اختصاص الحُكم بالذكور لأجل الجهادِ والفَتْح على أيديهم، وكذا في كلِّ موضع يُوهم الاختصاص يصرِّحُ بذِكْر النساء، ويقال نحو ذلك فيما بعدُ، كذا قيل.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال: أنزلت على النبيِّ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ في مَرْجِعِهِ من الحُديبية، فقال: لقد أُنزلَتْ عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن الله تعالى لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا فنزلَتْ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغَطِّيها ولا يُظهرها، والمراد: يمحوها سبحانه ولا يُؤاخذهم بها، وتقديمُ الإدخال في الذِّكر على التكفير مع أن الترتيبَ في الوجود على العكس؛ لِلمُسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأَعْلى، كذا قال غير واحد. ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى: يدخلهم الجنة ويُغطِّي سيئاتهم ويسترها عنهم، فلا تمرُّ لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لئلا يخجلوا فيتكدَّر صفوُ عَيْشهم، وقد مرَّ مثلُ ذلك.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ لا يُقادَر قَدْره لأنه مُنتهى ما تمتد إليه أعناقُ الهمم من جَلْب نفعٍ ودَفْع ضُرٍّ، و«عند الله» حال مِنْ «فوزاً» لأنَّ صفةَ النكرة إذا قُدِّمت عليها أُعرِبَتْ حالاً. وكونه يجوزُ فيه الحالية إذا تأخَّر عن «عظيماً» لا ضيرَ فيه كما تُوُهِّم، أي: كائناً عند الله تعالى، أي: في عِلْمه سبحانه وقضائه جل شأنه، والجملةُ اعتراضٌ مُقرِّر لما قبلَه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عطف على «يدخل» أي: ولِيُعذِّب المنافقين.. إلخ لغيظهم من ذلك، وهو ظاهرٌ على جميع الأوجه السابقة في «لِيُدخِلَ» حتى وجه البدليَّة، فإنَّ بدلَ الاشتمال تُصحِّحه المُلابسة كما مرَّ، وازدياد الإيمان على ما ذكرنا في تفسيره مما يُغيظهم بلا ريب، وقيل: إنه على هذا الوجه يكون عطفاً على المُبدَل منه. وتقديمُ المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضرراً على المسلمين، فكأنَّ في تقديم تعذيبهم تعجيل المَسَرَّة.

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٤٠، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦)، ومسلم (١٧٨٦).

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنّ الأمر الفاسد المذموم، وهو أنه عز وجل لا ينصرُ رسولَه ﷺ والمؤمنين، وقيل: المرادُ به ما يعمُّ ذلك وسائر ظُنونهم الفاسدة من الشِّرك أو غيره.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنين فهو حائقٌ بهم ودائرٌ عليهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دائرة السُّوء» بالضَّمّ[1]؛ والفرقُ بينه وبين «السَّوْء» بالفَتْح على ما في «الصحاح»[2]: أن المفتوحَ مصدرٌ والمضمومَ اسمُ مصدر بمعنى المساءة.

وقال غير واحد: هما لغتان بمعنًى كالكُرْه والكَرْه عند الكسائي، وكلاهما في الأصل مصدرٌ، غير أنَّ المفتوحَ غُلِّب في أن يُضافَ إليه ما يُراد ذَمُّه، والمضموم جرى مجرى الشرِّ، ولما كانت الدائرةُ هنا محمودةً وأُضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر، تعيَّن على هذا أن يقال: إنَّ ذاكَ على تأويل أنها مذمومةٌ بالنسبة إلى مَنْ دارت عليه من المنافقين والمشركين، واستعمالُها في المكروه أكثرُ، وهي مصدر بزِنَةِ اسم الفاعل، أو اسمُ فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة. وفي «الكشف»: الإضافة بمعنى «مِنْ» على نحو: دائرة ذهب، فتدبَّر. والكلامُ إما إخبارٌ عن وقوع السوء بهم، أو دعاءٌ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ على ذلك، وكان الظاهرُ: فلعنهم فأعدَّ، بالفاء في الموضعين، لكنه عَدَلَ عنه للإشارة إلى أنَّ كلًّا من الأمرين مستقلٌّ في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ جهنمُ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكر سابقاً على أن المرادَ أنه عز وجل المُدبِّر لأمرِ المخلوقات بمقتضى حِكْمته، فلذلك ذَيّل بقوله تعالى: «عليماً حكيماً»، وهاهنا أُريد به التهديدُ بأنهم في قبضة قُدْرة المنتقم، ولذا ذيّل بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا

(١) التيسير ص١١٩، والنشر ٢/ ١١٩.
(٢) مادة: (سوأ).

﴿حَكِيمًا ۝٧﴾ فلا تَكرار كما قال الشهاب[١]. وقيل: إنَّ الجنودَ جنودُ رحمة وجنودُ عذاب، والمرادُ به هنا الثاني كما يُنبئ عنه التعرُّض لوصفِ العِزَّة.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي: على أُمَّتك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣] وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة: شاهداً على أُمَّتك وشاهداً على الأنبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا[٢]. ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ بالثواب على الطاعة ﴿وَنَذِيرٗا ۝٨﴾ بالعذابِ على المعصية.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخِطابُ للنبيِّ ﷺ وأُمّته، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] وهو من باب التغليب غُلِّب فيه المُخاطَب على الغيَّب، فيفيدُ أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام مُخاطَب بالإيمان برسالته كالأمة، وهو كذلك.

وقال الواحدي[٣]: الخطاب في «أرسلناك» للنبيِّ ﷺ، وفي «لِتُؤمنوا» لأُمَّته. فعلى هذا إنْ كان اللام للتعليل يكون المُعلَّل محذوفاً، أي: لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فَعَلَ ذلك الإرسال، أو للأمر على طريقة: «فبذلك فلتفرحوا» [يونس:٥٨] على قراءة التاء الفوقانية[٤]، فقيل: هو على معنى: قل لهم: لتؤمنوا.. إلخ.

وقيل: هو للأُمة على أن خِطابَه ﷺ مُنزَّلٌ منزلة خطابهم فهو عينُه ادعاء، واللام مُتعلِّقة بـ«أرسلنا». ولا يُعترض عليه بما قرَّره الرضي وغيره من أنه يمتنعُ أن يُخاطَب في كلام واحدٍ اثنان من غير عطفٍ أو تثنية أو جمع، لأنه بعدَ التنزيل لا تَعدُّد. وجُوِّز أن يكون ذلك لأنهم حينئذ غيرُ مُخاطَبين في الحقيقة فخطابهم في حكم الغَيْبة. وقيل: الامتناع المذكور مشروطٌ بأن يكون كلٌّ من المُخاطَبين مستقلًّا، أما إذا كان أحدُهما داخلاً في خطاب الآخر فلا امتناعَ كما يُعْلَم من تَتَبُّع كلامهم، وحينئذ يجوز أن يُرادَ خطابُ الأمة أيضاً من غير تغليبٍ، والكلام في ذلك طويل وما ذكر سابقاً سالم عن القال والقيل.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/٥٨.

(٢) الدر المنثور ٦/٧١، وتفسير الطبري ٢١/٢٥٠.

(٣) الوسيط ٤/١٣٦.

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية رويس. النشر ٢/٢٨٥.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه، كما رُوي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً[١]، وأخرجه جماعةٌ عن قتادة[٢]، والضميرُ لله عز وجل، ونُصرته سبحانه بنصرة دِينه ورسوله ﷺ. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظِّموه كما قال قتادة وغيره، والضمير له تعالى أيضاً. وقيل: كلا الضميرين للرسول ﷺ، ورُوي عن ابن عباس. وزعم بعضُهم أنه يتعيَّن كونُ الضمير في «تُعزِّروه» للرسول عليه الصلاة والسلام لِتَوَهُّم أن التعزيرَ لا يكون له سبحانه وتعالى، كما يتعيَّن عند الكلِّ كونُ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الأَولى كونُ الضميرين فيما تقدَّم لله تعالى أيضاً لئلا يلزم فَكُّ الضمائر من غير ضرورة، أي: وتُنزِّهوا الله تعالى، أو: تُصَلُّوا له سبحانه مِنَ السُّبحة ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ غُدوةً وعَشِيًّا، والمرادُ ظاهرهما، أو جميع النهار، ويُكنَى عن جميع الشيء بطرفيه كما يقال: شرقاً وغرباً، لجميع الدنيا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاةُ الفجر وصلاةُ الظهر وصلاة العصر.

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة ـ أعني: «لِتُؤمنوا» وما بعدَه ـ بياء الغيبة[٣]، وعن ابن مسعود وابن جُبير كذلك إلا أنهما قرأا: «ويُسَبِّحوا الله» بالاسم الجليل مكانَ الضمير[٤]، وقرأ الجَحْدري: «تَعْزُروه» بفتح التاء الفوقية وضمِّ الزاي مُخفَّفاً[٥]، وفي روايةٍ عنه فتحُ التاء وكسر الزاي مُخفَّفاً، ورُوي هذا عن جعفر الصادق رضي الله عنه[٦]، وقُرئ: بضمِّ التاء وكسرِ الزاي مُخفَّفاً[٧]، وقرأ ابن عباس ومحمد بن اليماني: «تُعَزِّزوه» بزاءين[٨] من العِزَّة، أي:

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٩٥، وعزاه أيضاً في الدر المنثور ٦/ ٧١ لابن عدي وابن مردويه وابن عساكر في تاريخه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير [في التفسير ٢١/ ٢٥١].

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩١، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر، والمشهور عنه كقراءة الباقين.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٥، والبحر ٨/ ٩١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٩١.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٤٣، والبحر ٨/ ٩١، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

تجعلوه عزيزاً، وذلك بالنسبة إليه سبحانه بجعل دينه ورسوله ﷺ كذلك. وقرئ: «وتُؤْقِرُوه» مِنْ أَوقره[١] بمعنى وقَّره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يومَ الحديبية على الموت في نُصْرتك كما رُوي عن سلمة بن الأكوع وغيره، أو: على أنْ لا يَفِرُّوا من قريش كما رُوي عن ابن عمر وجابر رضي الله عنهم، وسيأتي الكلامُ في تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

والمبايعة وقعتْ قبلَ نزول الآية، فالتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلةٌ من البيع، يقال: بايع السلطانَ مُبايعةً إذا ضَمِنَ بذلَ الطاعة له بما رضخ له، وكثيراً ما تُقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رَضْخٌ، وما وقع للمؤمنين قيل: يُشير إلى ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ المقصودَ من بيعةِ الرسول عليه الصلاة والسلام وإطاعته إطاعةُ الله تعالى وامتثالُ أوامره سبحانه لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فمبايعةُ الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مُشاكلة، أو هو صرفُ مجازٍ.

وقرئ: «إنما يُبايعون لله»[٢]، أي: لأجل الله تعالى ولوجهه، والمفعول محذوف، أي: إنما يُبايعونك لله.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئنافٌ مؤكِّد لما قبلَه؛ لأنه عبارة عن المبايعة. قال في «الكشاف»[٣]: لمَّا قال سبحانه: «إنما يبايعون الله» أكَّده على طريقة التخييل، فقال تعالى: «يدُ الله فوقَ أيديهم» وأنه سبحانه مُنزَّه عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وإنما المعنى تقريرُ أنَّ عقدَ المِيثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوتٍ بينهما. وفي «المفتاح»: أما حسنُ الاستعارة التخييلية فبحسب حسن

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٩١، ونسبت لتمام بن العباس بن عبد المطلب.

(٣) ٣/ ٥٤٣.

الاستعارة بالكناية متى كانت تابعةً لها، كما في قولك: فلانٌ بين أنيابِ المَنيَّة ومَخالبِها، ثم إذا انضمَّ إليها المُشاكلة كما في «يد الله» إلخ كانت أحسنَ وأحسن[1]. يعني أنَّ في اسم الله تعالى استعارةً بالكناية تشبيهاً له سبحانه وتعالى بالمُبايع، واليد استعارةٌ تخييلة مع أن فيها أيضاً مُشاكلةً لذكرها مع أيدي الناس، وامتناعُ الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المَكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه.

وروى الواحدي عن ابن كيسان: اليدُ: القوَّة، أي: قوَّة الله تعالى ونُصرته فوقَ قوتهم ونصرتهم، أي: ثِقْ بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإنْ بايعوك.

وقال الزجاج[2]: المعنى: يد الله في الوفاء فوقَ أيديهم، أو: في الثواب فوقَ أيديهم في الطاعة، أو: يدُ الله سبحانه في المِنَّة عليهم في الهِداية فوقَ أيديهم في الطاعة. وقيل: المعنى: نعمةُ الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوقَ نعمتهم، وهي مُبايعتهم إياك وأعظمُ منها، وفيه شيء من قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكلُّ ذلك تأويلاتٌ ارتكبها الخَلَفُ، وأحسنُها ما ذُكر أولاً، والسلفُ يمرُّون الآية كما جاءت مع تنزيهِ الله عز وجل عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وكذلك يفعلون في جميع المُتشابهات ويقولون: إنَّ معرفةَ حقيقة ذلك فرعُ معرفةِ حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات.

وجُوِّز أن تكونَ الجملةُ خبراً بعد خبر لـ «إنَّ»، وكذا جُوِّز أن تكونَ حالاً من ضمير الفاعل في «يُبايعونك»، وفي جواز ذلك مع كونها اسميةً غيرَ مقترنةٍ بالواو كلامٌ.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نَكْثه إلا عليه، وروى الزمخشري[3] عن جابر بن عبد الله أنه ما نَكَثَ أحدٌ البيعةَ إلا جدُّ بن قيس وكان

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٣٨٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

منافقاً. والذي نقله الطيبي عن مسلم يدلُّ على أن الرجلَ لم يُبايِعْ، لا أنه بايعَ ونكثَ، قال: سُئل جابر: كم كانوا يومَ الحُديبية؟ قال: كنا أربعَ عشرَ مئة، فبايعناه وعمر رضي الله عنه آخذٌ بيده صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة، وهي سَمُرةٌ، فبايعناه غيرَ جدِّ بن قيس الأنصاري اختفى تحت بَطْن بعيرِه ولم يَسِرْ مع القوم[١]. ولعلَّ هذا هو الأوفقُ؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ الآية [١٨].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يَنْكِثُ» بكسر الكاف[٢].

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عينَ رأتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطرَ على قلب بَشَر، ويقال: وَفَى بالعهد وأوفى به، إذا تَمَّمه، وأوفى لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقرئ: «بما عَهِدَ» ثلاثيًّا[٣].

وقرأ الجمهور: «عليهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضَمَّها حفص هنا[٤]، قيل: وجهُ الضَّمِّ أنها هاء «هو»، وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه، ووجه الكسر رِعاية الياء، وكذا في «إليه» و«فيه»، وكذا فيما إذا كان قبلَها كسرةٌ نحو: به، ومررتُ بغلامِه، لِثقل الانتقال من الكسر إلى الضمِّ، وحَسَّنَ الضَّمّ في الآية التوصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمرِ العَهْد المُشْعِر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائمٌ للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نَقْضه. وقد سألت كثيراً من الأجلَّة وأنا قريبُ عهدٍ بفتح فمي للتكلُّم عن وجه هذا الضَّمِّ هنا، فلم أُجَبْ بما يَسْكُن إليه قلبي، ثم ظَفِرتُ بما سمعتَ والله تعالى الهادي إلى ماهو خيرٌ منه.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وروح وزيد بن عليٍّ: «فسنؤتيه» بالنون[٥].

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٦)، وقوله: سَمُرة: هي واحدة: سَمُر، كرجل، ضرب من شجر الطلح. النهاية (سمر).
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التيسير ص١٤٤، والنشر ١/ ٣٠٤-٣٠٥.
(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣٧٥. وقراءة زيد بن علي في البحر المحيط ٨/ ٩٢.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وغيره ودخل كلامُ بعضهم في بعض: «المُخلَّفون من الأعراب» هم: جُهينة ومُزينة وغِفار وأشجع والدِّيل وأسلم؛ استنفرهم رسولُ الله ﷺ حين أراد المسيرَ إلى مكة عامَ الحديبيةِ معتمراً ليخرجوا معه حَذراً من قريش أنْ يعرِضوا له بحرب أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساقَ معه الهَدْيَ لِيُعلِم أنه لا يُريد حرباً، ورأى أولئك الأعرابُ أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدوًّا[1] عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكةَ وهم الأحابيش، ولم يكن الإيمانُ تمكَّن من قلوبهم، فقعدوا عن النبيِّ ﷺ وتخلَّفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غَزَوْه في عُقْر داره بالمدينة وقتلوا أصحابَه فنقاتلهم! وقالوا: لن يرجِعَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ولا أصحابُه من هذه السَّفرة، فَفَضَحهم اللهُ تعالى في هذه الآية، وأعلمَ رسولَه ﷺ بقولهم واعتذارِهم قبلَ أن يَصِلَ إليهم، فكان كذلك.

و«المُخَلَّفون» جمع: مُخَلَّف؛ قال الطبرسي[2]: هو المتروكُ في المكان خَلْفَ الخارجين من البلد، مأخوذٌ من الخَلْف، وضدُّه المُقدَّم. و«الأعراب» في المشهور سكَّان البادية من العرب، لا واحدَ له. أي: سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك معتذرين إليك: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن الذهاب معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقومُ بحفظِ ذلك ويَحميه عن الضَّياع، ولعلَّ ذكرَ الأهل بعدَ الأموال من باب الترقِّي؛ لأنَّ حفظَ الأهل عند ذوي الغيرة أهمُّ من حِفظ الأموال.

وقرأ إبراهيم بن نوح بن باذان: «شغَّلتنا» بتشديد الغين المعجمة للتكثير[3].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اللهَ تعالى لِيغفرَ لنا تَخلُّفنا عنك حيث لم يكن عن تكاسُلٍ في طاعتك، بل لذلك الداعي.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنَّ كلامهم من طَرَف اللسان غير مطابقٍ لما في الجَنان، وهو كنايةٌ عن كذبهم، فالجملةُ استئنافٌ لتكذيبهم، وكونها بدلاً من «سيقول» غيرُ ظاهر، والكذب راجعٌ لما تضمَّنه الكلامُ من الخبر عن

(١) في (م) وهامش الأصل: عدداً.
(٢) مجمع البيان ٢٦/٥٨.
(٣) البحر المحيط ٨/٩٣.

تخلُّفهم بأنه لضرورة داعيةٍ له، وهو القيامُ بمصالحهم التي لا بدَّ منها، وعدمِ من يقومُ بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام، وكذا راجعٌ لما تضمَّنه «استغفر» الإنشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون، وأنَّ دعاءه ﷺ لهم يُفيدهم فائدةً لازمةً لهم، وتسمية ذلك كذباً ليس لعدم مطابقة نسبته[1] الاعتقاد على ما ذهب إليه النَّظَّام، بل لعدم مطابقته الواقعَ بحسب الاعتقاد، وفرقٌ بين الأمرين.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أمرٌ له ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الأباطيل، والملْك إمساكٌ بقوة، لأنه بمعنى الضبط، وهو حفظٌ عن حزمٍ، ومنه: لا أَمْلِكُ رأسَ البعير، ومَلَكت العجين: إذا شددتَ عجنته، وملكت الشيء: إذا دخل تحت ضَبْطك دخولاً تامًّا، وإذا قلت: لا أملك، كان نفياً للاستطاعة والطاقة إمساكاً ومنعاً، فأصلُ المعنى هنا: فمن يستطيع لكم إمساكَ شيء مِن قُدرة الله تعالى إنْ أراد بكم.. إلخ، واللام مِن «لكم» إما للبيان أو من صلةِ الفعل، لأنَّ هذه الاستطاعةَ مُختصَّةٌ بهم ولأجلهم، و«من الله» حالٌ من النكرة ـ أعني «شيئاً» ـ مُقدَّمة، وتفسيرُ الملك بالمنع بيانٌ لحاصل المعنى، لأنه إذا لم يستطع أحدٌ الإمساك والدَّفْع فلا يُمكنه المنعُ وليس ذلك لجعله مجازاً عنه أو مُضَمَّناً إياه، واللامُ زائدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] و«من» مُتعلِّقة بـ «يملك» كما قيل، والمراد بالضُّرّ والنفع ما يضرُّ وما ينفع، فهما مصدران مرادٌ بهما الحاصلُ بالمصدر أو مؤوَّلان بالوصف.

وقرأ حمزة والكسائي: «ضُرًّا» بضمِّ الضاد[2]، وهو لغةٌ فيه.

وحاصلُ معنى الآية: قل لهم إذْ لا أحدَ يدفع ضرَّه ولا نَفْعه تعالى، فليس الشُّغل بالأهل والمال عُذراً، فلا ذاك يدفعُ الضُّرَّ إنْ أراده عز وجل ولا مُغافَصةُ[3] العدوِّ تمنع النفعَ إن أرادَ بكم نَفْعاً، وهذا كلامٌ جامعٌ في الجواب فيه تعريضٌ بغيرهم من المُبطِلين وبجلالة مَحلِّ المُحقِّين.

---

(١) في (م): نسبة.
(٢) وقرأ بها خلف من العشرة. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٣) قال صاحب القاموس (غفص): غافصه: أخذه على غرة.

ثم ترقّى سبحانه منه إلى ما يتضمَّن تهديداً بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكلِّ ما تعملونه ﴿خَبِيرًا ⑪﴾ فيعلم سبحانه تَخلُّفكم وقَصْدَكم فيه، ويُجازيكم على ذلك، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعدَّ لهم عنده تعالى بقوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ إلى قوله تعالى: «بورا».

وفي «الانتصاف»(١): إن في قوله تعالى: «فمن يملك» إلخ لفًّا ونشراً، والأصلُ: فمن يملكُ لكم من الله شيئاً إنْ أرادَ بكم ضرًّا أو مَنْ يحرمكم النفعَ إن أرادَ بكم نفعاً؛ لأن «مَنْ يملك» يُستعمل في الضرّ كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤١]، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٨] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أَمْلِكُ لكم شيئاً»(٢) يخاطب عشيرته، وأمثاله كثير. وسرُّ اختصاصه بدفع المَضَرَّة أنَّ المِلْكَ مضافٌ في هذه المواضعِ باللام، ودَفْعَ المضرَّة نفعٌ يضافُ للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمانُ المنفعة، فإنه ضررٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك، لأن القسمين يشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفي لدفع المقدور من خيرٍ وشرٍّ، فلما تقاربا أُدرجا في عبارة واحدة؛ وخصَّ عبارة دَفْع الضرّ لأنه هو المتوقَّع لهؤلاء، إذ الآية في سياق التهديد والوعيد الشديد، وهي نظيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧] فإنَّ العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآياتان توأمتان في التقرير المذكور. انتهى. والوجهُ ما ذكرناه أولاً في الآية، وفي تسميةِ مثل هذا لفًّا ونشراً نظرٌ، ثم إنَّ الظاهرَ عمومُ الضرَّ والنفع.

وقال شيخ الإسلام أبو السعود: المراد بالضَّرِّ ما يضرُّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما، وبالنفع ما ينفعُ من حفظ المال والأهل، وتعميمُهما يردُّه قوله تعالى: (بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فإنه إضرابٌ عمَّا قالوه وبيانٌ لكذبه بعد بيان فسادِه على

---

(١) بحاشية الكشاف ٣/ ٥٤٤.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤٠٢)، ومسلم (٢٠٤): (٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقدير صِدْقه[١]. انتهى. وهو كلامٌ أوهى من بيت العنكبوت، لأنَّ في التعميم إفادةً لما ذكر وزيادة تُفيد قوةً وبلاغة.

والظاهرُ أنَّ كلًّا من الإضرابات الثلاثة مقصودٌ، وقال شيخ الإسلام: إنَّ قوله تعالى: «بل ظننتم» إلخ بدلٌ من «كان الله» إلخ مفسِّر لما فيه من الإبهام[٢].

وفي «البحر»: إنه بيانٌ للعلة في تخلُّفهم، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ أي: لن يرجعَ من ذلك السَّفر[٣] ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ أي: عشائرهم وذوي قُرباهم ﴿أَبَدًا﴾ بأن يستأصِلَهم المشركون بالمرَّةِ، فحسبتم إنْ كنتم معهم أنْ يُصيبَكم ما يُصيبهم، فلأجل ذلك تخلَّفتم لا لما ذَكَرتُم من المعاذير الباطلة.

والأهلون جمعُ: أهل، وجمعه جمع السلامةِ على خلاف القياس، لأنه ليس بعَلَم ولا صفة من صفات مَنْ يَعْقِل، ويُجمع على: أَهلات، بملاحظة تاء التأنيث في مفرده تقديراً، فيجمع كتمرة وتَمرَات، ونحوه أرض وأَرضات، وقد جاء على ما في «الكشاف»[٤] أَهْلة بالتاء، ويجوز تحريكُ عينه أيضاً فيقال: أَهَلات بفتح الهاء. وكذا يُجمع على أهال كـ: لَيَال، وأطلق عليه الزمخشري: اسمَ الجمع؛ وقيل: وهو إطلاقٌ منه في الجمع الواردِ على خلافِ القياس، وإلا فاسم الجمع شرطُه عند النُحاة أن يكونَ على وزن المفردات، سواء كان له مُفردٌ أَمْ لا.

وقرأ عبد الله: «إلى أهلهم» بغير ياء[٥]، والآية ظاهرةٌ في أنَّ «لن» ليست للتأبيد، ومَنْ زعم إفادتها إيَّاه جعل «أبداً» للتأكيد.

﴿وَزُيِّنَ﴾ أي: حُسِّنَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الظنّ المفهوم من ظننتم ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تَسْعَوا في إزالته، فتمكَّن فيكم، فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مُبالين بالرسول ﷺ والمؤمنين.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٣.

(٤) ٣/ ٥٤٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ٩٣.

وقيل: الإشارة إلى المظنون، وهو عدمُ انقلابِ الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أهليهم أبداً، أي: حُسِّن ذلك في قلوبكم فأحببتموه، والمرادُ من ذلك تقريعُهم ببغضهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين، والمناسب للسياق ما تقدَّم.

وقُرِئ: «زَيَّن» بالبناء للفاعل[(١)] بإسناده إلى الله تعالى، أو إلى الشيطان.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو ظَنُّهم السابق، فتعريفُه للعهدِ الذِّكري، وأُعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء، أو هو عامٌّ فيشمل ذلك الظَّنَّ وسائرَ ظُنونهم الفاسدةِ التي من جُملتها الظنُّ بعدمِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فإنَّ الجازم بصحتها لا يحومُ فكرهُ حول ما ذكر من الاستئصال، فذِكْرُ ذلك للتعميم بعد التخصيص.

﴿وَكُنتُمْ﴾ في علم الله تعالى الأزلي ﴿قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾ أي: هالكين، لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتكم، مُستوجِبين سُخْطَه تعالى وعقابَه جلَّ شأنه، وقيل: أي: فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيَّاتكم لا خيرَ فيكم.

والظاهرُ ـ على ما في «البحر»[(٢)] ـ أنَّ «بوراً» في الأصل مصدرٌ كالهُلْك، ولذا وُصِفَ به المُفردُ المذكَّرُ في قول ابن الزبعرى:

يـا رسـولَ الـمَـلـيـك إنَّ لـسـانـي راتـقٌ مـا فَـتَـقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ[(٣)]

والمُؤنَّثُ، حكى أبو عُبيدة: امرأةٌ بور، والمثنى والمجموع. وجُوِّز أن يكون جمعَ: بائر، كحائل وحُول، وعائذ وعُوذ، وبازِل وبُزْل، وعلى المصدرية هو مُؤَوَّل باسمِ الفاعل. وجُوِّز أن تكونَ «كان» بمعنى صار، أي: وصِرْتم بذلك الظنِّ قوماً هالكين مستوجبين السَّخط والعقاب، والظاهرُ إبقاؤها على بابها، والمُضي باعتبار العلم كما أشرنا إليه. وقيل: أي: كنتم قبلَ الظنِّ فاسدين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلخ، كلامٌ مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل في الكلام المُلقَّن، مُقرِّرٌ لبوارِهم ومُبيِّن لكيفيته، أي: ومَنْ لم

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٣.

(٣) ديوان عبد الله بن الزبعرى ص٣٦.

يُصَدِّق بالله تعالى ورسوله ﷺ كدأب هؤلاء المُخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ ناراً مسعورةً مُوقَدة مُلتهبة، وكان الظاهر: لهم، فعدل عنه إلى ما ذكر إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافرٌ، وأنه مُستوجِبٌ للسعير بكُفره لمكان التعليق المشتقّ، وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الإشارة إلى أنها لا يمكن معرفتها واكتناهُ كُنهها. وقيل: لأنها نارٌ مخصوصةٌ، فالتنكيرُ للتنويع، و«مَنْ» يحتمل أن تكونَ موصولةً وأن تكونَ شرطيةً، والعائدُ من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهرُ القائم مقامَ المُضمر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو عز وجل المُتصرِّفُ في الكلِّ كما يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يغفرَ له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أنْ يُعذِّبه من غير دَخْل لأحدٍ في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ مُبالغاً في المغفرة لمن يشاء، ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحِكمةُ المغفرةَ له ممن يُؤمِنُ به سبحانه ورسولِهِ ﷺ، وأما مَنْ عداه من الكافرين المُجاهِرين والمنافقين فهم بمعزِلٍ من ذلك قَطْعاً.

وفي تقديم المغفرة، والتذييل بكونه تعالى غفوراً بصيغة المُبالغةِ، وضَمِّ «رحيماً» إليه الدالِّ على المبالغة أيضاً، دون التذييل بما يُفيد كونَه سبحانه مُعذِّباً، مما يدلُّ على سبق الرحمة ما فيه.

وفي الحديث: «كتب ربُّكم على نفسِه بيده قبلَ أن يخلُق الخَلْقَ: رحمتي سبقَتْ غضبي»[1]، وهذا السبقُ - على ما أشار إليه في «أنوار التنزيل»[2] - ذاتيٌّ، وذلك لأنَّ الغُفْرانَ والرحمةَ بحسب الذات، والتعذيب بالعَرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضي لذلك، وقد صرَّح غيرُ واحد بأنَّ الخيرَ هو المقضي بالذات والشر بالعرض، إذْ لا يوجد شرٌّ جُزئي إلا وهو مُتضمِّنٌ لخير كُلِّي، وفصّل ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٩١٥٩)، والبخاري (٧٥٥٤)، وابن ماجه (١٨٩) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهو تفسير البيضاوي ٨/ ٦٠ (بهامش حاشية الشهاب).

في «شرح الهياكل»[١]. وقال بعضُ الأجِلَّة: المرادُ بالسبق في الحديث كَثْرةُ الرحمة وشُمولها، وكذا المرادُ بالغَلبة الواقعة في بعض الرويات[٢]، وذلك نظيرُ ما يقال: غَلَبَ على فلان الكرمُ. ومَن جعل الرحمةَ والغضبَ من صفات الأفعال لم يُشكِلْ عليه أمرُ السَّبق، ولم يَحْتَجْ إلى جَعْله ذاتيًّا كما لا يخفى.

والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعضَ الترجية إذا آمنوا حقيقةً. وقيل: لحسم أطماعهم الفارغةِ في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم.

وفسَّر الزمخشري «من يشاء» الأول بالتائب، والثاني بالمُصِرِّ، ثم قال: يُكَفِّر سبحانه السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة[٣]. وهو اعتزالٌ منه مُخالِفٌ لظاهرِ الآية. وقال الطيبي: يمكن أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ، مَوْقِعُه موقع التذييل لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية، على أنْ يُقدَّر له ما يُقابله من قوله: ومَنْ آمنَ بالله ورسوله فإنا أَعْتدنا للمؤمنين الجِنان، مثلاً، فلا يُقيِّد شيء مما قيَّده ليؤذِنَ بالتصرفِ التامِّ والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة الشاملة، فتأمل ولا تَغْفُلَ.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون من الأعراب، فاللَّام للعهد، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرفٌ لما قبلَه لا شرطٌ لما بعدَه. والمراد بالمغانم مغانمُ خيبرَ كما عليه عامة المُفسِّرين، ولم نقف على خلافٍ في ذلك، وأُيِّد بأن السين تدلُّ على القرب، وخيبرُ أقربُ المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية كما علمت، فإرادتها كالمُتعيِّنة، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ الله تعالى وعدَ أهلَ الحديبية أن يُعوِّضهم من مغانم مكة خيبرَ إذا قفلوا مُوادِعين لا يُصيبون شيئاً، وخَصَّ سبحانه ذلك بهم، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانمِ خيبر لتأخذوها حسبما وَعَدَكم الله تعالى إيَّاها وخصَّكم بها طمعاً في عَرَضِ الدنيا

---

(١) هياكل النور لشهاب الدين يحيى بن حبش، شَرَحه الدواني وغيره. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٧. والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٦٠.

(٢) كما في مسند أحمد (٨٩٥٨)، وصحيح البخاري (٧٥٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٤.

لما أنهم يَرَوْنَ ضعفَ العدو، ويتحقَّقون النَّصرة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبرَ ونشهد معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ بأنْ يُشاركوا في الغنائم التي خصَّها سبحانه بأهل الحديبية. وحاصِلُه: يريدون الشركة التي لا تحصل لهم دون نُصرةِ الدين وإعلاء كلمة الله تعالى. والجملةُ استئنافٌ لبيان مُرادِهم بذلك القول. وقيل: يجوز أن تكونَ حالاً من المُخلَّفين، وهو خلافُ الظاهر، ولا يُنافي خبرَ التخصيص إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعضَ مُهاجري الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدَّوسيين والأشعريين من ذلك، وهم أصحابُ السفينة، كما في البخاري[(١)]، فإنه كان استنزالاً للمسلمين عن بعضِ حُقوقهم لهم، أو أن بعضَها فُتح صُلحاً، وما أعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعضٌ مما صالح عليه، وكلٌّ هذا مذكورٌ في السِّير، لكن الذي صحَّحه المُحدِّثون أنه لا صُلْحَ فيها.

وقال الكرماني: إنما أعطاهم ﷺ برضا أصحابِ الوقعة، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقُّه عليه الصلاة والسلام، ومَيْل البخاري إلى الثاني[(٢)].

وحَمْلُ كلام اللهِ تعالى على وَعْدِه بتلك الغنائم لهم خاصَّةً هو الذي عليه مجاهد وقتادة وعامَّة المفسرين، وقال ابن زيد: كلامُ الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ووافقه الجُبَّائي على ذلك، وشَنَّع عليهما غيرُ واحد بأنَّ ذلك نازلٌ في المُخَلَّفين في غزوة تبوك من المنافقين، وكانت تلك الغزوةُ يومَ الخميس في رجب سنةَ تسع بلا خلاف كما قال القسطلاني، والحديبية في سنة ستٍّ كما قاله ابن الجوزي[(٣)] وغيره، وهذه إنما نزلت بُعَيْدَ الانصراف من الحُديبية كما علمت، وأيضاً قال في «البحر»[(٤)]: قد غزتْ مُزينة وجُهينة من هؤلاء

(١) صحيح البخاري (٣١٣٦) من حديث أبي موسى ﵁.
(٢) ترجم البخاري: باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ثم ذكر الحديث الذي أشار إليه المصنف قريباً، وهو أن النبي ﷺ أعطى لمن كان في الحبشة من مغانم فتح خيبر.
(٣) المنتظم ٣/ ٢٦٧.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

المُخلَّفين بعد هذه المُدَّة معه عليه الصلاة والسلام وفضَّلهم ﷺ بعد ذلك على تميم وغَطَفان وغيرهم من العرب. وفي «الكشف»: لعلَّ القائلَ بذلك أراد أن هؤلاء المُخلَّفين لما كانوا مُنافقين مثلَ المُخلَّفين عن تبوك كان حكمُ الله تعالى فيهم واحداً، ألا ترى أن المعنى المُوجب مُشتركٌ، وهو رضاهم بالقُعود أولَ مرة، فكلامُ الله تعالى أُريد به حكمه السابق، وهو أن المنافقَ لا يستصحب في الغزو، ولم يُرِدْ أن هذا الحكم مُنقاسٌ على ذلك الأصل، أو الآية نازلةٌ فيهم أيضاً، فهذا ما يمكن في تصحيحه. انتهى.

ويقال عمَّا في «البحر»: إن الذين غَزَوا بعدُ لم يغزوا حتى أَخْلصوا، ولم يبقوا منافقين، والله تعالى أعلم.

وقرأ حمزة والكسائي: «كَلِمَ الله»[1] وهو اسم جنس جمعي، واحدُه: كَلِمةٌ.

﴿قُل﴾ إقناطاً لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبعونا، فإنه نفيٌ في معنى النهي للمبالغة، والمرادُ نَهْيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباعَ فيه في قولهم: «ذرونا نتبعكم» وهو الانطلاقُ إلى خيبرَ، كما نُقِلَ عن مُحيي السنة عليه الرحمة[2].

وقيل: المراد: لا تتَّبعونا ما دُمْتُم مرضى القلوب. وعن مجاهد: كان الموعد ـ أي: الموعد الذي تغييره تبديلُ كلام الله تعالى، وهو موعدُه سبحانه لأهل الحديبية ـ أنهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المَغْنم، فكأنه قيل: لن تتَّبعونا إلا متطوِّعين. وقيل: المراد التأبيد. وظاهر السياق الأول.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ أن تَهيَّأتم للخروج معنا، وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سَماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُشارِكَكم في الغنائم، وهو إضرابٌ عن كونه بحكم الله تعالى، أي: بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً.

وقرأ أبو حيوة: «تَحْسِدوننا» بكسر السين[3].

---

(١) وقرأ بها خلف أيضاً. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٩٢.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٩٤.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ أي: إلا فهماً قليلاً، وهو فَهْمهم لأمورِ الدنيا، وهو ردٌّ لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصفٌ لهم بما هو أعظمُ من الحسد وأطمُّ، وهو الجهل المُفرِط وسوء الفهم في أمور الدين. وفيه إشارةٌ إلى ردِّهم حكمَ الله تعالى وإثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقِلَّة التفكر.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في الذمّ وإشعاراً بشناعة التخلُّف: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي نجدة وشدَّة قوية في الحرب، وهم ـ على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري ـ بنو حنيفة مسيلمةُ وقومُه أهلُ اليمامة[١]، وعليه جماعة، وفي رواية عنه زيادة: أهل الرِّدة، ورُوي ذلك عن الكلبي.

وعن رافع بن خَديج: إنَّا كُنَّا نقرأ هذه الآيةَ فيما مَضى ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر ﷺ إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم أُريدوا بها. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد ـ في رواية ـ وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى: هم الفُرس. وأخرجه ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس[٢].

وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في الآية: دعا عمر بن الخطاب ﷺ لقتال فارس أعرابَ المدينة جُهينة ومُزينة الذين كان النبيُّ ﷺ دعاهم للخروج إلى مكة[٣].

وقال عكرمة وابن جُبير وقتادة: هم هوازن ومَنْ حاربَ الرسولَ ﷺ في حنين. وفي رواية ابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة التصريحُ بثقيف مع هوازن[٤]، وفي رواية الفِريابي وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هم هوازن وبنو حنيفة[٥].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٦٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٣.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٧.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٣.

وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم ﷺ عامَ تبوك والذين بعثَ إليهم في غزوة مُؤتة. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال: هم فارس والروم[١].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: البارِز. يعني الأكراد كما في «الدر المنثور»[٢]. وأخرج ابن المنذر والطبراني في «الكبير» عن مجاهد قال: أعرابُ فارس وأكراد العَجَم[٣].

وظاهرُ العطف أنَّ أكرادَ العجم ليسوا من أعراب فارس، وظاهرُ إضافة أكراد إلى العَجَم يُشعر بأنَّ من الأكراد ما يقال لهم: أكراد العرب. ولا نعرف هذا التقسيم، وإنما نعرفُ جيلاً من الناس يقال لهم: أكراد، من غيرِ إضافةٍ إلى عربٍ أو عَجَم. وللعلماءِ اختلافٌ في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم، فقيل: ليسوا من العرب، وقيل: منهم.

قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان في ترجمة المُهَلَّب بن أبي صُفرة ما نصُّه: حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب» في كتابه «القَصْد والأَمَم في أنساب العرب والعَجَم» أنَّ الأكرادَ من نسل عمرو مُزَيْقِياء بن عامر بن ماء السماء، وأنهم وقعوا إلى أرض العَجَم فتناسلوا بها وكَثُر ولدُهم فَسُمُّوا: الأكراد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضدُ ما قاله ابن عبد البرّ:

لعمركَ ما الأكراد أبناءَ فارس ... ولكنه كُرد بن عمرو بن عامر

انتهى[٤].

وفي «القاموس»: الكُرد بالضَّمِّ جيلٌ من الناس معروفٌ، والجمع: أكراد، وجدُّهم: كُرد بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء[٥]. انتهى.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٢٦٦، والدر المنثور ٦/٧٣.
(٢) ٦/٧٣، وينظر شرح كلمة البارز في فتح الباري ٦/٦٠٨.
(٣) الدر المنثور ٦/٧٣، وأخرجه في أخبار أصبهان ١/٧ بلفظ: أعراب فارس وهم الأكراد.
(٤) وَفَيات الأعيان ٥/٣٥٧، وكلام ابن عبد البر في القصد والأمم ص٤٩.
(٥) القاموس المحيط (كرد).

وعامرٌ هذا من العرب بلا شُبهة، فإنه ابنُ حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزْد ـ ويقال له: الأَسْد ـ بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يَشجب بن يعرب بن قحطان، ويُسمَّى: عامراً، وهو عند الأكثر: ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: مِنْ ولد هود. وقيل: هو هودٌ نفسه، وقيل: ابن أخيه، وذهب الزُّبير بن بكَّار إلى أنَّ قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام، وأنه قَحْطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل.

والذي رجَّحه ابن حجر[1] أن قبائلَ اليمن كلَّها ومنها قبيلة عمرو مُزَيْقِياء من ولد إسماعيل عليه السلام. ويدلُّ له تبويبُ البخاري: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام[2]. ذكر ذلك السيد نور الدين عليٌّ السمهودي في «تاريخ المدينة»[3]، وفيه أنَّ الأنصار الأوس والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مُزَيْقِياء المذكور، وكان له ثلاثةَ عشرَ ولداً ذكوراً منهم ثعلبة المذكور وحارثة والد خُزاعة، وجفنة والد غسان، ووداعة وأبو حارثة وعوف وكعب ومالك وعمران وكُرد كما في «القاموس». انتهى.

وفائدة الخلاف تظهر في أمورٍ منها الكَفَاءة في النِّكاح، والعامَّة لا يعدُّونهم من العرب، فلا تَغْفُل، والذي يَغْلِبُ على ظنِّي أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم: أكراد، لا يبعدُ أن يكونَ فيهم مَنْ هو من أولاد عمرو مُزَيقياء، وكذا لا يبعدُ أن يكونَ فيهم من هو من العرب، وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أنَّ الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً، وقد انتظم في سِلْك هذا الجيل أُناسٌ يقال: إنهم من ذرية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذرية مُعاذ بن جبل؛ وآخرون يقال: إنهم من ذرية العباس بن عبد المطلب، وآخرون يقال: إنهم من بني أمية، ولا يصحُّ عندي من ذلك شيء، بَيْدَ أنه سكن مع الأكراد طائفةٌ من السادة أبناءِ الحسين رضي الله عنه يقال لهم: البَرْزَنْجية، لا شكَّ في صحَّة نَسَبهم، وكذا في جلالة حَسَبهم.

---

(١) فتح الباري ٦/ ٥٣٧-٥٣٨.

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٣٥٠٧).

(٣) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٥٣٣-٥٣٦.

وبالجملة الأكرادُ مشهور بالبأس[(١)]، وقد كان منهم كثيرٌ من أهل الفضل، بل ثبتَ لبعضهم الصُّحبة، قال الحافظ ابنُ حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة»[(٢)] في حرف الجيم: جابان والد ميمون، روى ابن مَنْده من طريق أبي سعيد مولى بن هاشم عن أبي خَلدة: سمعتُ ميمونَ بن جابان الكُردي[(٣)] عن أبيه أنه سمع النبيَّ ﷺ غيرَ مرَّة حتى بلغ عشراً، وذكر الحديث، وقد أخرج نحوه الطبراني في «المعجم الصغير» عن ميمون الكُردي عن أبيه أيضاً، وهو أتمُّ منه، ولفظه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَيُّما رجلٍ تزوَّج امرأةً على ما قلَّ من المَهْر أو كَثُرَ ليس في نَفْسه أن يُؤدِّيَ إليها حقَّها، خَدَعَها، فمات ولم يُؤَدِّ إليها حقَّها، لقي الله يومَ القيامة وهو زانٍ، وأيمّا رجلٍ استدانَ ديناً لا يُريد أن يُؤدِّيَ إلى صاحبه حقَّه خَدَعه حتى أخذَ ماله، فمات ولم يُؤَدِّ إليه دَيْنه، لَقِيَ اللهَ وهو سارقٌ»[(٤)]. ويُكْنَى ميمون هذا بأبي بَصير، بفتح الموحدة، وقيل: بالنون، وهو كما في «التقريب»[(٥)]: مقبولٌ.

هذا، وأشهرُ الأقوال في تعيين هؤلاء القوم أنهم بنو حنيفة.

وقال أبو حيان[(٦)]: الذي أقوله: إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ من قائلِها لا تعيين القوم، وهذا وإنْ حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على معنى: يكون أحدُ الأمرين إما المُقاتلة أو الإسلام لا ثالثَ لهما، فـ«أو» للتنويع والحصر لا للشكّ، وهو كثير، ويدلُّ لذلك قراءةُ أُبيّ وزيد بن عليٍّ: «أو يُسلموا» بحذف النون[(٧)]، لأنَّ ذلك للناصب، وهو يقتضي أنَّ «أو» بمعنى «إلا»، أي: إلا أنْ يُسلموا، فيفيد الحصرَ، أو بمعنى

(١) في (م): باليأس.
(٢) ٢/ ٤٠.
(٣) في مطبوع الإصابة: الصُّرَدي.
(٤) المعجم الصغير (١١١).
(٥) تقريب التهذيب ص٤٨٨.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٩٤.
(٧) القراءات الشاذة ص١٤٢.

«إلى»، أي: إلى أَنْ يُسلموا، والغايةُ تقتضي أنه لا ينقطع القتالُ بغير الإسلام فيفيده أيضاً كما قيل.

والجملةُ مستأنفةٌ للتعليل، كما في قولك: سيدعوك الأمير يُكرمك أو يَكْبِت عدوَّك، قال في «الكشف»: ولا يجوز أن تكونَ صفةً لـ «قوم» لأنهم دُعُوا إلى قتال القوم لا أنهم دُعُوا إلى قومٍ موصوف بالمقاتلة أو الإسلام. وجوَّز بعضهم كونها حاليةً وحاله كحال الوصفية. وأصلُ الكلام: سَتُدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس لِتُقاتلوهم أو يُسلموا، فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين، ثم فيه أنهم فعلوا ذلك وحصَّلوا الغرضَ، فهو يُخبر عنه واقعاً.

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفكَّ الوجودُ عن أحدِهما لصدق إخباره تعالى، ونحن نرى الانفكاكَ بأنْ يُتركوا سُدى أو بالهدنة، فينبغي أن يُؤَوَّل بأنه في معنى الأمر على ما في «أمالي» ابن الحاجب = غيرُ سديد؛ لأنَّ القومَ مخصوصون لا عُموم فيهم، وكان الواقعُ أنهم قُوتلوا إلى أن أسلموا، سواء فُسِّر القوم ببني حنيفة، أو بثقيف وهوازن، أو فارس والروم، على أنَّ الإسلامَ الانقيادُ، فما انفكَّ الوجودُ عن أحدِهما، بل وقعا، وأما امتناعُ الانفكاك فليس من مُقتضى الوضع ولا الاستعمال، بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتّفق.

وأطال الطيبي الكلامَ في هذا المقام ثم قال: الذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحبُ «التحبير» من أنَّ «يسلمون» عطفٌ على «تُقاتلونهم» إما على الظاهر، أو بتقدير: هم يُسلمون، ليكون مِن عَطْفِ الاسمية على الفعلية، وحينئذ تكون المناسبةُ أكثرَ إذ تخرج الجملة إلى باب الكناية، والمعنى: تُقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يُسلمون، وقد وضع فيه: أو هم يسلمون، موضعَ: أَوْ لا تُقاتلونهم، لأنهم إذا أسلموا سقطَ عنهم قتالُهم ضرورةً، والاستدعاء عليه ليس إلا للاختبار، و«أو» للترديد على سبيل الاستعارة، وفيه ما فيه.

وشاع الاستدلالُ بالآية على صحة إمامةِ أبي بكر ﵁، ووجَّه ذلك الإمام[1]، فقال: الداعي في قوله تعالى: «ستُدعون» لا يخلو من أن يكون رسولَ الله ﷺ، أو

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٢.

الأئمَّة الأربعة، أو مَنْ بعدَهم، لا يجوز الأول لقوله سبحانه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلخ، ولا أن يكون عليًّا رضي الله عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البُغاة والخوارج، وتلك المقاتلة للإسلام لقوله عز وجل: «أو يسلمون» ولا مَنْ مَلَكَ بعدَهم؛ لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر، ولما بَطَلت الأقسام تعيَّن أن يكون المرادُ بالداعي أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم إنه تعالى أوجبَ طاعته وأوعد على مُخالفته، وذلك يقتضي إمامته، وأيُّ الثلاثة كان ثَبَتَ المطلوب، أما إذا كان أبا بكر فظاهرٌ، وأما إذا كان عمرَ أو عثمانَ؛ فلأنَّ إمامته فرعُ إمامته رضي الله عنه.

وتُعُقِّب بأنَّ الداعيَ كان رسولَ الله ﷺ، ويُشعر بذلك السين.

قوله: لا يجوز؛ لقوله سبحانه: «لن تتبعونا» إلخ. فيه أنَّ «لن» لا تُفيد التأبيد على الصحيح، وظاهرُ السِّياق يدلُّ على أنَّ المرادَ به: لن تتَّبعونا في الانطلاق إلى خيبرَ كما سمعت عن محيي السنة. أو هو مُقيَّد بما رُوي عن مجاهد، أو بما حُكي عن بعض.

وقال أبو حيان[1]: القولُ بأنهم لم يُدْعَوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ليس بصحيح، فقد حضر كثيرٌ منهم مع جعفر في مؤتة، وحضروا حربَ هوازن معه عليه الصلاة والسلام، وحضروا معه ﷺ أيضاً في سفرة تبوك. انتهى. ولا يخفى أن هذا إذا صحَّ يَنفي حملَ النفي على التأبيد.

ومن الشيعة من اقتصر في رَدِّ الاستدلال على الدعوة في تبوك. وتُعُقِّب بأنه لم يَقَعْ فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: «تُقاتلونهم أو يسلمون»، ومنهم مَنْ زعم أنَّ الداعي عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وزَعَم كُفر البُغاة والخوارج عليه رضي الله عنه، وأنه لو سُلِّم إسلامُهم يُرادُ بالإسلام في الآية الانقيادُ إلى الطاعة ومُوالاة الأمير، وفيه ما لا يخفى.

والإنصافُ أن الآية لا تكاد تصحُّ دليلاً على إمامة الصدِّيق رضي الله عنه إلا إنْ صحَّ خبرٌ مرفوعٌ في كون المرادِ بالقوم بني حنيفة ونحوهم، ودون ذلك خرطُ القَتاد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

ونفى بعضُهم صحَّةَ كون المراد بالقوم فارساً والروم، لأنَّ المرادَ في قوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون» على ما سمعت، وفارسُ مجوسٌ والرومُ نصارى، فلا يتعيَّن فيهم أحدُ الأمرين من المُقاتلة والإسلام، إذ يُقبل منهم الجزية، وكذا اليهود ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة ﷺ، وقال: يتعيَّن كونُهم مُرتدِّين أو مشركي العرب، لأنهم الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومثلُ مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي ﷺ، فعنده لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس.

وأنت تعلم أنَّ مَنْ فسَّر القومَ بذلك يُفسِّر الإسلام بالانقياد، وهو يكون بقبول الجزية، فلا يتمُّ له أمرُ النفي، فلا تغفل.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ الداعي فيما دعاكم إليه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو - على ما قيل - الغنيمة في الدينا والجنة في الأخرى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ لِتضاعف جُرمكم، وهذا التعذيب قال في «البحر»(١): يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة. ويَحتمِلُ عندي - وهو الأوفق بما قبله على ما قيل - كونه فيهما، ولا بأس بكون كلٍّ من الإيتاء والتعذيب في الآخرة، بل لعله المُتبادر لكَثْرة استعمالهما في ذلك، ولا يحسنُ كون الأمرين في الدنيا، ولا كون الأول في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا، والثاني في الدنيا فقط.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي: إثم ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلُّف عن الغزو لِمَا بهم من العُذر والعاهة، وفي نفي الحَرَج عن كلٍّ من الطوائف المعدودة مزيدُ اعتناء بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرُّخصة، وليس في نفي ذلك عنهم نهيٌ لهم عن الغزو، بل قالوا: إنَّ أجرهم مُضاعَفٌ في الغزو، وقد غزا ابنُ أمِّ مكتوم وكان أعمى ﷺ، وحضر في بعض حروب القادسية وكان يُمسك الراية.

وفي «البحر»(٢): لو حُصِرَ المسلمون، فالفرضُ مُتوجِّه بحسب الوسع في الجهاد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكِرَ من الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ لا يُقادَر قَدْرُه، والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعمُّ من المعنى بهما فيما سبق كما يُنبئ عن ذلك التعبير بـ «من» هنا وبضمير الخِطاب هناك.

وقيل في الوعيد: «يُعذِّبه» إلخ، دون: يُدخله ناراً، ونحوه مما هو أظهرُ في المُقابلة؛ لقوله تعالى: «يدخله جنات» إلخ = اعتناءً بأمره من حيث إنَّ التعذيبَ يوم القيامة عذاباً أليماً يستلزمُ إدخالَ النار، وإدخالها لا يستلزم ذلك، واعتنى به لأنَّ المقامَ يقتضيه، ولذا جيء به كالمُكَرَّر مع الوعيد السابق. ويكفي في الإشارة إلى سبق الرحمة إخراجُ الوعد هاهنا كالتفصيل لما تقدَّم، والتعبيرُ هناك بإيتاء الأجر الحَسن الظاهر في الاستحقاق مع إسناد الإيتاء إلى الاسم الجليل نفسِهِ، فتأمَّل فَلمسلك الذِّهن اتساع.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع: «نُدخله» و«نُعذبه» بالنون فيهما(١).

ولما ذكر سبحانه حالَ مَنْ تخلَّف عن السفر مع رسول الله ﷺ ذَكَر عز وجل حال المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهم أهلُ الحديبية إلا جدَّ بن قيس فإنه كان منافقاً ولم يُبايعْ.

وأصلُ هذه البيعة ـ وتُسمَّى: بيعةَ الرضوان؛ لقول الله تعالى فيها: «لقد رضي» إلخ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل الحديبيةَ بعثَ خِرَاشاً ـ بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألفٍ بعدها شينٌ معجمةٌ ـ ابنَ أُمية الخُزاعيَّ رسولاً إلى أهل مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، يُعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريدُ قتالاً، فلما أتاهم وكلَّمهم عَقَروا جَمَلَه وأرادوا قَتْله، فمنعه الأحابيش، فَخَلَّوا سبيلَه حتى

(١) قراءة ابن عامر ونافع وأبي جعفر في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/٢٤٨، وقراءة الحسن وقتادة والأعرج وشيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٥.

أتى الرسولَ ﷺ، فدعا عمر ﷺ ليبعثَه، فقال: يا رسول الله، إنَّ القومَ قد عَرَفوا عداوتي لهم وغِلَظي عليهم، وإني لا آمنُ وليس بمكة أحدٌ من بني عَدِي يغضب لي إنْ أُوذيتُ، فأَرْسِل عثمان بن عفان، فإنَّ عشيرتَه بها وهم يُحِبُّونه، وإنه يُبلِّغ ما أردتَ، فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ فأرسله إلى قريش وقال: «أَخبِرْهم أنَّا لم نأتِ بقتال وإنما جئنا عُمَّاراً، وادعُهم إلى الإسلام» وأمره عليه الصلاة والسلام أنْ يأتيَ رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات، فيبشِّرهم بالفتح ويُخبرهم أنَّ الله تعالى قريباً يُظهر دِيْنَه بمكة، فذهب عثمانُ ﷺ إلى قريش وكان قد لَقِيَه أبانُ بن سعيد بن العاص فنزل عن دابَّته وحملَه عليها وأجاره، فأتى قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئتَ فَطُفْ بالبيت، وأما دخولكم علينا فلا سبيلَ إليه، فقال ﷺ: ما كنتُ لأَطوفَ به حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، فاحْتَبَسُوه، فبلغَ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرحُ حتى نُناجِزَ القومَ» ونادى مُناديه عليه الصلاة والسلام: ألا إنَّ روحَ القُدُس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمره بالبيعة، فاخرجوا على اسمِ الله تعالى فبايعوه، فثار المسلمون إلى رسولِ الله ﷺ وبايعوه[1].

قال جابر ـ كما في «صحيح مسلم» وغيره ـ: بايعناه ﷺ على أنْ لا نَفِرَّ، ولم نُبايعه على الموت[2].

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أيِّ شيء تُبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[3].

وأخرج مسلم عن مَعْقِل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسولِ الله ﷺ وهو يُبايع الناسَ[4].

وكان أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يومئذ أبا سنان، وهو وهبُ بن محصن أخو

---

(١) ينظر السيرة النبوية ٢/ ٣١٥-٣١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٣-١٣٤.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧).
(٣) صحيح البخاري (٢٩٦٠)، وهو في مسند أحمد (١٦٥٠٩)، وصحيح مسلم (١٨٦٠).
(٤) صحيح مسلم (١٨٥٨).

عُكاشة بن محصن. وقيل: سنان بن أبي سنان، وروى الأول البيهقي في «الدلائل» عن الشعبي، وأنه قال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: ابْسُطْ يدكَ أبايعك، فقال النبيُّ ﷺ: «علامَ تبايعني؟» قال: على ما في نَفْسِكَ[(١)]. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلمٌ أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمرُ رضي الله عنه آخذٌ بيده[(٢)]. ولعلَّ ذلك ليس في مبدأ البيعة، وإلا ففي «صحيح البخاري» عن نافع أنَّ عمرَ رضي الله عنه يومَ الحديبية أرسل ابنَه عبدَ الله إلى فَرسٍ له عند رجل من الأنصار أنْ يأتيَ به ليقاتلَ عليه ورسول الله ﷺ يُبايع عند الشجرة وعمرُ لا يدري بذلك، فبايعه عبدُ الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمرَ وعمرُ رضي الله عنه يستلئمُ للقتال[(٣)]، فأخبره أنَّ رسولَ الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة، فانطَلَقَ فذهبَ معه حتى بايع رسولَ الله ﷺ[(٤)].

وصحَّ أنه ﷺ ضرب بيده اليُمنى على يدِه الأخرى، وقال: «هذه بيعةُ عثمانَ»[(٥)].

ولما سَمِعَ المشركون بالبيعة خافوا وبَعثوا عثمانَ رضي الله عنه وجماعةً من المسلمين. وكانت عِدة المؤمنين ألفاً وأربع مئة على الأصحِّ عند أكثر المُحدِّثين، ورواه البخاري عن جابر[(٦)]، وروَى عن سعيد عن قتادة[(٧)] قال: قلتُ لسعيد بن المسيَّب بلغني أنَّ جابر بن عبد الله كان يقول: كانوا أربعَ عشرةَ مئة، فقال لي سعيد: حدثني جابر كانوا خمسَ عشرةَ مئة الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ، وتابعه أبو داود[(٨)]. وروى أيضاً عن عبد الله بن أوفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاثَ مئة[(٩)]، وعند

---

(١) دلائل النبوة ٤/ ١٣٧، وإسناده منقطع.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧) وسلف جزء منه قريباً.
(٣) اسْتَلْأَمَ: لَبِسَ لَأْمَتَهُ، واللَّأمة: الدرع. المصباح (لوم).
(٤) صحيح البخاري (٤١٨٦).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٦) برقم (٤١٥٤).
(٧) في الأصل و(م): سعيد بن قتادة، وهو تحريف.
(٨) صحيح البخاري (٤١٥٣)، وقوله: تابعه أبو داود. أي: الطيالسي كما في فتح الباري ٧/ ٤٤٣، والخبر في مسنده (١٧٢٩).
(٩) أخرجه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

[ابن] أبي شيبة من حديث سَلَمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبعَ مئة. وجزم موسى بن عُقبة بأنهم كانوا ألفاً وستَّ مئة[(١)]، وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسُ مئة وخمسة وعشرون[(٢)].

وجُمع بين الروايات بأنها بناءً على عَدِّ الجميع أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط، أو نحو ذلك[(٣)]؛ وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعَ مئة[(٤)]، فلم يُوافقه أحدٌ عليه لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: تنحر البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة. وهذا لا يدلُّ على أنهم ما كانوا نحروا غير البُدن مع أنَّ بعضَهم كأبي قتادة لم يكن أحرمَ أصلاً.

والشجرة كانت سَمُرةً، والمشهور أنَّ الناسَ كانوا يأتونها فيصلُّون عندها، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأمر بقطعها خشيةَ الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادةِ غير الله تعالى فيهم.

وفي «الصحيحين» من حديث طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقتُ حاجًّا، فمررت بقوم يُصلُّون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرةُ حيث بايعَ رسولُ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، فأتيت سعيدَ بن المُسيَّب فأخبرته فقال: حدَّثني أبي أنه كان ممن بايعَ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المُقبل نسيناها فلم نقدر عليها، ثم قال سعيد: إنَّ أصحابَ محمد ﷺ لم يعلموها وعَلِمتموها أنتم! فأنتم أعلم[(٥)]؟

والرِّضا يُقابل السَّخط، وقد يُستعمل بـ «عن» والباء، ويُعدَّى بنفسه، وهو مع «عن» إنما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبار صدور معنًى منه يُوجب

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٤٠، وذَكَر حديث ابن أبي شيبة الذي قبله، ولفظة: ابن. لم ترد في الأصل و(م)، واستدركت منه، والخبر عند ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٣٨.

(٢) الطبقات ٢/ ٩٥.

(٣) ينظر فتح الباري ٧/ ٤٤٠.

(٤) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٥) صحيح البخاري (٤١٦٣)، وصحيح مسلم (١٨٥٩). ووقع في الأصل و(م): فأيكم أعلم؟ والمثبت من الصحيحين.

الرضا، وما في الآية من هذا القِسْم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المُبايعة، وإذا ذكر مع العين معنى بالباء، فقيل: رضيتُ عن زيد بإحسانه، كانت الباء للسببية، وجاز أن تكونَ صلةً، وتتعيَّن للسببية مع مُقابلةِ نحوِ: سَخِطتُ عليه بإساءته، وهو مع الباء نحو: رَضِيتُ به، يجب دخولُه على المعنى، إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكونَ أبلغَ فتقول: رضيتُ بقضاء الله تعالى، ورضيتُ بالله تعالى ربًّا وقاضياً، وإذا عُدِّي بنفسه جاز دخولُه على الذات نحو: رضيتُ زيداً، وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أنَّ كلَّه مرضيٌّ بتلك الخَصْلة، وفيه مبالغةٌ. وجاز دخولُه على المعنى، كـ : رضيتُ إمارةَ فلان. والأولُ أكثرُ استعمالاً، وإذا استعمل مع اللام تعدَّى بنفسه كقولك: رضيتُ لك التجارةَ. وفيه تجوُّز، إما لجعل الرِّضا مجازاً عن الاستحماد، وإما لأنك جعلتَ كونه مرضيًّا له بمنزلة كونه مرضيًّا لك مبالغةً في أنه في نفسه مرضيٌّ محمود، وأنك تختار له ما تختار لنفسك، وهذا أبلغُ.

ثم هو في حقِّ الحقِّ تعالى شأنُه مُحالٌ عند الخَلَف، قالوا: لأنه سبحانه لا تحدثُ له صفةٌ عقيبَ أمرٍ ألبتة، فهو عندهم مجازٌ إما من أسماء الصفات إذا فُسِّر بإرادة أن يُثيبهم إثابةَ مَنْ رضي عمَّن تحت يدِه، وإما من أسماءِ الأفعال إذا فُسِّر بالإثابة، وكذا إذا أُريد الاستحماد.

وفي «البحر»: إن العاملَ بـ «إذ» في الآية هو «رضي»، وهو هنا بمعنى إظهار النعم عليهم، فهو صفةُ فعل لا صفة ذات لِيتقيَّد بالزمان(١). وأنت تعلم أنَّ السَّلف لا يُؤَوِّلون مثل ذلك ويُثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، ويَصْرِفون الحدوثَ الذي يستدعيه التقييدُ بالزمان إلى التعلّق. ثم إنَّ تقييدَ الرِّضا بزمان المُبايعة يُشعر بِعِلِّيتها له، فلا حاجةَ إلى جعل «إذْ» للتعليل.

والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار صورة المُبايعة. وقوله سبحانه: «تحت الشجرة» إما مُتعلِّقٌ بـ «يبايعونك» أو بمحذوف هو حالٌ من مفعوله، وفي التقييد بذلك إشارةٌ إلى مَزيد وقعِ تلك المُبايعة وأنها لم تكن عن خوفٍ منه عليه الصلاة والسلام، ولذا

---

(١) البحر ٩٦/٨، وفيه: لتقييده بالزمان.

استوجَبتْ رضا الله تعالى الذي لا يُعادله شيء ويستتبع ما لا يكادُ يخطرُ على بال، ويكفي فيما ترتَّب على ذلك ما أخرج أحمدُ عن جابر، ومسلم عن أمِّ بِشر[1] عنه[2]، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايعَ تحت الشجرة»، وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصةَ فقالت: بلى يا رسولَ الله، فانتهرها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. فقال عليه الصلاة والسلام: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢][3].

وصحَّ برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض»[4] فينبغي لكلٍّ من يدَّعي الإسلام حُبّهم وتعظيمهم والرضا عنهم، وإنْ كان غير ذلك لا يضرُّهم بَعْدَ رضا الله تعالى عنهم، وعثمان منهم، بل كانت يدُ رسول الله ﷺ له ﷺ ـ كما قال أنس[5] ـ خيراً من أيديهم لأنفسهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصِّدق والإخلاص في مُبايعتهم، ورُوي نحو ذلك عن قتادة وابن جُريج وعن الفراء[6]. وقال الطبري ومنذر بن سعيد: من الإيمان وصحته وحُبِّ الدين والحِرص عليه[7]. وقيل: من الهمّ والأَنفة من لين الجانب للمشركين وصُلحهم، واستحسنه أبو حيَّان[8]، والأولُ عندي أحسنُ.

وهو عطف على «يبايعونك» لما عرفتَ من أنه بمعنى: بايعوك. وجُوِّز عطفُه على «رَضِيَ» بتأويله بـ: ظهرَ عِلْمُه، فيصير مُسبَّباً عن الرِّضا مُترتباً عليه.

---

(١) في صحيح مسلم: أم مُبَشِّر. قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ٤/ ٧٠١: أم مُبَشِّر الأنصارية امرأة زيد بن حارثة، ثم قال: زعم الدمياطي أن اسمها: جهينة بنت صيفي وأنها زوجة البراء بن معرور وأمُّ ولديه: بشر ومُبَشِّر، وخلف عليها بعده زيد بن حارثة.

(٢) كذا وقع في الأصل و(م): عنه، وهو وهم، فالحديث في صحيح مسلم من رواية جابر عن أم مبشر عن النبيِّ ﷺ.

(٣) مسند أحمد (١٤٧٧٨)، وليس فيه ذكر حفصة ﷺ، وصحيح مسلم (٢٤٩٦)، واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري (٤١٥٤)، وصحيح مسلم (١٨٥٦)(٧١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢).

(٦) ذكره عن الفراء القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣١٩.

(٧) البحر ٨/ ٩٦، وهو في تفسير الطبري ١/ ٢٧٧ بنحوه.

(٨) البحر ٨/ ٩٦.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع، وقيل: بالصُّلح، وليس بذاك. والظاهرُ أنه عطفٌ على «عَلِمَ».

وفي «الإرشاد»: إنه عطف على «رضي»[١]، وظاهر كلام أبي حيان[٢] الأول، وحيث استحسن تفسيرَ ما في القلوب بما سمعتَ آنفاً قال: إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى.

وقال مقاتل: فعلم الله ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه ﷺ على الموت، فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا. وتُفسَّر «السكينة» بتذليل قلوبهم ورفعِ كراهة البيعة هنا، ولعمري إنَّ الرجل لم يعرف للصحابة ﷺ حقَّهم، وحَمَلَ كلامَ الله تعالى على خِلاف ظاهره.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن أبي ليلى وغيرهم: هو فتحُ خيبر، وكان غبَّ انصرافهم من الحديبية. وقال الحسن: فتح هَجَر، والمرادُ: هجر البحرين، وكان فتح في زمانه ﷺ بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات والدِّيات.

وفي «صحيح البخاري» أنه ﷺ صالحَ أهلَ البحرين[٣]، وأخذَ الجِزية من مجوس هَجَر[٤]. والفتحُ لا يستدعي سابقةَ الغزو كما علمت مما سبق في تفسيره، فسقطَ قولُ الطيبي معترضاً على الحسن: إنه لم يذكر أحدٌ من الأئمَّة أنه ﷺ غزا هجراً. نعم إطلاقُ الفتح على مثل ذلك قليل غيرُ شائع، بل قيل: هو معنًى مجازيٌّ له.

وقيل: هو فتح مكة، والقربُ أمرٌ نِسبيٌّ.

وقرأ الحسن ونوح القارئ: «وآتاهم»[٥]، أي: أعطاهم.

(١) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٠.
(٢) البحر ٨/ ٩٦.
(٣) صحيح البخاري (٣١٥٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.
(٤) صحيح البخاري (٣١٥٨) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٩٦.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانمُ خيبر كما قال غير واحد، وقسمها عليه الصلاة والسلام كما في حديث أحمد وأبي داود والحاكم وصحَّحه عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلاث مئة فارس وللراجل سهماً[1]. وقيل: مغانم هَجَر.

وقرأ الأعمش وطلحة ورُويس عن يعقوب، ودُلبه[2] عن يونس عن ورش، وأبو دحية وسَقْلاب[3] عن نافع، والأنطاكي عن أبي جعفر: «تأخذونها» بالتاء الفوقية[4]. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في الامتنان.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ مُراعياً لمقتضى الحِكمة في أحكامه تعالى وقضاياه جلَّ شأنه.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ـ على ما قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين ـ ما وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المُقدَّرة لكلٍّ واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِۦ﴾ أي: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف اللهُ تعالى في قلوبهم الرُّعب فنكصوا.

وقال مجاهد: كفَّ أيدي أهل مكة بالصُّلح. وقال الطبري[5]: كفَّ اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر. وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة الموعودة مغانمُ خيبر، والمُعَجَّلة البيعة والتخلُّص من أمر قريش بالصُّلح. والجمهور على ما قدَّمنا[6].

---

(١) مسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، والمستدرك ٢/ ١٣١. وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند، وينظر كذلك زاد المعاد ٣/ ٣٣٠، ونصب الراية ٣/ ٤١٦-٤١٨.

(٢) هو: عبد الله بن أحمد بن الهيثم، أبو العباس البلخي. معرفة القراء ٢/ ٥٢٤.

(٣) سقلاب بن شُنَينة، أبو سعيد المصري. توفي سنة إحدى وتسعين ومئة. معرفة القراء ١/ ٣٣٣.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٤.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٨٢.

(٦) في (م): قدمناه.

والمناسبة لما مرَّ من ذكر النبيِّ ﷺ بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ تقتضي على ما نُقل عن بعض الأفاضل أنَّ هذا جارٍ على نهج التغليب وإن احتَمل تَلوين الخطابِ فيه. وذكر الجلبي في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ إلخ أنه إنْ كان نزولُها بعدَ فتح خيبر - كما هو الظاهرُ - لا تكون السورة بتمامها نازلةً في مَرْجعه ﷺ من الحديبية، وإنْ كان قبلَه على أنها من الإخبار عن الغيب، فالإشارة بـ «هذه» لتنزيل المغانم منزلةَ الحاضرة المُشاهَدة، والتعبير بالمُضِي للتحقُّق. انتهى. واختِير الشقّ الأول. وقولهم: نزلت في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحُديبية، باعتبار الأكثر، أو على ظاهره، لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتدّ.

وتُعُقِّب بأنَّ ظاهرَ الأخبار يقتضي عدمَ الامتداد وأنها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة، فلعلَّ الأولى اختيار الشقِّ الثاني، والإشارة بـ «هذه» إلى المغانم التي أثابهم إيَّاها المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانمُ خيبر، وإذا جُعلت الإشارة إلى البيعة - كما سمعتَ عن زيد وابنه، ورُوي ذلك عن ابن عباس - لم يُحتَجْ إلى تأويل نزولها في مَرْجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير المُستتر، قيل: للكفِّ المفهوم من «كفَّ»، والتأنيث باعتبار الخبر، وقيل: للكَفَّة، فأمرُ التأنيث ظاهرٌ. وجُوِّز أن يكون لمغانم خيبر المُشار إليها بهذه.

والآية: الأمارة، أي: ولتكونَ أمارةً للمؤمنين يعرِفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، أو يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ في وَعْده إياهم فتحَ خيبر، وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام. واللام مُتعلِّقة إما بمحذوف مؤخَّر، أي: ولتكون آيةً لهم فَعَلَ ما فَعَلَ، أو بما تعلَّق به علَّة أُخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين، أي: فعجَّل لكم هذه، أو كفَّ أيدي الناس عنكم لِتنتفعوا بذلك، ولتكون آية، فالواو - كما في «الإرشاد»[1] - على الأول اعتراضية، وعلى الثاني

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١١٠.

عاطفة، وعند الكوفيين الواو زائدة، واللام متعلِّقة بـ «كفَّ» أو بـ «جلَّ».

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ هو الثقةُ بفضل الله تعالى والتوكُّل عليه في كلِّ ما تأتون وتذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على «هذه» في «فعجَّل لكم هذه»، فكأنه قيل: فعجَّل لكم هذه المغانمَ، وعجَّل لكم مغانمَ أُخرى، وهي مغانمُ هوازن في غزوة حُنين. والتعجيلُ بالنسبة إلى ما بعدُ، فيجوز تعدُّد المُعَجَّل كالابتداء بشيئين، وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في موضع الصِّفة، ووصفُها بعدم القُدرةِ عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ في موضع صفةٍ أُخرى لـ «أُخرى» مفيدةٍ لسهولة تأتِّيها بالنسبة إلى قُدرته عز وجل بعد بيانِ صعوبة مَنالها بالنظر إلى قُدرتهم، والإحاطةُ مجازٌ عن الاستيلاء التامِّ، أي: قد قدر اللهُ تعالى عليها واستولى، فهي في قبض قُدرته تعالى يُظهر عليها مَنْ أراد، وقد أظهركم جلَّ شأنه عليها وأظفركم بها. وقيل: مجازٌ عن الحفظ، أي: قد حَفِظها لكم، ومنعها من غيركم. والتذييل بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أوفقُ بالأول، وعمومُ قُدرته تعالى لكونها مُقتضَى الذات، فلا يمكن أن تتغيرَ ولا أن تتخلَّف وتزول عن الذات بسببٍ مّا كما تقرَّر في موضعه، فتكون نسبتُها إلى جميع المقدورات على سواءٍ من غير اختصاص ببعضٍ منه دون بعض، وإلا كانت متغيرةً[1]، بل مختلفةً[2].

وجُوِّز كون «أُخرى» منصوبةً بفعل يُفسِّره: «قد أحاط الله بها»، مثل: قضى.

وتُعُقِّب بأنَّ الإخبارَ بقضاء الله تعالى بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى: (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) ليس فيه مزيدُ فائدة، وإنما الفائدةُ في بيان تعجيلها، وأُورد عليه أنَّ المغانمَ الكثيرةَ الموعودة ليست مُعينة لِيدخل فيها الأخرى، ولو سُلِّم فليس المقصودُ بالإفادة كونَها مقضيَّةً، بل ما بعدَه، فتدبَّر.

---

(١) في (م): متغايرة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٦٤، والكلام منه.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب: متخلِّفة، وهو الصواب.

وجُوِّز كونها مرفوعةً بالابتداء، والجملة بعدَها صفة، وجملة: «قد أحاط» إلخ خبرُها، واستَظْهَرَ هذا الوجهَ أبو حيان[١].

وقال بعض: الخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: ثمَّت، أو نحوه.

وجوَّز الزمخشري[٢] كونَها مجرورةً بإضمار «رُبَّ» كما في قوله:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَه[٣]

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ فيه غَرابةً لأنَّ «رُبَّ» لم تأتِ في القرآن العظيم جارَّة مع كَثْرة وُرود ذلك في كلام العرب، فكيف تُضْمَر هنا[٤]؟ وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذه الغرابة لا تَضُرُّ.

هذا، وتفسيرُ الأُخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حُميد عن عكرمة عن ابن عباس، واختاره غير واحد. وقال قتادة والحسن: هي مكة، وقد حاولوها عامَ الحُديبية ولم يُدركوها فأخبروا بأنَّ الله تعالى سَيُظْفِرهم بها ويُظهرهم عليها.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس والحسن ـ ورُويت عن مقاتل ـ أنها بلادُ فارس والروم وما فتحه المسلمون، وهو غيرُ ظاهرٍ على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعدَ اللهُ تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة، وأيضاً تعقَّبه بعضُهم بأن «لم تقدروا عليها» يُشعر بتقدُّم محاولة لتلك البلاد وفَوات دَرْكها المطلوب مع أنه لم تتقدَّم محاولة.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هي خيبر[٥]. وروى ذلك عن الضحاك و[ابن][٦] إسحاق وابن زيد أيضاً، وفيه خَفاء فلا تَغْفُلْ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٣) البيت من معلقة امرئ القيس، وعجزه: عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي. الديوان ص١٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٥، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م). وأثبتناه من تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من أهل مكة ولم يُصالحوكم، كما رُوي عن قتادة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنهم حليفا أهل خيبر: أسد وغَطَفان(١). وقيل: اليهود، وليس بذاك ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لانهزموا، فتوليةُ الدُّبر كنايةٌ عن الهزيمة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْرُسُهم، وذكر الخَفاجيُّ(٢) أنَّ الحارسَ أحدُ معاني الوَلِيّ، وتفسيره هنا بذلك لمناسبته للمنهزم. وقال الراغب(٣): كلُّ مَنْ وَلِيَ أمرَ آخر فهو وَلِيُّه، وعليه فالحارسُ وَلِيٌّ؛ لأنَّه يَلي أمرَ المَحروس، والتنكيرُ للتعميم، أي: لا يجدون فرداً مّا من الأولياء ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ولا فرداً مّا من الناصرين ينصرهم، وقال الإمام(٤): أُريد بالولي مَنْ ينفع باللُّطف، وبالنصير مَنْ ينفع بالعُنف.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف، أي: سنَّ سبحانه غلبةَ أنبيائه عليهم السلام سنةً قديمة فيمن مضَى من الأُمم كما قال سبحانه: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] على ما هو المتبادر من معناه، ولعلَّ المرادَ أنَّ سنتَّه تعالى أن تكونَ العاقبةُ لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكُفَّارَ غلبوهم وهزموهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ تغييراً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي كُفَّارِ مكة، وفي التعبير بـ «كفَّ» دون: منع، ونحوه، لطفٌ لا يخفى ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحُديبية كما أخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة(٥). وقد تقدَّم أن بعضَها من حرمِ مكة، وإن لم يُسلَّم فالقُرب التامُّ كافٍ، ويكون إطلاقُ «بطن مكة» عليها مُبالغةً.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِراً لكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فتعديةُ الفعل بـ «على» لِتضمُّنه ما يتعدَّى به وهو الإظهار والإعلاء، أي: جعلكم ذوي غَلَبة تامَّة. أخرج الإمام

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٥.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٦٤.

(٣) المفردات (ولي).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٩٠.

أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حُميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي في آخرين عن أنس قال: لما كان يومُ الحديبيةِ هبطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قِبَلِ جبل التنعيم يُريدون غِرَّةَ رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأُخِذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1].

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه وأبو نُعيم في «الدلائل» عن عبد الله بن مُغَفَّل[2] قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، إلى أن قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا إلى وجوهنا، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ فأَخَذَ الله تعالى بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم: بأبصارهم[3] ـ فَقُمنا إليهم، فأخذناهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحدٍ، أو: هل جعل لكم أحدٌ أماناً»؟ فقالوا: لا، فخلَّى سبيلَهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ إلخ[4].

وأخرج أحمد وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: قَدِمنا الحُديبيةَ مع رسول الله ﷺ ونحن أربعَ عشرةَ مئة، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا إلى الصُّلح، فلما اصطلحنا واختلط بعضُنا ببعض أتيت شجرةً فاضطجعتُ في ظِلِّها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهل مكة، فجعلوا يَقَعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم وتحوَّلتُ إلى شجرة أُخرى فعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل: يا للمهاجرين[5] قُتِلَ ابنُ زُنَيم! فاخترطتُ سيفي فشَدَدْتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ فأخذتُ سلاحَهم وجعلته في يدي، ثم قلت: والذي كرَّم وجهَ محمد لا يرفع

(١) مسند أحمد (١٢٢٢٧)، ومسند عبد بن حميد (١٢٠٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٨)، وسنن أبي داود (٢٦٨٨)، وسنن الترمذي (٣٢٦٤)، وسنن النسائي الكبرى (٨٦١٤)، والغِرّة: الغفلة. أي: يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم ليتمكّنوا من غدرهم.

(٢) في الأصل و(م): عبد الله بن معقل، وهو تحريف.

(٣) وهو لفظ أحمد والنسائي.

(٤) مسند أحمد (١٦٨٠٠)، وسنن النسائي (١١٤٤٧)، والمستدرك ٢/ ٤٦٠-٤٦١، ولم نقف عليه في مطبوع دلائل النبوة لأبي نعيم.

(٥) في الأصل و(م): ما للمهاجرين، والمثبت من المصادر.

أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه، ثم جئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عمِّي عامرٌ برجل يقال له: مِكْرز، من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله ﷺ وقال: «دعوهم يكون لهم بَدْءُ الفجور وثِناه»، فعفا عنهم رسولُ الله ﷺ، وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1]. وهذا كلُّه يُؤيِّد ما قلناه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال: لما خرج النبيُّ ﷺ بالهَدْي وانتهى إلى ذي الحُليفة قال له عمر[2]: يا نبيَّ الله تدخل على قوم لك حربٌ بغير سلاح ولا كُراع؟ فبعث إلى المدينة فلم يَدَعْ فيها كُراعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخلَ فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينُه أنَّ عكرمةَ ابن أبي جهل قد جمع عليك في خمس مئة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالدُ، هذا ابنُ عَمِّك قد أتاك في الخيل» فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله ـ فيومئذ سُمِّي: سيف الله ـ يارسولَ الله، ارمِ بي إنْ شئتَ، فبعثه على خيل، فلقيه عكرمةُ في الشِّعب فهزمه حتى أدخله حيطانَ مكةَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ الآية[3].

وفي «البحر» أنَّ خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوتَ مكة وأَسرَ منهم جملة، فَسِيقوا إلى رسول الله ﷺ فمنَّ عليهم وأطلقهم[4].

والخبر غيرُ صحيح لأن إسلامَ خالدٍ ﵁ بعدَ الحديبية قبلَ عُمرة القضاء، وقيل: بعدَها، وهي في السنة السابعة.

وروى ابن إسحاق وغيره أنَّ خالداً كان يوم الحديبية على خيل قريش في مئتي فارس قدم بهم إلى كُراع الغميم، فدنا حتى نظر إلى أصحاب النبيِّ ﷺ فأمر

(١) مسند أحمد (١٦٥١٨)، وأخرجه مسلم (١٨٠٧)، ومعنى: «بدء الفجور وثناه»: أوله وآخره، والثني: الأمر يعاد مرَّتين. النهاية (ثني).

(٢) في الأصل و(م): عمي، وهو تحريف، والمثبت من المصادر.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

رسولُ الله ﷺ عبَّادَ بن بِشر، فتقدَّم بخيله فقام بإزائه، وصفَّ أصحابه وحانت صلاةُ الظهر، فصلى رسولُ الله عليه الصلاة والسلام بأصحابه صلاةَ الخوف.

وعن ابن عباس أنَّ أهل مكة أرسلوا جملةً من الفوارس في الحديبية يُريدون الوقيعة بالمسلمين، فأَظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وأنكر بعضُهم ذلك، والله تعالى أعلمُ بصحة الخبر.

وقيل: كان هذا الكَفُّ يومَ فتح مكة.

واستشهد الإمام أبو حنيفة بما في الآية من قوله تعالى: ﴿بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ بناءً على هذا القول لِفتح مكة عُنوة. واعتُرض القولُ المذكور والاستشهادُ بالآية بناء عليه.

أما الأول: فلأنَّ الآيةَ نزلت قبلَ فتح مكة. وتُعُقِّب بأنه إنْ أُريد أنها نزلت بتمامها قبلَه فليس بثابت، بل بعضُ الآثار يُشعر بخلافه، وإلا فلا يُفيد، مع أنه يجوز أن يكونَ هذا إخباراً عن الغيب كما قيل ذلك في غيره من بعض آيات السورة.

وأما الثاني: فلأنَّ دلالتها على العُنوة ممنوعة، فقد قال الزمخشري(١): الفتحُ: هو الظَّفَر بالشيء سواء كان عُنوةً أو صُلحاً. والفرقُ بين الظَّفَر على الشيء والظَّفر به من حيث الاستعلاءُ، وهو كائنٌ، لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون، ورسول الله ﷺ ومن معه مُختارون، وفيه دَغْدغة لا تخفى؛ وكذا فيما تُعُقِّب به الأول.

وبالجملة هذا القولُ وكذا الاستشهاد بما في الآية بناء غيرُ بعيد إلا أنَّ أكثرَ الأخبار الصحيحة وكذا ما بعدُ يُؤيِّد ما قلناه أولاً في تفسير الآية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه، ومنه العفو بعد الظَّفر ﴿بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيُجازيكم عليه.

وقرأ أبو عمرو: «يعملون» بياء الغيبة(٢)، فالكلام عليه تهديدٌ للكُفَّار.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤١.

(٢) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أنْ تَصِلُوا إليه وتطوفوا به ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ بالنصب عطفٌ على الضمير المنصوب في «صدوكم»، أي: وصدُّوا الهديَ، وهو ما يُهدَى إلى البيت، قال الأخفش: الواحدة: هَدْية، ويقال للأُنثى: هدي، كأنه مصدرٌ وُصِفَ به.

وفي «البحر»: إسكانُ داله لغةُ قريش، وبها قرأ الجمهور. وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو بكسر الدال وتشديد الياء، وذلك لغة[1]، وهو فَعيل بمعنى مفعول على ما صرَّح به غيرُ واحد.

وكان هذا الهَدْي سبعين بدنة على ما هو المشهور، وقال مقاتل: كان مئة بدنة.

وقرأ الجُعفي عن أبي عمرو: «الهَدْيِ» بالجرِّ على أنه عطفٌ على المسجد الحرام بحذف المضاف، أي: ونحر الهدي. وقُرئ بالرفع على إضمار: وصُدَّ الهَدْيُ[2].

وقوله سبحانه: ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال من «الهدي» على جميع القراءات. وقيل: على قراءة الرفع يجوز أن يكون «الهديُ» مبتدأ، والكلام نحو: حُكْمكَ مُسَمَّطاً، وقوله تعالى: «ونحن عصبةً» على قراءة النصب، وهو كما ترى.

والمعكوفُ: المحبوس، يقال: عَكَفْتُ الرجلَ عن حاجتِه: حبسته عنها، وأنكر أبو عليٍّ تعدية عكف، وحكاها ابن سِيده والأزهري[3] وغيرهما، وظاهرُ ما في الآية معهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدلُ اشتمال من «الهَدْي»، كأنه قيل: وصَدُّوا بلوغَ الهدي مَحِلَّه، أو: صدُّوا عن بلوغ الهدي، أو: وصُدَّ بلوغ الهَدْي، حسب اختلاف القراءات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٨، وفيه بدل «وذلك لغة»: وهما لغتان.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٨.
(٣) تهذيب اللغة ١/ ٣٢١.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً من أجله للصدِّ، أي: كراهةَ أن يبلغ مَحِلَّه، وأن يكون مفعولاً من أجله مجروراً بلام مُقدَّرة لـ «معكوفاً»، أي: محبوساً لأجلِ أن يبلغَ مَحِلَّه، ويكون الحبسُ من المسلمين. وأن يكون منصوباً بنزع الخافض، وهو «مِن» أَوْ «عن»، أي: محبوساً مِنْ أَوْ عن أن يبلغَ مَحِلَّه، فيكون الحبسُ من المشركين على ما هو الظاهر.

ومحلُّ الهدي مكان يَحِلُّ فيه نحرُه، أي: يسوغ، أو: مكان حلُوله، أي: وجوبه ووقوعه كما نُقل عن الزمخشري[1]، والمرادُ مكانه المعهودُ، وهو منًى، أما على رأي الشافعي رضي الله عنه فلأن مكانه لمن مُنِعَ حيث مُنِعَ، فيكون قد بلغ مَحِلَّه بالنسبة إلى النبيِّ ﷺ ومَنْ معه، ولذا نحروا هناك أعني في الحديبية. وأما على رأي أبي حنيفة رضي الله عنه فلأن مكانَه الحرم مطلقاً وبعض الحديبية حرمٌ عنده؛ وقد رووا أن مضاربَ رسول الله ﷺ كانت في الحِلِّ منها ومُصَلَّاه في الحرم، والنحرُ قد وقع فيما هو حرمٌ، فيكون الهَدْي بالغاً مَحِلَّه غيرَ معكوف عن بلوغه، فلا بُدَّ من إرادة المعهودِ ليتسنَّى ذلك. وزعم الزمخشري[2] أنَّ الآية دليلٌ لأبي حنيفة على أنَّ الممنوعَ مَحِلُّ هَدْيِهِ الحرمُ، ثم تكلَّم بما لا يخفى حاله على مَنْ راجعه.

ومن الناس مَنْ قَرَّر الاستدلال بأنَّ المسجدَ الحرام يكون بمعنى الحَرَم، وهم لما صدُّوهم عنه ومَنَعوا هَدْيَهم أنْ يَدْخُلَه فيَصِل إلى مَحِلِّه، دلَّ بحسب الظاهر على أنه مَحِلُّه، ثم قال: ولا يُنافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر في طرفٍ منه، كما لا يُنافي الصَّدَّ عنه كونُ مُصلَّاه عليه الصلاة والسلام فيه، لأنهم منعوهم فلم يمتنعوا بالكُلِّية، وهو كما ترى.

والإنصافُ أنه لا يتمُّ الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلاً.

وطَعَنَ بعضُ أَجِلَّة الشافعية في كون شيء من الحديبية من الحرم، فقال: إنه خلافُ ما عليه الجمهور، وحدودُ الحرم مشهورةٌ من زمن إبراهيمَ عليه السلام،

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

ولا يُعتدُّ بروايةٍ شذَّ بها الواقديُّ، كيف وقد صرَّح بخلافها البخاريُّ في «صحيحه» عن الثِّقات[(١)]، والرواية عن الزهري ليست بثبت[(٢)]. انتهى.

ولعلَّ من قال بأنَّ بعضَها من الحرم استند في ذلك إلى خبرٍ صحيح. ومن قواعدِهم أن المُثْبتَ مُقَدَّمٌ على النافي، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة «رجال» و«نساء» على تغليب المُذَكَّر على المُؤنَّث. وكانوا على ما أخرج أبو نُعيم ـ بسند جيد ـ وغيرُه عن أبي جمعة جنبذ بن سبع: تسعةَ نفر؛ سبعة رجال ـ وهو منهم ـ وامرأتين[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم، وجُوِّز كونه بدلاً من الضمير المنصوب في «تعلموهم»، واستبعده أبو حيان[(٤)].

والوطء: الدَّوس، واستُعير هنا للإهلاك، وهي استعارةٌ حسنة واردةٌ في كلامهم قديماً وحديثاً، ومن ذلك قول الحارث بن وَعْلة الذُّهْلي:

وَوَطِئْتَنا وطأً على حَنَقٍ ... وَطْءَ المقيَّد نابِتَ الهَرْمِ[(٥)]

وقوله ﷺ من حديث: «وإنَّ آخرَ وطأةٍ وَطِئها الله تعالى بِوَجٍّ»[(٦)]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضَر»[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري، باب من قال: ليس على المحصر بدل، قبل حديث (١٨١٣) وفيه: . . . والحديبية خارجٌ من الحرم. وعزاه لمالك وغيره.
(٢) سلف ٣/ ١٧٨.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٩، وعزاه لجماعة منهم الطبراني في الكبير (٢٢٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٦٠)، مع اختلاف ألفاظهما. قال الهيثمي في مجمع زوائد ٩/ ٣٨٩: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات. وجنبذ بن سبع، يقال له أيضاً: جُنيد، وحبيب بن سباع، ووقع في مطبوع الدر المنثور: حنيذ. ينظر توضيح المشتبه ٣/ ١٠٦.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.
(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٦.
(٦) أخرجه أحمد (٢٧٣١٤) من حديث خولة بنت حكيم ﵂، والمراد بـ «وجّ»: الطائف، أي: آخر قتال المسلمين كان بالطائف؛ فجعل ذلك وطأة الله، لأنه بأمره.
(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة ﵁.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من جهتهم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: مكروه ومَشَقَّةٌ، مأخوذٌ من العُرِّ والعُرَّة، وهو الجَرَب الصعب اللازم، وقال غير واحد: هي مَفْعلة من عَرَّه: إذا عراه ودهاه ما يكره. والمرادُ بها هنا على ما رُوي عن منذر بن سعيد تعييرُ الكُفَّار وقولهم في المؤمنين: إنهم قتلوا أهلَ دينهم.

وقيل: التأسُّف عليهم وتألُّم النفس مما أصابهم.

وقال ابن زيد: المأثم بقتلهم. وقال ابن اسحاق: الدِّية. قال ابن عطية[1]: وكلا القولين ضعيف لأنه لا إثمَ ولادِيَةَ في قتل مؤمن مستورِ الإيمان بين أهل الحرب. وقال الطبري[2]: هي الكفَّارة. وتَعقَّب بعضُهم هذا أيضاً بأنَّ في وجوبِ الكفارة خلافاً بين الأئمة. وفي «الفصول العمادية»: ذكر في تأسيس النظائر في الفقه: قال أصحابنا: دار الحرب تمنعُ وجوبَ ما يَندرئ بالشُّبهات؛ لأن أحكامنا لا تجري في دارهم، وحكمُ دارهم لا يجري في دارنا، وعند الشافعي: دارُ الحرب لا تمنع وجوب ما يندرئ بالشبهات، بيان ذلك: حربيٌّ أسلمَ في دار الحرب وقَتَل مسلماً دَخَلَ دارهم بأمان، لا قِصاصَ عليه عندنا ولا ديةَ، وعند الشافعي عليه القِصاص، وعلى هذا لو أن مسلمَيْنِ مستأمنين دخلا دار الحرب وقتل أحدُهما صاحبَه، لا قِصاص عليه عندنا، وعند الشافعي عليه ذلك.

ثم ذكر مسألة مختلفاً فيها بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد فقال: إذا قتل أحدُ الأسيرين صاحبَه في دار الحرب، لا شيء عليه عند أبي حنيفة وأبي يوسف إلا الكفارة؛ لأنه تبعٌ لهم فصار كواحدٍ من أهل الحرب، وعند محمد تجبُ الدِّية لأن له حُكم نفسه، فاعتبر حكم نفسه على حدة. انتهى.

ونُقل عن «الكافي» أنَّ من أسلمَ في دار الحرب ولم يُهاجر إلينا وقتله مسلمٌ عمداً أو خطأً وله ورثةٌ مسلمون ثَمَّ لا يضمن شيئاً إن كان عمداً، وإن كان خطأً ضَمِنَ الكفارة دون الدِّية. انتهى.

وتمام الكلام في هذا المقام يُطلب في مَحلّه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦.

والزمخشري[١] فسَّر المَعَرَّة بوجوب الدِّية والكفارة وسوء قالةِ المشركين والمأثم إذا جرى منهم بعضُ التقصير، وهو كما ترى.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ في موضع الحال من ضمير المُخاطَبين في «تطؤوهم»، قيل: ولا تكرارَ مع قوله تعالى: «لم تعلموهم» سواء كان «أن تطؤوهم» بدل اشتمال من «رجال» و«نساء»، أو بدلاً من المنصوب في «لم تعلموهم»، أما على الثاني فلأنَّ حاصلَ المعنى: ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاكهم وأنتم غير عالمين بإيمانهم، لأنَّ احتمال أنهم يهلكون من غير شعور مع إيمانهم سببُ الكفِّ، فيعتبر فيه العلمان، فمتعلّق العلم في الأول الوطأة، وفي الثاني أنفسهم باعتبار الإيمان. وأما على الأول فلأنَّ قوله تعالى: «بغير علم» لما كان حالاً من فاعل «تطؤوهم» كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك، كما تقول: أهلكته من غير علم، فلا الإهلاك من غير شعور ولا العلم بإيمانهم حاصلٌ، والأمران لكونهما مقصودين بالذات صُرِّح بهما وإنْ تقاربا أو تلازما في الجملة[٢].

وجُوِّز أنْ يُجعل «لم تعلموهم» كنايةً عن الاختلاط، كما يلوِّح إليه كلام «الكشاف»[٣]، وفيه ما يدفعُ التكرار أيضاً، وفي ذلك بحثٌ يدفع بالتأمُّل.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «منهم»، وأنْ يكونَ متعلِّقاً بـ «تصيبكم»، أو صفة لـ «معرَّة»، قيل: وهو على معنى: فتصيبكم منهم معرةٌ بغير علم من الذي يعرُّكم ويعيبُ عليكم، يعني: إنْ وطئتموهم غيرَ عالمين لَزِمَكم سُبَّة من الكُفَّار بغير علم، أي: لا يعلمون أنكم معذورون فيه. أو على معنى: لم تعلموا أنْ تطؤوهم فَتُصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم منكم، أي: فتقتلوهم بغير علمٍ منكم، أو: تُؤذوهم بغير علم، فافهم، ولا تَغْفُل.

وجوابُ «لولا» محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى على ما سمعت أولاً:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

(٢) ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٦٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

لولا كراهةُ أن تُهلكوا أُناساً مؤمنين بين ظَهْرانَي الكُفَّار جاهلين بهم فَيُصيبَكم بإهلاكهم مكروهٌ لَمَا كَفَّ أيديَكم عنهم.

وحاصله: أنه تعالى ولو[1] لم يكفَّ أيديَكم عنهم لانجرَّ الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظَهرانَيْهم فَيُصيبَكم من ذلك مكروهٌ، وهو عز وجل يكرهُ ذلك.

وقال ابن جريج: دفع اللهُ تعالى عن المشركين يومَ الحُديبية بأُناس من المسلمين بين أظهرهم. وظاهرُ الأول ـ على ما قيل ـ أنّ عِلَّة الكفِّ صونُ المُخاطَبين عن إصابة المَعَرَّة، وظاهرُ هذا أنَّ عِلَّته صونُ أولئك المؤمنين عن الوطء، والأمر فيه سهل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّةٌ لما يدلُّ عليه الجواب المحذوفُ على ما اختاره في «الإرشاد»[2]، كأنه قيل: لكنه سبحانه كفَّها عنهم لِيُدخلَ بذلك الكَفِّ المُؤَدِّي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم أولئك المؤمنون، وذلك بأمنهم وإزالة استضعافهم تحت أيدي المشركين، وبتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتمِّ، والتعبيرُ عنهم بـ «من يشاء» دون الضمير بأن يقال: لِيُدخلهم اللهُ رحمته، للإشارة إلى أنَّ عِلَّةَ الإدخال المَشيئة المَبْنية على الحِكَم الجَمَّة والمصالح. وجعلَه بعضُهم عِلَّةً لما يُفهم من صونِ مَنْ بمكة من المؤمنين، والرحمةُ توفيقُهم لزيادة الخير والطاعة بإبقائهم على عملهم وطاعتهم.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» بعضُ المشركين، ويُراد بالرحمة الإسلام، فإن أولئك المؤمنين إذا صانهم الكَفُّ المذكور أظهروا إيمانهم لمعاينة قوَّة الدِّين، فيقتدي بهم الصائرون للإسلام، واستحسن بعضُهم كونه عِلَّة للكَفِّ المُعَلَّل بالصون.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» المؤمنون، فيرادُ بالرحمة التوفيقُ لزيادة الخير. والمشركون فيرادُ بها الإسلام، وبيِّن وجهُ التعليل بأنهم إذا شاهدوا منعَ تعذيبهم بعد

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: لو، دون واو.

(٢) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٢.

الظَّفَر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناءً بشأنهم رَغِبوا في الإسلام والانخراط في سِلْك المرحومين، وأنَّ المؤمنين إذا علموا منعَ تعذيب المشركين بعد الظَّفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا إيمانهم فيُقتدَى بهم. وقال[1]: لا وجهَ لجعل اللام مستعارةً من معنى التعليل لما يترتَّب على الشيء؛ لأنه عدولٌ عن الحقيقة المتبادرة من غير داعٍ. وما يظنُّ من أنَّ تعليلَ الكفِّ بما ذكر مع أنه مُعلَّلٌ بالصون فاسدٌ؛ لما فيه من اجتماع عِلَّتين على معلولٍ واحد شخصي = فاسد، لأنَّ العلل إذا لم تكن تامَّةً حقيقة لا يضرُّ تعدُّدها، وما هنا كذلك.

هذا، وجعلُ ذلك عِلَّة لما دلَّ عليه الجواب على ما سمعت أولاً أولى عندي؛ لما فيه من شدَّة التحامِ النَّظم الجليل، وحمل «مَنْ يشاء» على المؤمنين المستضعفين دون بعضِ المشركين أوفقُ بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ والتزيُّل: التفرُّق والتميُّز، وجُوِّز في ضمير «تزيَّلوا» كونُه للمؤمنين المذكورين فيما سبق، أي: لو تفرَّق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميَّزوا عن الكُفَّار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذَّبنا.. إلخ. وكونُه للمؤمنين والكُفَّار، أي: لو افترق بعضُهم من بعض ولم يبقوا مُختلطين، لعذَّبنا.. إلخ.

واختار غيرُ واحد الأول، فـ «منهم» للبيان، والمرادُ تعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي، كما قال مجاهد وغيره، وإلا لم يكن لـ «لو» موقع.

والجملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها، وجوَّز الزمخشري[2] أن يكونَ قوله تعالى: «لو تزيَّلوا» كالتكرار لقوله تعالى: «لولا رجال»؛ لأنَّ مَرْجِعَهما في المعنى شيء واحدٌ، ويكون «لعذَّبنا» هو الجوابَ لـ «لولا» السابقة. واعترضه أبو حيان[3] بأنَّ التغايرَ ظاهرٌ، فلا يكون تكراراً ولا مُشابهاً. وأُجيبَ بأنَّ كراهةَ وطئهم لعدم تميُّزهم عن الكُفَّار الذي هو مدلولُ الثاني، فيكون كبدلِ الاشتمال، ويكفي ذلك في كونه كالتكرار.

---

(١) هو الشهاب في الحاشية ٨/ ٦٧، وما قبله منه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

وقال ابن المُنَيِّر[١]: إنما كان مرجعهما واحداً وإنْ كانت «لولا» تدلُّ على امتناعٍ لوجود، و«لو» تدلُّ على امتناعٍ لامتناع، وبين هذين تَنافٍ ظاهرٌ؛ لأنَّ «لولا» هاهنا دخلَتْ على وجود، و«لو» دخلت على «تَزيَّلوا» وهو راجعٌ إلى عدمِ وجودهم، وامتناعُ عدمِ الوجود ثبوتٌ فآلا إلى أمرٍ واحد من هذا الوجه. قال: وكان جدِّي يختار هذا الوجه، ويُسمِّيه: تطريةً، وأكثر ما يكون إذا تطاولَ الكلامُ وبَعُدَ عهدُ أوَّله، واحتيج إلى بناءِ الآخر على الأول، فمرةً يُطري بلفظه، ومرةً بلفظٍ آخرَ يؤدِّي مُؤدَّاه. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ في حذف الجواب دليلاً على شدَّة غضب الله تعالى، وأنه لولا حقُّ المؤمنين لفعل بهم ما لا يدخلُ تحت الوصف ولا يُقاس، ومنه يُعلم أنَّ ذلك الوجهَ أرجحُ من جعل «لو تَزيَّلوا» بمنزلة التَّكرار للتطرية، فتطريةُ الجوابِ وتقويته أَولى وأَوفقُ لمقتضى المقام. واختار الطيبي الأول أيضاً مُعَلِّلًا له بأنه حينئذ يقربُ من باب الطرد والعكس، لأنَّ التقديرَ: لولا وجودُ مؤمنين مُختلطين بالمشركين غير متميِّزين منهم لوقع ما كان جزاءً لكفرهم وصدِّهم، ولو حصل التميizُ وارتفع الاختلاطُ لحصل التعذيبُ.

ثم إنَّ تقديرَ الجوابِ ما تقدَّم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب إليه كثير، وجَوَّز بعضُهم تقديره: لَعجَّل لهم ما يستحقُّون، وجَعَل قوله تعالى: «هم الذين كفروا» إلخ [دليلاً عليه][٢]، فكأنه قيل: هم الذين كفروا واستحقُّوا التعجيلَ في إهلاكهم، ولولا رجالٌ مؤمنون.. إلخ لعجَّل لهم ذلك، وهو أيضاً أولى من حديث التكرار.

وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن مِقْسم وأبو حيوة وابن عون: «لو تزايلوا» على وزن تفاعلوا[٣].

---

(١) الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٤٨.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٠.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٩.

وفي الآية ـ على ما قال الكيا[1] ـ دليلٌ على أنه لا يجوز خرقُ سفينةِ الكُفَّار إذا كان فيها أسرى من المسلمين، وكذلك رميُ الحصون إذا كانوا بها، والكفار إذا تترَّسوا بهم، وفيه كلامٌ في كتب الفروع.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوبٌ بـ: اذكر، على المفعولية، أو بـ «عذَّبنا» على الظرفية، أو بـ «صدُّوكم» كذلك. وقيل: بمضمر هو: أحسنَ الله تعالى إليكم، وأيًّاما كان فـ «الذين» فاعل «جعل»، ووُضِعَ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة وتعليلِ الحكم به، والجعلُ إما بمعنى الإلقاء، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ مُتعلِّق به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلِّق بمحذوف هو مفعولٌ ثانٍ له، أي: جعلوا الحَمِيَّة راسخةً في قلوبهم، ولكونها مُكتَسَبةً لهم من وجهٍ نُسب جعلها إليهم. وقال النيسابوري[2]: يجوز أن يكونَ فاعل «جعل» ضميرَ الله تعالى، و«في قلوبهم» بيان لمكان الجَعْل، ومآلُ المعنى: إذ جعلَ اللهُ في قلوب الذين كفروا الحَمِيَّة. وهو كما ترى.

والحَمِيَّةُ: الأَنَفةُ، يقال: حميت عن كذا حَمِيَّةً، إذا أَنِفْتَ منه وداخَلَكَ عارٌ منه.

وقال الراغب[3]: عبَّر عن القوَّة الغضَبية إذا ثارَتْ وكَثُرت بالحَمِيَّة، فقيل: حَميت على فلان، أي غَضِبت عليه.

وقوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ من الحَمِيَّة، أي: حَمِيَّة المِلَّة الجاهلية، أو الحَمِيَّة الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حُجَّة وفي غير موضعها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على «جعل» على تقدير جَعْلِ «إذ» معمولاً لـ: اذْكُر، والمرادُ تذكيرُ حسنِ صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيعِ المشركين، وعلى ما يدلُّ عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها ظرفاً لـ «عَذَّبنا»، كأنه قيل: فلم

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٤٠.
(٢) غرائب القرآن ٢٦/ ٤٩.
(٣) المفردات (حمي).

يتزيَّلوا فلم نُعذِّب فأَنزل.. إلخ. وعلى مضمر عامل فيها على الوجهِ الأخير المَحْكي، ويكون هذا التفسير لذاك، وأما على جعلها ظرفاً لـ «صدُّوكم» فقيل: العطفُ على «جعل» وقيل: على «صدُّوكم»، وهو نظيرُ: الطائرُ فيغضبُ زيدٌ الذُّباب[1]، والأولى من هذه الأوجه لا يخفى.

والسَّكينة: الاطمئنانُ والوقار، روى غيرُ واحدٍ أنَّ النبيَّ ﷺ خرج بمن معه إلى الحديبية حتى إذا كان بذي الحُليفة قَلَّد الهَدْي وأشعره وأحرم بالعمرة، وبعثَ بين يديه عيناً من خُزاعة يُخبره عن قريش، وسار عليه الصلاة والسلام حتى [إذا] كان بغَدير الأشطاط قريباً من عُسفان أتاه عينه فقال: إنَّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فاستشار الناسَ في الإغارة على ذراري من أعانهم، فقال أبو بكر: الله تعالى ورسوله أعلمُ يا نبيَّ الله، إنما جئنا معتمرين ولم نَجِئ لقتال أحدٍ، ولكن مَنْ حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال ﷺ: «امضُوا على اسم الله» فسار حتى نزل بأقصى الحُديبية، فجاءه بُديل بن ورقاء الخُزاعي في نَفَر من قومه فقال له: إني قد تركتُ كعبَ بن لؤي وعامرَ بن لؤي نزلوا قريباً، معهم العُوذ المَطافيل[2]، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنا لم نجئ لقتال أحدٍ، ولكن مُعتمرين، وإن قريشاً قد نَهِكَتهم الحربُ وأَضَرَّتْ بهم، فماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائرِ العرب، فإنْ هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإنْ أظهرني اللهُ تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإنْ لم يفعلوا قاتلتُهم وبهم قوَّة، فما تظنُّ قريش؟! فواللهِ، لا أَزالُ أُجاهِدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهره اللهُ تعالى أو تنفردَ هذه السالفة» فقال بُديل: سأُبلغهم ما تقول. فبلَّغهم، فقال عروة بن مسعود الثقفي لهم: دعوني آتِهِ، فأتاه عليه الصلاة والسلام، فقال له نحوَ ما قال لِبُديل، وجرى من الكلام ما جرى، ورأى مِن احترامِ الصحابة رسولَ الله ﷺ وتعظيمهم

(١) والتقدير: الذي يطير...، ينظر الأصول في النحو ٢/ ٣٥٧، وشرح ابن عقيل ٢/ ٣٦١.

(٢) يريد: النساء والصبيان، والعُوذ في الأصل: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت. النهاية (عوذ).

إيَّاه ما رأى، فرجَع إلى أصحابه فأخبرهم بذلك وقال لهم: إنه قد عَرَضَ عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها، فقال رجلٌ من بني كِنانة: دعوني آتِهِ، فلما أشرفَ على النبيِّ ﷺ وأصحابه، قال عليه الصلاة والسلام: «هذا فلان، وهو من قوم يُعظِّمون البُدن، فابعثوها له» فبُعِثَت، واستقبله القومُ يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فرجَع وأخبر أصحابَه، فقال رجلٌ يقال له: مِكْرَز بن حفص: دعوني آتِهِ، فلما أشرف قال عليه الصلاة والسلام: «هذا مِكْرَز، وهو رجلٌ فاجرٌ» فجعل يُكلِّم النبيَّ ﷺ، فبينما هو يُكلِّمه إذ جاء سُهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، فقال ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمرِكم» وكان قد بعثه قريش وقالوا له: ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صُلْحه إلا أن يرجِعَ عنا عامَه هذا، فوالله لا تتحدَّثُ العرب أنه دخلها علينا عُنْوةً أبداً. فلما انتهى إليه عليه الصلاة والسلام تكلَّم فأطال، وانتهى الأمرُ إلى الصُّلح وكتابةِ كتاب في ذلك، فدعا النبيُّ ﷺ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه فقال: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهيل: لا أعرفُ هذا، ولكن اكتُبْ: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتُبْ: باسمِكَ اللهم» فكتبها، ثم قال: «اكتُب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سُهيلَ بن عمرو»، فقال سُهيل: لو كُنَّا نعلم أنك رسولُ الله ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتُبْ اسمك واسمَ أبيك. فقال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لرسولُ الله، وإنْ كذَّبتموني، اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سُهيلَ بن عمرو صُلحاً على وَضْعِ الحرب عن الناس عشرَ سنين» يأمنُ فيهنَّ الناسُ ويكفُّ بعضُهم عن بعض، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم، ومَنْ جاء قريشاً ممن مع محمد لم يَرُدُّوه عليه، وإنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً[1]، وإنه لا إسلالَ ولا إغلال[2]، وإنه مَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عقد محمد وعهده دخل فيها، ومَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عَقْدِ قريش وعَهْدهم دخلَ فيه،

(١) أي: بينهم صدر نقيٌّ من الغلِّ والخداع، مطوي على الوفاء بالصلح. النهاية (عيب).

(٢) الإغلال: الخيانة أو السرقة الخفيَّة، والإسلال: مِن سلِّ البعيرَ في جوف الليل: إذا انتزعه من بين الإبل. وقيل الإغلال: لبس الدروع. والإسلال: سلُّ السيوف. النهاية (غلل).

وإن محمداً يرجِعُ عن مكة عامَه هذا، فلا يدخُلها، وإنه إذا كان عام قابل خرج أهلُ مكة فدخلها بأصحابه. فأقام بها ثلاثاً معه سلاحُ الراكب، السيوفُ في القُرب لا يدخلها بغيرها[١].

وظاهرُ هذا الخبر أن سُهيلاً لم يرضَ أن يكتبَ: محمدٌ رسول الله، قبل أن يكتب؛ وجاء في روايةٍ أنه كتب فلم يرضَ، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «امْحُه» فقال: ما أنا بالذي أمْحاه، وجاء هذا في رواية للبخاري ولمسلم[٢]، وفي رواية للبخاري في المغازي: فأخذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ وليس يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فكَتَبَ: «هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبد الله»[٣]. وكذا أخرجه النسائي وأحمد، ولفظه: فأخذ الكتاب، وليس يُحسن أن يَكتب، فكتب مكان رسول الله: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...»[٤]، وتمسَّك بظاهر هذه الرواية كما في «فتح الباري»[٥] أبو الوليد الباجي على أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كتب بعدَ أنْ لم يكن يُحسن أنْ يكتب، ووافقه على ذلك شيخُه أبو ذرٍّ الهرويُّ وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية، والجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب، وأنَّ قوله: وأخذ الكتابَ، وليس يُحسن أن يَكتبَ؛ لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاجَ لأنْ يُريه عليٌّ كرم الله تعالى وجهه موضعَ الكلمة التي امتنعَ من مَحْوِها لكونه كان لا يُحسن الكتابة. وقوله: فكتب، بتقدير: فمحاها، فأَعاد الكتاب لعليٍّ فكتب، أو أطلقَ فيه «كتب» على: أمَرَ بالكتابة. وتمامُ الكلام في محلِّه[٦].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨ وما بعدها، وأخرج هذا الخبر بطوله البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٨٩٢٨) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم باختلاف بعض الألفاظ، وأخرجه مسلم (١٧٨٣) و(١٧٨٤) و(١٧٨٥) و(١٧٨٦) عن عدد من الصحابة ﷺ.

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سنن النسائي الكبرى (٨٥٢٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٥).

(٥) ٧/ ٥٠٣.

(٦) ينظر ما سلف ٢٠/ ٣٧٥-٣٧٨.

فكانت حَمِيَّتهم ـ على ما في «الدر المنثور»[(١)] عن جماعة ـ أنهم لم يُقِرُّوا أنه ﷺ رسولٌ ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بين المسلمين والبيت، وقد هَمَّ المؤمنون لذلك أنْ يبطِشوا بهم، فأنزلَ اللهُ تعالى سكينَته عليهم فَتوَقَّروا وحَلُموا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في حَمِيَّة الجاهلية: حمت قريش أَنْ يدخلَ عليهم رسولُ الله ﷺ وقالوا: لا يدخُلها علينا أبداً، وقال ابن بحر ـ كما في «البحر»[(٢)] ـ: حَمِيَّتهم: عَصَبيَّتهم لآلهتهم، والأَنَفةُ أنْ يعبدوا غيرَها.

وفي توسيطِ «على» بين الرسول والمؤمنين إيماءٌ إلى أنه سبحانه أَنزل على كلٍّ سكينةً لائقةً به.

ووجهُ تقديم الإنزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخفى.

وقال الإمام[(٣)]: في هذه الآية لطائفُ معنوية: وهو أنه تعالى أبانَ غايةَ البون بين المؤمنين والكافرين: حيث باين بين الفاعِلَيْن، إذْ فاعل «جعل» هو الكُفَّار، وفاعل «أنزل» هو اللهُ تعالى، وبين المفعولين إذْ تلك حَمِيَّة وهذه سكينة، وبين الإضافتين إضافة الحَمِيَّة إلى الجاهلية وإضافةِ السكينة إليه تعالى، وبين الفِعْلين «جعل» و«أنزل»، فالحميَّة مجعولةٌ في الحال كالعَرَض الذي لا يبقى، والسَّكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها، والحَمِيَّة قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسها، وازدادت قُبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينةُ حسنةٌ في نفسها وازدادت حُسناً بإضافتها إلى الله عز وجل، والعطفُ في «فأنزل» بالفاء لا بالواو يدلُّ على المُقابلة والمجازاة، تقول: أكرمني زيدٌ فأكرمته، فيدلُّ على أن إنزالَ السكينة لجَعْلِهم الحَمِيَّةَ في قلوبهم حتى إن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا، بل صبروا، وهو بعيدٌ في العادة، فهو من فضل الله تعالى. انتهى، وهو مما لا بأسَ به.

---

(١) ٦/ ٧٩-٨٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٢.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي لا إله إلا الله كما أخرج ذلك الترمذي وعبد الله بن أحمد والدارقطني وغيرهم عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً[(١)]، وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وسَلَمة بن الأكوع كذلك[(٢)]؛ وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن حُمْران أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني لأعلمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ حقًّا من قلبه إلا حُرِّم على النار» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: أنا أُحدِّثكم ما هي: كلمةُ الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمداً وأصحابه، وهي كلمةُ التقوى التي ألاصَ عليها نبيُّ الله ﷺ عمَّه أبا طالب عند الموت؛ شهادة أنْ لا إلهَ إلا الله[(٣)]. ورُوي ذلك أيضاً عن عليّ كرم الله تعالى وجهه ـ على ما نَقَل أبو حيان[(٤)] ـ وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جُبير في آخرين، وأخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن عطاء الخُراساني بزيادة: محمد رسول الله[(٥)].

وأُضيفت إلى التقوى لأنها بها يُتَّقى الشِّرك، ومن هنا قال ابن عباس ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره ـ: هي رأسُ كلِّ تقوى[(٦)].

وظاهرُ كلام عمر ﷺ أن ضمير «هم» في «ألزمهم» للرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه، وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها.

وأخرج عبد الرزاق والحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: هي لا إله إلا الله واللهُ أكبر[(٧)]، ورُوي عن ابن عمر أيضاً نحوه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وسنن الترمذي (٣٢٦٥)، وعبد الله في مسند أبيه أحمد (٢١٢٥٥). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠.

(٣) مسند أحمد (٤٤٧)، وصحيح ابن حبان (٢٠٤)، والمستدرك ١/ ٣٥١، ومعنى: ألاصَ عليها: أي: أداره عليها، وراوده فيها.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٩.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣١٣.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ٣١١.

(٧) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٩، والمستدرك ٢/ ٤٦١.

وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد» عن المسور بن مخرمة قال: هي لا إله إلا الله وحدَه لا شَريك له[1]. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً أنها لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له المُلك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير.

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وغيرهما عن الزهري قال: هي بسم الله الرحمن الرحيم[2]. وضَمَّ بعضهم[3] إلى هذا: محمد رسول الله. والمراد بإلزامهم إيَّاها اختيارها لهم دون مَنْ عدل عنها إلى: باسمك اللهم، و: محمد بن عبد الله.

وقيل: هي الثَّبات والوفاء بالعهد، ونسبه الخَفَاجي[4] إلى الحسن، وإلزامهم إياه أمْرُهم به، وإطلاق الكلمة على الثَّبات على العهد والوفاء به، قيل: لِمَا أنَّ كلًّا يُتوصَّل به إلى الغرض، وهو نظيرُ ما قيل في إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من أن ذلك لأنَّ كلًّا منهما يُهتدَى به، وجعلت الإضافة على كونها بمعنى الثَّبات من باب إضافة السبب إلى المسبَّب فهي إضافة لأدنى مُلابسة. وجُوِّز أن تكونَ اختصاصيةً حقيقيةً بتقدير مضافٍ، أي: كلمة أهل التقوى، وأُريد بالعهد على ما يقتضيه ظاهرُ سبب النزول عهدُ الصُّلح الذي وقع بينه ﷺ وبين أهل مكة. وقيل: ما يعمُّ ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل.

وأنت تعلم أن الوجه المذكور في نفسه غير ظاهر، ومثله ما قيل: المراد بالكلمةِ قولهم في الأصلاب: بلى مُقِرِّين بوحدانيته جلَّ شأنه، وبالإلزام الأمر بالثَّبات والوفاء بها. وقيل: هي قولُ المؤمنين: سمعاً وطاعة، حين يُؤمرون أو يُنْهون. والظاهرُ عليه كون الضمير للمؤمنين.

وأرجحُ الأقوال في هذه الكلمة ما رُوي مرفوعاً وذهب إليه الجَمُّ الغفير، ولعلَّ ما ذُكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء، والمرادُ: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

---

(١) وذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٤.
(٣) منهم الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٩، والبيضاوي ٨/ ٦٧.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٦٧.

﴿وَكَانُوٓا۟﴾ عطف على ما تقدَّم، أو حال من المنصوب في «ألزمهم» بتقدير «قد» أو بدونه، والظاهرُ في الضمير عودُه كسابقهِ كما اقتضاه كلامُ عمر ﷺ على الرسول والمؤمنين، واستظهر بعضُهم عودَه على المؤمنين، وكأنه اعتبر الأول عائداً عليهم أيضاً، وهو مما لا بأس فيه، ولعله اعتبر الأقربيَّة، فالمعنى: وكان المؤمنون في علم الله تعالى ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أي: بكلمة التقوى، وأفعل لزيادة الحَقِّيَّة في نفسها، أي: مُتَّصِفين بمزيد استحقاق لها، أو على ما هو المشهور فيه، والمُفضَّل عليه محذوفٌ، أي: أحقّ بها من كُفَّار مكةَ لأنَّ اللهَ تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه ﷺ، وقيل: من اليهود والنصارى، وقيل: من جميع الأُمم لأنهم خيرُ أمة أُخرجت للناس.

وحكى المبرِّد أنَّ الذين كانوا قبلنا لم يكن لأَحدٍ منهم أن يقول: لا إله إلا الله، في اليومِ والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أنْ يقولَها أكثرَ من ذلك، وكان قائِلُها يمدُّ بها صوتَه إلى أنْ ينقطع نَفَسُه تبرُّكاً بذكر الله تعالى، وقد جعل الله عز وجل لهذه الأُمة أنْ يقولوها متى شاؤوا، وهو قوله تعالى: «وألزمهم كلمة التقوى» أي: نَدَبهم إلى ذكرها ما استطاعوا، «وكانوا أحقَّ بها». وهذا مما لم يَثْبُتْ.

وجوَّز الإمام(١) كونَ التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى، أي: أحقَّ بها من كلمةٍ غيرِ كلمةِ تقوى، وقال: وهذا كما تقول: زيدٌ أحقُّ بالإكرام منه بالإهانة، وقولك إذا سُئل شخصٌ عن زيدٍ بالطِّبِّ أعلم أو بالفقه: زيدٌ أعلم بالفقه، أي: من الطِّبِّ. وفيه غَفْلةٌ لا تَخفى.

﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المُستأهل لها، وهو أبلغُ من: الأحقّ، حتى قيل: بينه وبين الأحقِّ كما بين الأحقِّ والحقِّ. وقيل: إنَّ أحقِّيَّتهم(٢) بها من الكفار تُفهِم رُجحانهم رُجحاناً مّا عليهم ولا تُثبت الأهلية، كما إذا اختار الملكُ اثنين لِشُغل، وكلٌّ واحد منهما غيرُ صالح له، لكن أحدهما أَبعدُ عن الاستحقاق، فيقال للأقرب إليه: إذا كان ولا بدَّ فهذا أحقُّ، كما يقال: الحبس أهونُ من القتل، ولِدَفْع توهُّم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه: «وأهلها».

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/١٠٣-١٠٤.

(٢) في الأصل: حقيتهم.

وقيل: أُريدَ أنهم أحقُّ بها في الدنيا وأهلها بالثواب في الآخرة.

وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، والأصلُ: وكانوا أهلَها وأحقَّ بها، وكذلك هي في مصحف الحارث بن سُويد صاحب ابن مسعود، وهو الذي دَفَنَ مصحفَه لمخالفتِه الإمام أيام الحَجَّاج، وكان من كبار تابعي الكوفة وثِقاتهم.

وقيل: ضمير «كانوا» عائدٌ على كُفَّار مكة، أي: وكان أولئك الكفار الذين جعلوا في قلوبهم الحمية أحقَّ بكلمة التقوى لأنهم أهلُ حرم الله تعالى، ومنهم رسوله ﷺ، وقد تقدَّم إنذارهم، لولا ما سُلبوا من التوفيق. وفيه ما فيه، سواء رَجَع ضمير «ألزمهم» إلى كفار مكة أيضاً أمْ لا، وأظن في قائله نزغةً رافضيَّة دعته إلى ذلك لكنه لا يتمّ به غرضُه.

وقيل: ضمير «كانوا» للمؤمنين إلا أنَّ ضميري «بها وأهلها» للسَّكينة. وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر من غير داعٍ.

وقيل: هما لمكةَ، أي: وكانوا أحقَّ بمكةَ أنْ يدخلُوها وأهلها، وأَشعر بذِكْر مكةَ ذكرُ المسجدِ الحرام في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكذا مَحلُّ الهَدْي في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وفيه ما لا يخفى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فيعلم سبحانه حقَّ كلِّ شيء واستئهاله لما يستأهله، فيسوق عز وجل الحقَّ إلى مُستحِقِّه والمستأهل إلى مُستأهله، أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحِكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرِّضا بالصُّلح، فيكون تذييلاً لجميع ما تقدَّم.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسولُ الله ﷺ في المنام قبلَ خروجه إلى الحُديبية ـ وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأى وهو في الحديبية[1]، والأول أصحُّ ـ أنه هو وأصحابُه دخلوا مكةَ آمنين وقد حلقُوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، فَفَرِحُوا واستبشروا وحَسِبوا أنهم داخلوها في

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٦.

عامِهم، وقالوا: إنَّ رؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ، فلمَّا تأخَّر ذلك قال على طريق الاعتراض عبدُ الله بن أُبيّ وعبد الله بن نُفيل ورفاعة بن الحارث: واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رَأَيْنا المسجدَ الحرامَ. فنزلت[1].

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه[2].

وفي روايةٍ: أنَّ رؤياه ﷺ إنما كانت أنَّ مَلَكاً جاءه فقال له: «لتدخُلُنَّ» إلخ[3]، والمعنى: لقد صَدَقه سبحانه في رؤياه، على أنه من باب الحَذْف والإيصال كما في قولهم: صَدَقَني سنَّ بَكْرِه[4]. وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة.

وقال الراغب[5]: الصدقُ يكون بالقول ويكون بالفعل، وما في الآية صدقٌ بالفعل، وهو التحقيقُ، أي: حقَّق سبحانه رؤيته.

وفي «شرح الكرماني»: كَذَب يتعدَّى إلى مفعولين، يقال: كذبني الحديثَ، وكذا: صدق، كما في الآية، وهو غريبٌ لِتعدِّي المُثَقَّل لواحد والمُخَفَّف لمفعولين. انتهى.

وفي «البحر»[6]: صدق يتعدَّى إلى اثنين، الثاني منهما بنفسه وبحرف الجرِّ تقول: صَدَقْتُ زيداً الحديث وصَدَقْته في الحديث، وقد عدَّها بعضُهم في أخوات: استغفر وأمر. والمشهور ما أشرنا إليه أولاً.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفةٌ لمصدر محذوف، أي: صدقاً مُلتبساً بالحقِّ، أي: بالفرض الصحيح والحِكمة البالغة، وهو ظهورُ حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٩، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٤: لم أجده هكذا مفسّراً. اهـ. وينظر الدر المنثور ٦/ ٨٠.
(٢) ينظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وحاشية الشهاب ٨/ ٨٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩.
(٤) ينظر شرحه فيما سلف ٢١/ ٢٤٢.
(٥) المفردات (صدق).
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٠١.

ولأجل ذلك أخّر وقوع الرؤيا إلى العام القابل. أو حالٌ من الرؤيا، أي: مُلتبسةً بالحقِّ ليست من قَبيل أضغاث الأحلام.

وجُوِّز كونه حالاً من الاسم الجليل، وكونُه حالاً من «رسوله»، وكونه ظرفاً لغواً لـ «صَدَق»، وكونه قَسماً بالحقِّ الذي هو من أسمائه عز وجل، أو بنقيض الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ عليه جوابُ القَسَم والوقف على «الرؤيا»، وهو على جميع ما تقدَّم جوابُ قَسَمٍ مُقدَّر، والوقف على «الحقّ»، أي: والله لتدخُلُنَّ.. إلخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعِدَة بالمشيئة لتعليم العِباد، وبه ينحلُّ ما يقال: إنه تعالى خالقٌ للأشياء كلِّها وعالمٌ بها قبلَ وقوعها، فكيف وقع التعليقُ منه سبحانه بالمشيئة، وفي معنى ما ذُكر قول ثعلب: استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثني الخَلْقُ فيما لا يعلمون[1].

وفيه تعريضٌ بأنَّ وقوعَ الدخول من مشيئته تعالى لا من جَلادتهم وتدبيرهم، وذكر الخفاجي[2] أنه قد وُضِعَ فيه الظاهر موضعَ الضمير، وأصله: لَتدخُلُنَّه لا مَحالةَ إلا إنْ شاء عدمَ الدُّخول، فهو وعدٌ لهم عُدِلَ به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والإنكار على المُعترضين على الرؤيا، فيكون من باب الكناية. انتهى.

وقد أُجيبَ عن السؤال بغير ذلك فقيل: الشكُّ راجعٌ إلى المخاطبين، وفيه شيء ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى.

وقال الحسين بن الفضل: إن التعليقَ راجعٌ إلى دخولهم جميعاً. وحكي ذلك عن الجُبَّائي. وقيل: إنه ناظرٌ إلى الأمن، فهو مُقدَّم من تأخير، أي: لَتدخُلُنَّه حالَ كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوِّ إن شاء الله. وردَّهما في «الكشف» فقال: أما جَعْله قيدَ دخولهم بالأسر[3] أو الأمن ففيه أن السؤالَ بعدُ باقٍ؛ لأنَّ الدخولَ المخصوصَ

(١) وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٨٦.
(٣) أي: بأسْرهم، أي: جميعاً، ويعني به قول الحسين بن الفضل.

أيضاً خبرٌ من الله تعالى، وهو يُنافي الشكَّ، وليس نظيرَ قول يوسف عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] إذ لا يبعدُ أن لا يعرف عليه السلام مستقرَّ الأمر من الأمن أو الخوف، فإما أن يُؤَوَّل بأنَّ الشكَّ راجعٌ إلى المُخاطَبين، أو بأنه تعليم، والثاني أولى لأنَّ تغليبَ الشاكِّين لا يُناسب هذا المَساق، بل الأمر بالعكس. ودُفع وروده على الحسين بأنَّ المرادَ أنه في معنى لَيدخُلَنَّه مَن شاء الله دخولَه منكم، فيكون كنايةً عن أنَّ منهم مَنْ لا يدخُله؛ لأنَّ أَجَلَه يمنعه منه، فلا يلزم الرجوع لِمَا ذكر.

وقيل: هو حكايةٌ لما قاله مَلَكُ الرؤيا له ﷺ. وإليه ذهب ابنُ كيسان، أو لِمَا قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه. وردَّه صاحبُ «التقريب» بأنه كيف يدخل في كلامه تعالى ما ليس منه بدون حكاية. ودُفِعَ بأنَّ المرادَ أنَّ جوابَ القَسَم بيانٌ للرؤيا، وقائلها في المنام المَلَك، وفي اليقظة الرسول ﷺ، فهي في حُكم المَحْكي في دقيق النظر، كأنه قيل: وهي قول المَلَك أو الرسول: لَتدخُلُنَّ.. إلخ، وأنت تعلم أنَّ هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد، وقد اعترض به على ذلك صاحبُ «الكشف» لكنه ادَّعى أنَّ كونَه حكايةً ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقلُّ بُعداً من جَعْله من قول المَلَك.

وقال أبو عُبيدة وقوم من النُّحاة: «إنْ» بمعنى «إذْ»، وجعلوا من ذلك قولَه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقوله ﷺ في زيارة القبور: «أنتم السابقون وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحقون»(١)، والبصريون لا يرتضون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال كـ «آمنين» من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى: «لَتَدخُلُنَّ»، إلا أنَّ «آمنين» حالٌ مقارِنة، وهذا حالٌ مُقدَّرة؛ لأنَّ الدخولَ في حال الإحرام لا في حال الحَلْق والتقصير، وجُوِّز أن يكونَ حالاً من ضمير «آمنين» والمراد: مُحلِّقاً بعضكم رأسَ بعض ومُقصِّراً آخرون، ففي

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤٧١)، ومسلم (٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

الكلام تقديرٌ، أو فيه نسبةُ ما للجزء إلى الكُلّ، والقرينةُ عليه أنه لا يجتمع الحَلْق ـ وهو معروف ـ والتقصير وهو أخذُ بعض الشعر، فلا بدَّ من نسبة كلٍّ منهما لبعضٍ منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من فاعل «لتدخلُنَّ» أيضاً لبيان الأمْنِ بعد تمام الحَجِّ، و«آمنين» فيما تقدَّم لبيان الأمن وقت الدخول، فلا تكرار، أو حال من الضمير المُستتر في «آمنين»، فإنْ أُريدَ به معنى «آمنين» كان حالاً مُؤكِّدة، وإنْ أُريد لا تخافون تَبِعةً في الحَلْق أو التقصير ولا نقصَ ثوابٍ، فهو حال مُؤسِّسة. ولا يخفى الحالُ إذا جُعِلَ حالاً من الضمير في «مُحلِّقين» أو «مُقَصِّرين».

وجُوِّز أن يكون استئنافاً بيانيًّا في جواب سؤال مُقدَّر، كأنه قيل: فكيف الحالُ بعد الدخول؟ فقيل: لا تخافون، أي: بعد الدخول.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الحَلْق غير متعيّن في النُسك، بل يُجزئ عنه التقصير، وظاهرُ تقديمه عليه أنه أفضلُ منه، وهو الذي دلَّت عليه الأخبار في غير النِّساء؛ أخرج الشيخان وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفِرْ لِلمُحلِّقين» قالوا: يا رسولَ الله، والمقصرين؟ قال: «اللهم اغفِرْ للمحَلِّقين» ثلاثاً، قالوا: يا رسولَ الله، والمُقصِّرين؟ قال: «والمُقصِّرين»[1].

وأما في النساء فقد أخرج أبو داود والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس على النساء حَلْقٌ، وإنما على النساء التقصير»[2].

والسُّنَّة في الحَلْق أن يبدأ بالجانب الأيمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبيَّ ﷺ قال للحلّاق هكذا، وأشار بيدِه إلى جانب الأيمن[3]، وأن يبلغ به إلى العظمين، كما قال عطاء.

---

(١) صحيح البخاري (١٧٢٨)، وصحيح مسلم (١٣٠٢)، ومسند أحمد (٧١٥٨)، وسنن ابن ماجه (٣٠٤٣).

(٢) سنن أبي داود (١٩٨٥)، وسنن البيهقي ٥/ ١٠٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٠٥).

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عباس وابن عمر ﵃ أنهما كانا يقولان للحلاق: ابدأ بالأيمن وابلغ بالحَلْق العظمين[١].

واسْتُدلَّ بالآية أيضاً على أنَّ التقصير بالرأس دون اللحية وسائرِ شعر البدن، إذ الظاهرُ أنَّ المرادَ: ومُقصِّرين رؤوسكم، أي: شعرها، لظهور أن الرؤوس أنفسها لا تُقَصَّر.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الظاهرُ عَطْفُه على «لقد صدق» فالترتيبُ باعتبار التعلُّق الفعلي بالمعلوم، أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحِكمة الداعيةِ لتقديم ما يشهدُ للصِّدقِ علماً فعليًّا، وقيل: الفاء للترتيب الذِّكري.

﴿فَجَعَلَ﴾ لأجل هذا العلم ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون تحقُّق مِصداقِ ما أراه من دخول المسجدِ الحرام آمنين.. إلخ، وقيل: أي: من دون فتح مكة. والأولُ أظهر، وهذا أنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو فتحُ خيبر، كما قال ابن زيد وغيره، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدلَّ به على صدقِ الرؤيا وتستروحَ قلوبُ المؤمنين إلى تيسُّر وقوعها.

وقال في «الكشاف»: «ما لم تعلموا» أي: من الحِكمة في تأخيرِ فتح مَكَّةَ إلى العام القابل[٢]. وفيه أمران: الأول: أن فتحَ مكةَ لم يقع في العام الذي قاله، بل في السنةِ الثامنة، والتجوُّز في العامِ القابل، أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله. الثاني: إباء الفاء عمَّا ذكر؛ لأنَّ عِلْمه تعالى بِذلك مُتقدِّم على إراءة الرؤيا قطعاً.

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذِّكري، أو كون المراد: فأَظهر معلومَه لكم، وهو الحِكْمة، فتدبَّر.

ونُقل عن كثير من الصحابة ﵃ أن الفتحَ القريبَ في الآية هو بيعةُ الرِّضوان، وقال مجاهد وابن إسحاق: هو فتح الحديبية. ومن الغريب ما قيل: إنَّ المرادَ به

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠.

فتحُ مكةَ، مع أنه لم يكن دون دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه مكة[١]، على أنه مُنافٍ للسِّياق كما لا يخفى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: مُلتبساً به، على أنَّ الباء للملابسة، والجارّ والمجرور في موضع الحال من المفعول، والتباسه بالهُدى بمعنى أنه هادٍ، وقيل: أي: مصاحباً للهُدى، والمرادُ به الدليل الواضح والحُجَّة الساطعة، أو القرآن، وجُوِّز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل، وهما متقاربان، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أَرسل»، أي: أرسله بسبب الهُدى أو لأَجْله.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، والظاهرُ أنَّ المرادَ به ما يعمُّ الأصولَ والفروع، وجُوِّز أن يُرادَ بالهُدى الأصول، وبدين الحقِّ الفروع. فإنَّ من الرُّسل عليهم السلام من لم يُرسَل بالفروع، وإنما أُرسل بالأصول وبيانها[٢]، والظاهرُ أن المرادَ بالحقِّ نقيضُ الباطل، وجوّز فيه أن يرادَ به ما هو من أسمائه تعالى، أي: ودين الله الحقّ، وجوَّز الإمامُ[٣] غيرَ ذلك أيضاً.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُعليه على جنس الدين بجميع أفراده، أي: ما يدان به من الشرائع والملل، فيشمل الحقَّ والباطل، وأصلُ الإظهار: جعلُ الشيء على الظَّهر، فلذا كَنَى به عن الإعلاء وعن جَعْله بادياً للرائي، ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقةً عُرفية، وإظهارُه على الحقِّ بنسخ بعضِ أحكامه المُتبدِّلة بتبدُّل الأعصار، وعلى الباطل ببيانِ بُطلانه، وجوَّز غيرُ واحد ـ ولعلَّه الأظهر بحسب المقام ـ أن يكون إظهارُه على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهلِ الأديان، وقالوا: ما من أهل دينٍ حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذلك استمرارُ ما ذكر زماناً معتدًّا به كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع.

---

(١) في (م): مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة، وهو خطأ، والمثبت من الأصل والبحر ٨/١٠١، وزاد: بل كان بعد ذلك.

(٢) في (م): وتبيانها.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/١٠٦.

وقيل: إنَّ تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروجِ المَهدي رضي الله عنه حيث لا يبقى حينئذ دينٌ سوى الإسلام، ووقوعُ خلاف ذلك بعدُ لا يضرُّ؛ إما لنحو ما سمعتَ، وإما لأنَّ الباقي من الدنيا إذْ ذاك كَلَا شيءٍ. وفي الجملة فضلُ تأكيد لما وعدَ الله تعالى به من الفَتْح، وتوطينٍ لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويُتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلُّون بالنسبة إليه فتحَ مكة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنَّ ما وعده[1] عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتحِ كائنٌ لا محالَة، أو: كفى بالله شهيداً على رسالته ﷺ، لأنه عليه الصلاة والسلام ادَّعاها وأَظهَرَ اللهُ تعالى المُعجزة على يدِه، وذلك شهادةٌ منه تعالى عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي[2]، وجعل ذلك تسليةً عمَّا وقع من سُهيل بن عمرو إذ لم يرضَ بكتابة: محمدٌ رسولُ الله، وقال ما قال.

وجعل بعضُ الأفاضل إظهارَ المعجزة شهادةً منه تعالى على تحقُّق وَعْدِه عز وجل أيضاً، ولا يَظهر إلا بضمِّ إخباره عليه الصلاة والسلام به.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: هو ـ أو الرسولُ المُرسَل بالهُدَى ودين الحقِّ ـ محمدٌ، على أنَّ الاسم الشريفَ خبرُ مبتدأ محذوف، و«رسول الله» عطفُ بيانٍ أو نعت أو بدل، والجملة استئنافٌ مُبيِّنٌ لقوله تعالى: «هو الذي أرسل رسولَه» وهذا هو الوجهُ الأرجح الأنسبُ بالمَساق كما في «الكشف»، ويُؤيِّده نظراً إلى بعض ما يأتي من الأوجه إنْ شاءَ اللهُ تعالى قراءةُ ابن عامر في روايةٍ: «رسولَ» بالنصب على المَدْح[3]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، خبره قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ «محمدٌ رسولُ الله» مبتدأ وخبر[4]. والجملةُ عليه مُبيِّنة للمشهود به، أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقَّق الوعد فقيل:

---

(١) في (م): ما عده.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/١٠٧.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/١٠١، وهي غير المشهورة عن ابن عامر.
(٤) البحر المحيط ٨/١٠١.

لأن كينونة ما وعدَه لازمةٌ لكونه عليه الصلاة والسلام رسولَ الله، إذْ هو لا يُوعَد إلا بما هو محقَّق، ولا يُخْبِر إلا عن كلِّ صِدْق.

وجوز كون «محمد» مبتدأ، و«رسول» تابعاً له، «والذين معه» عطفاً عليه، والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: «أشداءُ» إلخ.

وقرأ الحسن: «أشداءَ»، «رحماء» بنصبهما[1]، فقيل: على المدح، وقيل: على الحال، والعامل فيهما العامل في «معه»، فيكون الخبر على هذا الوجه جملة «تراهم» الآتي، وكذا خبر «الذين» على الوجه الأول.

والمرادُ بـ «الذين معه» عند ابن عباس من شهد الحُديبية. وقال الجمهور: جميع أصحابه ﷺ و ﵃. و«أشداء» جمع: شديد، و«رحماء» جميع: رحيم، والمعنى: إن فيهم غِلْظةً وشِدَّة على أعداء الدين، ورحمةً ورِقَّة على إخوانهم المؤمنين.

وفي وصفهم بالرحمة بعد وَصْفهم بالشِّدَّة تكميلٌ واحتراسٌ، فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربمَّا تُوُهِّم أن مفهومَ القيد غير مُعتبر، فيتوهَّم الفَظاظة والغِلظة مطلقاً، فدفع بإردافِ الوصف الثاني، ومآلُ ذلك أنهم مع كونهم أشداءَ على الأعداء رحماءُ على الإخوان، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وعلى هذا قوله:

حليمٌ إذا ما الحِلم زيَّن أهلَه ... على أنه عند العدوِّ مَهيب[2]

وقد بلغ كما رُوي عن الحسن من تشدُّدهم على الكُفَّار أنهم كانوا يتحرَّزون من ثيابهم أنْ تَلزَقَ بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسَّ أبدانَهم، وبلغ من ترحُّمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمنٌ مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء؛ أخرج أبو داود عن البراء قال: قال

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٣، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.
(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في ديوان المعاني ٢/ ١٧٨٢، والخزانة ١٠/ ٤٣٥، ورواية عجزه فيهما:

مع الحلم في عين العدو مهيب

رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحَمِدا اللهَ واستغفراه غُفِرَ لهما»، وفي رواية الترمذي: «ما مِنْ مسلمين يَلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبلَ أن يتفرَّقا»[١]. وفي «الأذكار النووية» أنها مستحبَّةٌ عند كلِّ لقاء، وأما ما اعتاده الناسُ بعد صلاتَي الصُّبح والعصر فلا أصلَ له، ولكن لا بأسَ به، فإنَّ أصلَ المصافحةِ سنةٌ، وكونهم محافظين عليها في بعض الأحوال ومُفرِّطين في كثير منها لا يُخرجُ ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرعُ بأصلها[٢]. وجعل ذلك العز بن عبد السلام في «قواعده»[٣] من البدع المباحة، وأطال الشيخ إبراهيم الكوراني قُدِّس سِرُّه الكلامَ في ذلك.

وأما المعانقةُ؛ فقال الزمخشري[٤]: كرهها أبو حنيفة ﷺ، وكذلك التقبيل قال: لا أُحِبُّ أنْ يُقَبِّلَ الرجلُ من الرجل وَجْهه ولا يدَه ولا شيئاً من جسده، ورخَّص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة؛ ويُؤيِّد ما رُوي عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: سمعتُ رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، الرجلُ منَّا يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «لا»، قال: أفيلتزمه ويُقَبِّله؟ قال: «لا»، قال: أيأخُذ بيده ويُصافحه؟ قال: «نعم»[٥].

وفي «الأذكار»: التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ في غيره، وللأمرد الحسن حرامٌ بكلِّ حال[٦].

أخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ عن عائشةَ قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثة[٧] المدينةَ

---

(١) سنن أبي داود (٥٢١١)، وسنن الترمذي (٢٧٢٧).
(٢) أذكار الإمام النووي ص٢٢٧.
(٣) قواعد الأحكام ص١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٥) سنن الترمذي (٢٧٢٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٠٤٤) وفي إسناده: حنظلة بن عبيد الله الدوسي، وهو ضعيف ـ كما في التقريب ـ وقد استنكر له الإمام أحمد هذا الحديث كما في الجرح والتعديل ٣/ ٢٤١.
(٦) الأذكار النووية ص٢٢٦.
(٧) في الأصل: زيد بن خالد بن حارثة.

ورسولُ الله في بيتي، فقرعَ البابَ، فقام إليه رسولُ الله ﷺ يجرُّ ثوبَه فاعتنقه وقبَّله[١]. وزاد رَزِين في حديث أنس السابق بعد قوله: ويُقَبِّله: قال: «لا، إلا أن يأتي من سفر»[٢]، وروى أبو داود: سُئل أبو ذرٍّ: هَل كان ﷺ يُصافحكم إذا لَقِيتموه؟ قال: ما لَقِيتُه قطُّ إلا صافحني، وبعث إليَّ ذاتَ يوم ولم أكن في أهلي، فجئتُ فأُخبرت أنه ﷺ أرسلَ إليَّ، فأتيته وهو على سريره فالتزمني، فكانت أجودَ وأجودَ[٣]. وهذا يُؤيِّد الإطلاق المَحكيَّ عن أبي يوسف.

وينبغي التأسِّي بهم ﷺ في التشدُّد على أعداء الدين والرحمة على المؤمنين. وقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمرو[٤] مرفوعاً: «من لم يَرْحَمْ صغيرَنا ويعرِفْ حقَّ كبيرنا فليس منا»[٥] وأخرجا هما وأحمد وابن حبان والترمذي ـ وحسَّنه ـ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تُنزَعُ الرحمةُ إلا مِنْ شَقِيٍّ»[٦]. ولا بأس بالبِرِّ والإحسان على عدوِّ الدين إذا تضمَّن مصلحةً شرعية، كما أفاد ذلك ابنُ حجر في «فتاويه الحديثية»[٧]. فليراجع.

وقرأ يحيى بن يعمر: «أشدَّا» بالقصر، وهي قراءة شاذةٌ[٨]، لأنَّ قصرَ الممدود في الشعر نحو قوله:

لا بدَّ من صنعا وإنْ طال السَّفر[٩]

---

(١) سنن الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هذا الوجه.

(٢) لم نقف على هذه الزيادة.

(٣) سنن أبي داود (٥٢١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٧٦).

(٤) في الأصل: عن عبد الله، وفي (م): عن عبد الله بن عمر، والمثبت من المصادر.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٣)، وهو في مسند أحمد (٦٧٣٣).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٢)، ومسند أحمد (٨٠٠١)، وصحيح ابن حبان (٤٦٢)، وسنن الترمذي (١٩٢٤).

(٧) لم نقف على ذلك في المطبوع منها.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٩) ذكره ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٥١٧، وأبو حيان في البحر ٨/ ١٠٠ ولم ينسباه.

وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ خبرٌ آخر لـ «الذين»، أو استئناف، ويجوزُ فيه غيرُ ذلك على ما لا يخفى. والرؤية بصرية، والخِطابُ لكلِّ مَنْ تتأتَّى منه، و«ركَّعاً سجداً» حالٌ من المفعول، والمرادُ: تراهم مُصَلِّين، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مَجازٌ مرسل، والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو استمرارٌ عُرفي، ومن هنا قال في «البحر»[(١)]: هذا دليلٌ على كَثْرة الصلاة منهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثواباً ورضًا، والجملةُ إما خبرٌ آخرُ، أو حالٌ من مفعول «تراهم»، أو من المُستتر في «ركعا سجداً»، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلاً.. إلخ.

وقرأ عمرو بن عُبيد: «ورُضواناً» بضمِّ الراء[(٢)].

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: علامتهم، وقُرئ: «سيمياؤهم» بزيادة ياء بعد الميم والمَدّ[(٣)]، وهي لغةٌ فصيحة كثيرة في الشعر، قال الشاعر:

غلامٌ رماه اللهُ بالحُسْن يافعاً ... له سيمياءُ لا تشقُّ على البَصَرْ[(٤)]

وجاء: سيماء بالمدِّ، واشتقاقها من السُّومة بالضَّمِّ: العلامة تُجعل على الشاةِ، والياء مُبدلة من الواو، وهي مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جِباههم، أو هي على ظاهرها، وقوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من المُستكنِّ في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً لـ «سيماهم»، أو بيانٌ لها، أي: سيماهم التي هي أثرُ السجود، ووجهُ إضافة الأثر إلى السجود أنه حادثٌ من التأثير الذي يُؤثره السجود، وشاع تفسيرُ ذلك بما يحدثُ في جبهة السَّجَّاد مما يُشبه أَثَرَ الكَيِّ وثَفِنَة البعير، وكان كلٌّ من العَلِيَّين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك رضي الله عنهما يقال له: ذو الثَّفِنات، لأنَّ كثرةَ سجودهما أحدثَ في

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.
(٢) البحر ٨/ ١٠٢، وذكرها صاحب النشر ٢/ ٢٣٨ عن شعبة.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، وما بعده منه أيضاً.
(٤) البيت لابن عنقاء الفزاري، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٨٨.

مَواقعهِ منهما أشباه ثَفِنات البعير، وهي ما يقعُ على الأرض من أعضائه إذا غلظ.

وما رُوي من قوله ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»[١]، أي: لا تَسِموها، مِنَ العَلْب ـ بفتح العين المهملة وسكون اللام ـ الأَثَر، وقولِ ابن عمر وقد رأى رجلاً بأنفه أثرُ السجود: إنَّ صورةَ وجهك أنفك، فلا تَعْلُب وجهك ولا تَشِنْ صورتك[٢] = فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الأرض لِتَحدُثَ تلك السِّمة وذاك محضُ رياء ونِفاق يُستعاذُ بالله تعالى منه، والكلام فيما حدث في وجه السّجّاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل.

وأنكر بعضُهم كونَ المراد بالسِّيما ذلك؛ أخرج الطبراني والبيهقي في «سننه» عن حُميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذْ جاء رجل وفي وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهه، أما واللهِ ماهي السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ولقد صلَّيتُ على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثَّر السجود بين عينيَّ[٣]. وربما يحمل على أنه استشعرَ من الرجل تَعمُّداً لذلك، فنفى أنْ يكون ما حصل به هو السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ونظيره ما حُكي عن بعض المتقدِّمين قال: كُنَّا نُصلِّي فلا يُرى بين أعيننا شيء، ونرى أحدَنا الآن يُصلِّي فترى بين عينيه ركبةَ البعير، فما ندري أثقُلَت الأرؤس أم خَشُنَت الأرض.

وأخرج ابن جرير[٤] وجماعة عن سعيد بن جُبير أنه قال: هذه السِّيما نَدَى الطَّهور وتراب الأرض. ورُوي نحوه عن سعيد بن المُسيَّب.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: ليس له أثر في الوجه، ولكنه الخشوع. وفي رواية: هي الخشوع والتواضع[٥]. وقال

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: لم أجده مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٢٢٧٣). وقوله: لا تعلب، أي: لا تؤثر فيه بشدة اتكائك على أنفك في السجود. النهاية (علب).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الكبير (٦٦٨٥)، وسنن البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٥، وأخرجه أيضاً البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٤.

منصور: سألت مجاهداً: أهذه السِّيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، وقد يكون مثلَ ركبة البعير، وهو أقسى قلباً من الحِجارة.

وقيل: هي صُفرة الوجهِ من سهر الليل، ورُوي ذلك عن عكرمة والضحاك.

وروى السُّلمي عن عبد العزيز المَكّي: ليس ذاك هو النُّحول والصُّفرة، ولكنه نورٌ يظهرُ على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبيَّن ذلك للمؤمنين، ولو كان في زنجي أو حبشي[١].

وقال عطاء والربيع بن أنس: هو حُسنٌ يعتري وجوه المُصلِّين. وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: السَّمتُ الحَسَن[٢]. وعن بعضهم: ترى على وجوههم هيبةً؛ لِقُرب عهدهم بمناجاة سيِّدهم.

والذاهبون إلى هذه الأقوال قائلون: إنَّ المرادَ: علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا. وقال غير واحد: هذه السِّيما في الآخرة، أخرج البخاري في «تاريخه» وابن نَصْر عن ابن عباس أنه قال في الآية: بياضٌ يغشى وجوهَهم يومَ القيامة[٣]. وأخرج ابن نصر وعبد بن حُميد وابن جرير عن الحسن مثله[٤].

وأخرجوا عن عطية العوفي قال: موضعُ السجود أشدُّ وجوههم بياضاً[٥].

وأخرج الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» وابن مردويه بسند حسن عن أُبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾: «النورُ يومَ القيامة»[٦]. ولا يبعدُ أن يكونَ النورُ علامةً في وجوههم في الدنيا والآخرة، لكنه لما كان في الآخرة أظهرَ وأتمَّ خصَّه النبيُّ ﷺ بالذِّكر، وإذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

---

(١) تفسير السلمي ٢/ ٢٥٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣، وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٢٨٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والتاريخ الكبير ٣/ ٢١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الأوسط (٤٤٦٤)، والمعجم الصغير (الروض الداني)(٦١٩).

وقرأ ابنُ هرمز: «إِثْر» بكسر الهمزة وسكون الثاء[١]، وهو لغة في أَثَر.

وقرأ قتادة: «من آثار» بالجمع[٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من نُعوتهم الجليلة؛ وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوِّ شأنه وبُعد منزلته في الفضل، وقيل: البعدُ باعتبار المبتدأ، أعني «أشداء»، ولو قيل: هذا، لتُوُهِّمَ أنَّ المُشارَ إليه هو النعتُ الأخير، أعني: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود». وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفُهم العجيب الشأن الجاري في الغَرابة مجرى الأمثال. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حالٌ من «مَثَلُهم»، والعاملُ معنى الإشارة؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على «مَثَلُهم» الأول، كأنه قيل: ذلك مَثَلُهم في التوراة والإنجيل، وتكرير «مَثَلُهم» لتأكيدِ غرابته وزيادة تقريرها.

وقُرئ: «الأَنجيل» بفتح الهمزة[٣].

وقوله عز وجل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ إلخ، تمثيلٌ مستأنف، أي: هم، أو: مَثَلُهم كزرع.. إلخ، فالوقفُ على «الإنجيل» وهذا مرويٌّ عن مجاهد. وقيل: «مَثَلُهم» الثاني مبتدأ، وقوله تعالى: «كزرع» إلخ خبرُه، فالوقف على «التوراة» وهذا مرويٌّ عن الضحاك وأبي حاتم وقتادة. وجُوِّز أن يكون «ذلك» إشارةً مُبهمة أُوضحت بقوله تعالى: «كزرع» إلخ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. فعلى الأول والثالث «مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل» شيءٌ واحدٌ إلا أنه على الأول «أشداء على الكفار رحماء بينهم» إلخ، وعلى الثالث «كزرع أخرج شطأه» إلخ، وعلى الثاني «مثلهم في التوراة» شيء وهو «أشداء» إلخ، ومثلُهم في الإنجيل شيء آخر وهو «كزرع» إلخ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، والكشاف ٣/ ٥٥١.

واعتُرض الوجه الثالث بأنَّ الأصلَ في الإشارة أن تكون لمتقدِّم، وإنما يُشار إلى المتأخِّر إذا كان نعتاً لاسم الإشارة نحو ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]، وفيه أنَّ الحَصْر ممنوعٌ.

والشَّطْءُ: فروخُ الزرع ـ كما قال غير واحد ـ وهو ما خرج منه وتفرَّع في شاطئيه، أي: في جانبيه؛ وجمعه ـ كما قال الراغب[١] ـ أشطاء. وقال قطرب: شوكُ السُّنبل، يخرج من الحبَّة عشرُ سُنبلات وتسع وثمان. وقال الكسائي والأخفش: طَرَفُه، وأنشدوا:

أَخرجَ الشَّطْءَ على وجه الثَّرى ... ومن الأشجار أفنانَ الثَّمَرْ[٢]

وزعم أبو الفتح[٣] أنَّ الشطء لا يكونُ إلا في البُرِّ والشعير، وقال صاحب «اللوامح»: شَطَأَ الزرعُ وأَشْطَأَ: إذا أخرجَ فِراخَه، وهو في الحِنْطة والشعير وغيرهما، وفي «البحر»[٤]: أشطأ الزرع: أفرخ، والشجرة: أخرجَتْ غُصونَها.

وفي «القاموس»: الشَّطءُ: فراخُ النخل والزرع، أو: ورقُه، جمعه: شُطوء، وشَطَأَ ـ كمنع ـ شَطْأً وشطوءاً: أخرجها، ومن الشجر ما خرج حولَ أصله، وجمعه: أشطاء، وأشطأ: أخرجها[٥]. اهـ. وفيه ما يُرَدُّ به على أبي الفتح مع زيادة لا تخفى فائدتُها، فلا تَغْفُلْ.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: «شَطَأَه» بفتح الطاء[٦]. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عَبْلة وعيسى الكوفي كذلك وبالمَدّ[٧]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ كذلك أيضاً وبألف بدل الهمزة[٨]، فاحتمل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصلُه الهمزَ، فنقل الحركة وأبدل

---

(١) المفردات (شطا).

(٢) البيت للزبير بن العوام ﷺ، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٧٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٨.

(٥) القاموس المحيط (شطأ).

(٦) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٧) أي: «شَطَاءَه». القراءات الشاذة ص ١٤٢، والمحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٨) أي: «شَطَاه». المحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٠٢.

الهمزة ألفاً كما قالوا في المرأة والكَمْأة: المراة والكماة، وهو تخفيفٌ مَقِيسٌ عند الكوفيين، وعند البصريين شاذٌّ لا يُقاس عليه.

وقرأ أبو جعفر: «شَطَه» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، ورُويت عن شيبة ونافع والجحدري[1]. وعن الجحدري أيضاً: «شَطْوَه» بإسكان الطاء وواو بعدَها، قال أبو الفتح: هي لغةٌ أو بدلٌ من الهمزة[2].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: أعانه وقوَّاه، قاله الحسن وغيره. قال الراغب[3]: وأصله من شَدِّ الإزار، يقال: أَزرته، أي: شددت إزاره، ويقال: آزرت البناء وأزرته: قوَّيت أسافله، وتأزَّر النبات: طال وقَوِي.

وذكر غيرُ واحد أنه إما من المؤازرة بمعنى المعاونة، أو من الإيزار، وهي الإعانة. وفي «البحر»[4]: «آزر» أَفْعَلَ، كما حُكي عن الأخفش، وقول مجاهد وغيره: فاعَلَ، خطأ؛ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِر على وزن يُكرِم دون يُؤازِر. وتُعقِّب بأنَّ هذه شهادةُ نفي غيرُ مسموعة، على أنه يجوز أن يكونَ ورد من بابين، واستغني بأحدهما عن الآخر، ومثله كثير، مع أن السرقسطي نقله عن المازني، لكنه قال: يقال: آزر الشيءُ غيرَه، أي: ساواه وحاذاه، وأنشد لامرئ القيس:

بِمَحْنِيةٍ قد آزرَ الضَّالَ نَبْتُها مَجَرَّ[5] جيوش غانمين وخُيَّبِ[6]

وجعل ما في الآية من ذلك، وهو مرويٌّ أيضاً عن السدي قال: آزره: صار

(١) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٣، والكلام منه، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر ونافع.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٧، والبحر ٨/ ١٠٢.
(٣) المفردات (أزر).
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠٣.
(٥) في الأصل و(م): بجر، والمثبت من الديوان.
(٦) ديوان امرئ القيس ص٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي، وهو أخصب موضع فيه. وقوله: مجرّ جيوش: أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم وخائب، فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفاً من الجيوش، فذلك أوفر لخصبها وأتم لكلئها.

مثلَ الأصل في الطول. والجمهور على ما نقل أولاً، والضمير المرفوعُ في «آزره» للشطء، والمنصوب للزرع، أي: فَقَوَّى ذلك الشطءُ الزرعَ.

والظاهر أنَّ الإسناد في «أخرج» و«آزر» مجازيٌّ. وكون ذلك من الإسناد إلى المُوجب، وهو حقيقةٌ، على ما ذهب إليه السيالكوتي في «حواشيه» على «المطول» حيث قال في قولهم: سرَّتني رؤيتك: هذا القول مجازٌ إذا أريد منه حصولُ السرور عند الرؤية، أما إذا أُريد منه أن الرؤية مُوجبةٌ للسرور فهو حقيقةٌ = لا يخفى حاله.

وقرأ ابن ذكوان: «فأَزَرَهُ» ثلاثيًّا[١].

وقُرئ: «فأزَّره» بشدِّ الزاي[٢]، أي: فشدَّ أزره وقوَّاه.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدِّقة إلى الغِلَظ، وهو من باب: اسْتَنْوَقَ الجملُ، ويحتمل أن يُرادَ المبالغة في الغِلَظ كما في استعصم ونحوه، وأُوثر الأول؛ لأنَّ المَساق يُنبئ عن التدرُّج.

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قصبه وأُصوله، جمع: ساق، نحو: لابة ولوب، وقارة وقور.

وقرأ ابن كثير: «سؤقه» بإبدال الواو المضموم ما قبلَها همزة[٣]، قيل: وهي لغةٌ ضعيفة، ومن ذلك قوله:

أَحَبُّ المُؤْقِدِينَ إليَّ مؤسى[٤]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوَّته وكثافته وغِلَظه وحسن منظره، والجملة في موضع الحال، أي: مُعجباً لهم، وخصَّهم تعالى بالذِّكر لأنه إذا أعجب الزُّرَّاع وهم يعرفون عيوبَ الزرع، فهو أحرى أن يُعجِبَ غيرهم، وهنا تمَّ المَثَل، وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى

---

(١) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥١، والبحر المحيط ٨/ ١٠٣.
(٣) التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، والبحر ٨/ ١٠٣.
(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٨٨، وفيه: لحبُّ الواقدان. وعجز البيت: وجعدة لو أضاءهما الوقود. وسلف ١٩/ ٤٦٠.

للصحابة ﷺ قلُّوا في بدء الإسلام ثم كَثُروا واستحكموا، فترقَّى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس، وهذا ما اختاره بعضُهم، وقد أخرجه ابنُ جرير وابن المنذر، عن الضحاك. وابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة[1]، وذكر عنه أنه قال أيضاً: مكتوبٌ في الإنجيل: سيخرجُ قومٌ ينبتون نباتَ الزرع، يخرجُ منهم قومٌ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنكر.

وفي «الكشاف»[2]: هو مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لبدء مِلَّة الإسلام وترقِّيه في الزيادة إلى أنْ قَويَ واستحكم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قام وحدَه، ثم قوَّاه اللهُ تعالى بمن معه كما يقوِّي الطاقة الأولى [من الزرع] ما يحتفُّ بها مما يتولَّد منها.

وظاهرُه أنَّ الزرعَ هو النبيُّ ﷺ، والشَّطءَ أصحابُه ﷺ، فيكون مَثَلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه، لا لأصحابه فقط كما في الأول، ولكلٍّ وجهة. وروي الثاني عن الواقدي. وفي خبر أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس[3] ما يقتضيه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ عِلَّةٌ لما يُعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجهِ الذي تضمَّنه التمثيل. وظاهرُ كلامِ بعضهم أنه عِلَّةٌ للتمثيل، وليس بذاك.

وقيل: عِلَّةٌ لما بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ فإنَّ الكفَّار إذا سمعوا بما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العِزَّة غاظَهم ذلك. وهو مع توقُّف تماميَّته بحسب الظاهر على كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومُتحقِّقين كونَ الوعدِ منه عز وجل = بعيدٌ.

وضمير «منهم» لمن عاد عليه الضمائر السابقة، و«من» للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وليس مجيئها كذلك

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٠ و٣٣٢.
(٢) ٣/ ٥٥١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣١.

مخصوصاً بما إذا كانت داخلةً على ظاهر كما توهَّم صاحبُ «التحفة الاثني عشرية» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فقال: حملُ «مِنْ» للبيان إذا كان داخلاً على الضمير مخالفٌ لاستعمال العرب، وأنكر ذلك عليه صاحبُ الترجمة لكن قال: لو ادَّعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلّم لم يَبْعُدْ.

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ عند القائلين بأنَّ ضميرَ «تزيَّلوا» للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتدادَ أكثرِ الصحابة ﵃ من أهل بيعة الرضوان وغيرهم، فإنَّ مدحَهم السابق بما يدلُّ على الاستمرار التجددي كقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ووصفهم بما يدلُّ على الدوام والثَّبات كقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ يأبى التبعيض والارتدادَ الذي زعموه عند مَن له أدنى إنصافٍ وشمةٍ من دين، ويزيدُ زعمَهم هذا سقوطاً عن درجةِ الاعتبار أن مَدْحَهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ، ولا يكاد عاقلٌ يقبل أنه تعالى أطلق المدحَ وكتبه لأُناس لم يَثْبُتْ على تلك الصفة إلا قليلٌ منهم.

وإذا قلنا: إنَّ هؤلاء الممدوحين هم أهلُ بيعةِ الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يُشعر به «والذين معه» لا سيما على القول بأنَّ السورةَ بتمامها نزلت عند مُنصرَفهِ عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرَّقوا عنه ﷺ، كان سقوطُ ذلك الزعم أَبْيَنَ وأبينَ؛ لأن الارتدادَ الذي يزعُمونه كان لترك مُبايعةِ عليّ كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله ﷺ مع العلم بالنَّصِّ على خلافتهِ بزعمهم ومبايعةِ أبي بكر ﵁، وكيف يكون ذاك ارتداداً والله عز وجل حين رضي عنهم عَلِمَ أنهم يَفعلونه؟!

والقولُ بأنه سبحانه إنما رضي عن مُبايعتهم، أو عنهم من حيث المُبايعة، ولم يَرْضَ سبحانه عنهم مطلقاً لأجلها، خلافُ ظاهر الآية، والظاهر ما نفي، ولا يُعكِّر عليه صدور بعضِ المعاصي من بعضهم بعدُ، وإنما يعكِّر صدورُ ما لا يُجامع الرضا أصلاً كالارتداد، والعِياذ بالله تعالى.

وبالجملة جعل «مِنْ» للتبعيض ليتمَّ للشيعة ما زعموه مما يأباه الكتابُ والسنة وكلام العِتْرة. وفي «التحفة الاثني عشرية» من ذلك ما تنشرح له الصدورُ، وتزدادُ به قلوبُ المؤمنين نوراً على نور، ويا سبحان الله أين جعل «مِنْ» للتبعيض من دَعوى الارتداد! ولكن من يُضلل الله فما له من هاد.

وتأخير «منهم» هنا عن «عملوا الصالحات» وتقديم «منكم» عليه في آية «النور» التي ذكرناها آنفاً؛ لأن عمل الصالحات لا ينفكّ عنهم، وذلك ثمَّت لبيان الخُلفاء، والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرارِ صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفِسق. وقال ابن جرير[١]: «منهم» يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة، فأعاد الضميرَ على معنى الشطء، وكذلك فعل البغوي[٢]، ولا يخفى بُعده.

هذا وفي «المواهب» أن الإمام مالكاً قد استنبط من هذه الآية تكفيرَ الروافض الذين يُبغضون الصحابةَ ﷺ، فإنهم يغيظونهم، ومَنْ غاظَه الصحابةُ فهو كافر، ووافقه كثيرٌ من العلماء[٣]. انتهى.

وفي «البحر»[٤] ذُكر عند مالك رجلٌ ينتقص الصحابةَ، فقرأ مالك هذه الآية، فقال: مَنْ أَصبحَ من الناس في قلبه غيظٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. ويُعلم تكفير الرافضة بخصوصهم. وفي كلامِ عائشة ﵂ ما يُشير إليه أيضاً؛ فقد أخرج الحاكم وصحَّحه عنها في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالت: أصحابُ محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم[٥]. وعن بعض السلف جعل جُمل الآية كلَّ جملةٍ مشيرة إلى معيَّن من الصحابة ﷺ، فعن عكرمة أنه قال: «أخرج شطأه» بأبي بكر، «فآزره» بعمر، «فاستغلظ» بعثمان، «فاستوى على سوقه» بعليّ رضي الله عنهم أجمعين[٦].

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٣٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/٢٠٨.
(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني ٧/ ٢٣.
(٤) ٨/ ١٠٣.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٦٢.
(٦) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥١.

وأخرج ابن مردويه، والقاضي أحمد بن محمد الزهري في «فضائل الخلفاء الأربعة» والشيرازي في «الألقاب» عن ابن عباس: «محمد رسول الله والذين معه» أبو بكر، «أشداء على الكفار» عمر، «رحماء بينهم» عثمان، «تراهم ركعاً سجداً» علي كرم الله تعالى وجهه، «يبتغون فضلاً من الله ورضوانا» طلحة والزبير، «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عُبيدة بن الجراح، «ومثلهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أَخرجَ شطأه فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «يُعجب الزُّرَّاع ليغيظَ بهم الكفار» بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه، «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات» جميع أصحاب محمد ﷺ(١).

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه رضي الله عنه أيضاً في قوله تعالى: «كزرع» قال: أصلُ الزرع عبد المطلب، «أخرج شطأه» محمد ﷺ، «فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «ليغيظ بهم الكفار» بعليٍّ رضي الله عنه(٢).

وكلُّ هذه الأخبار لم تصحَّ فيما أرى، ولا ينبغي تخريجُ ما في الآية عليها، وأعتقد أن لكلٍّ من الخلفاء رضي الله عنهم الحظّ الأوفى مما تضمَّنته، ومتى أُريد بالزرع النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان حظُّ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه من شطئه أوفى من حظِّ سائر الخلفاء رضي الله عنهم، ولعلَّ مُؤازرته ومُعاونته البدنية بقتل كثيرٍ من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثرُ من مُؤازرةِ غيره من الخُلفاء أيضاً، ومع هذا لا ينخدشُ ما ذهب إليه محقِّقو أهل السنة والجماعة في مسألة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل، فتأمَّل واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُشير عندهم إلى فتح مكةِ العَماء بإدخال الأعيان الثابتة ظاهرة بنور الوجود فيها، أي:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق.

إظهارها للعِيان لأجله عليه الصلاة والسلام، على أنَّ لام «لك» للتعليل، وحاصِلُه: أَظهرنا العالمَ لأجلك، وهو في معنى ما يَروونه من قوله سبحانه: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك»[1]. وقيل: يُشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حَضْرة ربوبيته عز وجل بتجلِّي صفات جماله وجلاله، وفتح ما انغلقَ على جميع القلوب من الأسرار، وتفصيل شرائع الإسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ليستر وجودَك في جميع الأزمنة بوجوده جلَّ وعلا ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإثبات جميع حسنات العالم في صحيفتك، إذ كنتَ العِلَّةَ في إظهاره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بدعوة الخَلْق على وجه الجمع والفرق ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ على النفوس الأمَّارة ممن تدعوهم إلى الحقّ ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قلَّما يُشبهه نصرٌ. ومن هنا كان ﷺ أكثرَ الأنبياء عليهم السلام تبعاً، وكان علماءُ أمته كأنبياء بني إسرائيل، إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم، وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأرواحهم. والمرادُ: ليجمع لك هذه الأمور، فلا تغفل.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فسَّروها بشيء يجمع نوراً وقوة وروحاً بحيث يسكنُ إليه ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر، ويحدثُ عنده القيام بالخِدمة ومحاسبة النفس وملاطفة الخَلْق ومراقبة الحقّ والرِّضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش. وقالوا: لا تنزلُ السكينةُ إلا في قلب نبيٍّ أو وَليٍّ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيحصل لهم الإيمان العِياني والإيمان الاستدلالي البرهاني.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على جميع المخلوقات إذ كنتَ أول مخلوق[2]، ومن هنا أحاط ﷺ علماً بما لم يُحِطْ به غيره من المخلوقات، لأنه عليه الصلاة والسلام

(١) وهو حديث موضوع، ذكره الصغاني في موضوعاته (٧٨).
(٢) هذا كلام صوفي مستنده عندهم حديث: أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. وهو حديث موضوع، ثم إنه قد ثبت أن أول ما خلق الله القلم، كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ الذي أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧).

شاهد خَلْقَ جميعها، ومِن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الروح والجسد»[1].

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إذْ كنتَ أعلمَ الخَلْق بصفات الجمال والجلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يُشير عندهم إلى كمال فَناء وجوده ﷺ وبقائه بالله عز وجل، وأيّد ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلِّفون عن السير إلى قتالِ الأنفس الأمَّارة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ من سكان بوادي الطبيعة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ العوائق والعلائق ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا ليتأتى لنا السير ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لتمكُّن حُبِّ ذلك في قلوبهم وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها:

رَضُوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحبِّ دعوى فما ابتلّوا[2]

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إنَّ هاتيك العوائق والعلائق لا تُجديكم شيئاً ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيُجازيكم عليها حسبما تقتضي الحِكْمة.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ﴾ بل حَسِبتم أن لا يرجع العقلُ والقوى الروحانية من السالكين السائرين إلى جهادِ النفس وطلب مغانم التجلِّيات والأنس إلى ما كانوا عليه من إدراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بالله تعالى وشؤونه عز وجل ﴿وَكُنْتُمْ﴾ في نفس الأمر ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين في مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وهي مغانمُ التجلِّيات ومواهب الحقِّ لأرباب الحَضَرات ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ دعونا نَسْلُكْ مَسْلَكَكم لننالَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة، قال: «وآدم بين الروح والجسد».

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٣٤.

مَنالَكُم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ في حقِّهم من حِرمانهم المغانمَ لسوء استعدادهم ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ حكَم وقضى ﴿مِن قَبْلُۖ﴾ إذ كنتم في عالم الأعيان الثابتة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ منكرين لذلك ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ ولهذا تمنعوننا عن الاتباع ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولذلك نسبوا الحسد ـ وهو من أقبحِ الصِّفات ـ إلى ذوي النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ ولا تُتْركون سُدى ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم النفس وقواها ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ ينقادون لحكم رسول العقل المُنزَّه عن شوائب الوهم ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ الداعي ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ﴾ من أنواع المعارف والتجلِّيات ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب الحرمان والحجاب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ وهو مَنْ لم يَر في الدار غيره دياراً ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم، لأنه وراء ذلك ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ وهو مَن فَقَد شيخاً كاملاً سالماً عن عيبٍ في كيفية التسليك والإيصال ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك أيضاً، وهو إشارة إلى ما قالوا من أنَّ تركَ السلوك خيرٌ من السلوك على يدِ ناقص ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ بمرض العِشْق والهيام ﴿حَرَجٌۗ﴾ في ذاك أيضاً لأنه مجذوبٌ، والجذبة خيرٌ من السلوك.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يُشير إلى المعاهدين على القتلِ بسيف المجاهدة تحت سَمُرَةِ الانفرادِ عن الأهل والمال، ويقال في أكثرِ الآيات الآتية نحو هذا.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أعداءِ الله عز وجل في مقام الفرق ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ لقوة مناسبة بعضهم بعضاً، فهم جامعون لصفتي الجَلال والجمال ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ له عز وجل، وعدمِ السجود لشيء من الدنيا والأخرى، وتلك السِّيما خلعُ الأنوار الإلهية، قال عامر بن عبد قيس: كاد وجهُ المؤمن يُخبِر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ ستراً لصفاتهم بصفاته عز وجل ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ وهو أن يتجلَّى سبحانه لهم بأعظمِ تجلِّياته، إلا فكلُّ شيء دونه جل جلاله ليس بعظيم، وسبحانه مِن إلهٍ رحيمٍ ومَلِكٍ كريم.